

قَالَتِ الْمُنَابِرُ

(المجموعةُ الرَّابِعَةُ)

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٤١هـ - ٢٠٢٠م

قَالَتِ الْمَنَابِرُ

مجموعَةٌ مِنْ حُطَبِ الْجُمُعَةِ أُقِيَّتْ فِي جَامِعِ
الْأَمِيرِ الرَّاحِلِ صَاحِبِ السُّمُو الشَّيْخِ عَيْسَى بْنِ سَلْمَانَ آلِ خَلِيفَةَ
رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى

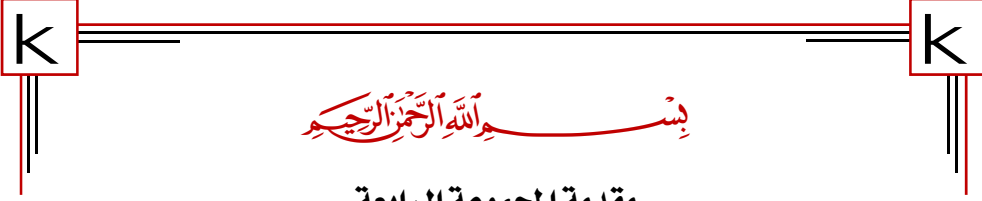
(الْجُمُوعَةُ الرَّابِعَةُ)

أَلْقَاهَا الرَّاجِي عَفْوَرَبِّهِ

رَاشِدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ فَطِيْسِ الْهَاجِرِيِّ

خَطِيبُ جَامِعِ عَيْسَى بْنِ سَلْمَانَ آلِ خَلِيفَةَ

الرَّفَاعُ الْغَرَبِيُّ - مَمْلَكَةُ الْبَحْرَيْنِ



مقدمة المجموعة الرابعة

• • k • •

الحمدُ لله ربِّ العالمينَ، وصَلَّى اللهُ وسلَّم على رسولِ اللهِ وعلى آلِهِ وصَحْبِهِ
أجمعينَ، وبعْد:

فإني أحمدُ اللهَ **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** أن يسرَّ لي إخراجَ المجموعة الرَّابِعةِ من كتابي
(قالت المنابرُ)، والتي تحتوي على أربعٍ وأربعينَ خُطبةً، يسرَّ اللهُ لي إلقاءها في جامع
الأمير الرَّاحِلِ صاحبِ السُّمُوِّ الشَّيخِ عيسى بنِ سلمان آلِ خَلِيفَةِ **رَحْمَةُ اللهِ**، سائلاً
المولى **عَزَّجَلَّ** أن يكتبَ لي ولوالديَّ ولزوجتي ولأولادي ولإخواني وأخواتي أجرها
وثوابها، وأن يُثَقِّلَ بها موازينَ حسناتنا يومَ نلقاهُ، وأن يجعلَها لنا صدقةً جاريةً ننتفعُ
بها في دُنْيَانَا وأخرانَا، وأن يَنْفَعَ بها كُلَّ مَنْ قرأها واطَّلَعَ عليها... **اللَّهُمَّ آمينَ**.

ملاحظة: للاطلاع على فكرة هذه المجموعة: أرجو من القارئ الكريم قراءة
مُقدِّمة المجموعة الأولى.

والحمدُ لله ربِّ العالمينَ.

وكتبه

راشد بن محمد بن فطيس الهاجري

الرفاع الغربي - مملكة البحرين

١٤٤١هـ / ٢٠٢٠م



مقدمة المجموعة الثالثة

•• k ••

الحمدُ لله وَحْدَهُ، والصلاةُ والسَّلَامُ عَلَى مَنْ لا نَبِيَّ بَعْدَهُ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ
وَمَنْ سَارَ عَلَى مَنْهَجِهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، **أَمَّا بَعْدُ:**
فهذه المجموعة الثالثةُ من **(قَالَتِ الْمَنَابِرُ)** وهي - كما تقدّم في مُقدّمة المجموعة
الأولى - مجموعةٌ من خُطَبِ الجُمُعَةِ، يَسَّرَ اللهُ لِي إِلقاءَها، وَقَد أَشارَ عَلَيَّ بَعْضُ
المُحِبِّينَ بِتفريغِها وَجَمْعِها في كِتابٍ.

وَإِنِّي إِذْ أَحمَدُ اللهُ عَلَى ما يَسَّرَ لِي مِنْ جَمْعِها وإِخراجِها؛ أسألهُ -سُبْحانَهُ- أَنْ
يَجْعَلِها خالِصَةً لوجهِهِ الكَرِيمِ، وَأَنْ يَجْعَلِها لِي ذُخْرًا يَوْمَ القِيامَةِ، وَأَنْ يُثَقِّلَ بِها
مَوازِينَ حَسَناتي، وَأَنْ يَكْتُبَ بِها الأَجْرَ والثَّوابَ لوالِدَيَّ ولزَوجِتي وأَولادِي
ولِجَميعِ أَهلي وَمَنْ أَعانَني وَساعَدَني في إِخراجِ هذهِ المجموعاتِ.
والحمدُ لله ربِّ العالمينَ.

وكتَبَهُ

راشدُ بنُ مُحَمَّدِ بنِ فَطيسِ الهاجِريِّ

الرِّفَاعُ الغَرَبِيُّ - مَمْلَكَةُ البَحْرَيْنِ

٢٠١٩/هـ/٢٠١٩ م

•• k ••

K

K

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة المجموعة الثانية

•• k ••

الحمدُ لله وَحْدَهُ، والصلاةُ والسَّلامُ عَلَى مَنْ لا نَبِيَّ بَعْدَهُ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ
وَمَنْ سارَ عَلَى مَنْهَجِهِ إلى يومِ الدِّينِ، **أَمَّا بَعْدُ:**

فهذه هي المجموعة الثانية من موسوعة خطب الجمعة: **(قالت المناير)** والتي
أكرمني الله بإلقائها من على منبر جامع الأمير الراحل صاحب السمو الشيخ عيسى
بن سلمان آل خليفة، بمدينة الرفاع الغربي بمملكة البحرين حرسها الله تعالى .

وقد ذكرت في مقدمة المجموعة الأولى السبب الداعي لجمع هذه الخطب في
هذه الموسوعة مما يُغني عن إعادته هنا، سائلاً المولى **عزَّ وجلَّ** أن يجعلها خالصةً
لوجهه الكريم، وأن يكتب لي ولوالدي بها الأجر والثواب.

والشُّكرُ والتقديرُ لجميع مَنْ قدَّم لي المساعدة في إخراج هذه الموسوعة،
وأخصُّ بالشُّكرِ الشيخَ سلطان بن إبراهيم عاشور مؤذن الجامع والمُشرفَ المُباشر
على جمع وأرشفة جميع الخطب، كما أتقدم بالشُّكر الجزيل للأخ الفاضل الشيخ
فواز الرميحي المسؤول عن تفرغ سلسلة الخطب ومتابعة طباعتها، كما أشكر
الأخ عمران إبراهيم على جهده الدؤوب في تسجيل الخطب وترتيبها.

وفي الختام يحضرنى قول البيهقي **رحمة الله:** إني رأيتُ أنه لا يكتب إنسان كتاباً
في يومٍ، إلا قال في غده: لو غير هذا لكان أحسن، ولو زيد هذا لكان يُستحسن،

ولو قُدِّمَ هذا لكانَ أفضلَ، ولو تُركَ هذا لكانَ أجملَ، وهذا مِن أعظمِ العِبرِ، وهو دليلٌ على استيلاءِ النَّقصِ على جُملةِ البَشَرِ. فأسألُ اللهَ أنْ يَغْفِرَ لي ما في هذهِ المجموعةِ مِن خطأٍ ونَقْصٍ، وأنْ يَتجاوَزَ عَن تَقْصيري فيها.

وكتَبتهُ: الراجي عَفْوَ رَبِّهِ

راشدُ بنُ محمدَ بنِ فطيسِ الهاجريُّ

الرِّفَاعُ الغَرَبِيُّ - مَمْلَكَةُ البَحْرَيْنِ

١ شَعْبَانَ ١٤٣٩ للهجرة، الموافق: ١٧ أبريل ٢٠١٨

•• k ••



مقدمة المجموعة الأولى

• • k • •

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين، **وبعد:**

فقد بدأتُ الخطابة -بصفة رسمية- قبل عشرين سنة تقريباً، وذلك حين التحقتُ بشعبة الإرشاد والثقافة بالحرس الوطني، وكان من جملة مهامّي الوظيفية إلقاء خطبة الجمعة في جامع معسكر الحرس الوطني، إلى أن تشرفتُ بصدور التوجيه السامي الكريم لصاحب الجلالة الملك حمد بن عيسى آل خليفة ملك مملكة البحرين -حفظه الله ورعاه- بتعييني خطيباً رسمياً لجامع المغفور له -ياذن الله تعالى- صاحب السمو الأمير الراحل الشيخ عيسى بن سلمان آل خليفة طيب الله ثراه، وذلك في عام ١٤٣١هـ الموافق ٢٠١٠م.

وفي خلال هذه الفترة التي قضيتها خطيباً أدركتُ تماماً أهمية خطبة الجمعة وخطورة التهاون فيها، فلقد كنتُ أقابل في كل جمعة عقولاً راجحةً جديرةً بالاحترام والاهتمام، فكنتُ أهتم كثيراً بموضوع الخطبة، ولا أبالغ إذا قلتُ: إنني أفكر في موضوع الخطبة التالية منذ بداية الأسبوع، ولقد زادني تعظيماً لشأن الخطبة أن هذا المقام هو مقام النبيين والمرسلين، وهو توقيع عن رب العالمين، ووسيلة عظمى لنشر الحق وإذاعة الدين.

هذا المقام مقام الرُّسلِ قاطبةً وفوقه حاربوا كيدَ الشَّيَاطِينِ
وموطنُ النَّصْحِ والإرشادِ من زمنٍ ومنبرُ الحَقِّ والتَّعليمِ للدينِ

والحقُّ أَنِّي استفدْتُ كثيرًا منَ خطبِ العلماءِ ودروسِهِمْ وكتبِ الدُّعَاةِ
ومقالاتِهِمْ، فكنْتُ أَلْخُصُّ بعضَ الكتبِ والمقالاتِ والخطبِ وأعيدُ صياغَتَهَا؛
ليتناسبَ المقالُ معَ المقامِ، ولا أدَّعي أَنِّي جئتُ في هذهِ الخطبِ بالجديدِ أبدًا، وإِنَّمَا
هي نُقُولٌ جمعتها وألَّفتُ بينها وقدمتها على هيئةِ خطبةٍ.

ولَمَّا كنتُ أَلقي هذهِ الخطبَ ارتجالًا منَ ذاكرتي دونَ كتابتِها أشارَ على بعضِ
الإخوةِ بتسجيلِها، ثمَّ تفرغَها في كتابٍ ليستفادَ منها.

زكاةُ العلمِ بذلٌّ ثمَّ نشرٌ وما كالعلمِ في أخراكَ دُخْرُ
تُفيدُ بهِ الخلائقَ كلَّ حينٍ ويبقى منه بعدَ الموتِ أجرُ

ولقد كنتَ مترددًا كثيرًا في تلبيةِ طلبِهِمْ إلى أن شرحَ اللهُ صَدْرِي لذلكَ،
فقمْتُ بتفريغِ المجموعةِ الأولى من هذهِ الخطبِ - وعددها تسعَ وأربعونَ خطبةً -
في هذهِ المؤلَفِ، وتكررتُ البقيَّةُ للمجموعاتِ القادمةِ بإذنِ اللهِ تعالى.

ولا يَسْعُنِي في هذا المقامِ وبعدَ شكري اللهُ على ما منَّ بهِ عليّ من فضلٍ إخراجِ
هذهِ المجموعةِ من الخطبِ إلا أن أشكُرَ جميعَ من ساعدني وساهمَ في إخراجِ هذهِ
الخطبِ سائلًا اللهُ لي ولهمُ. الأجر والثَّواب السَّداد والصَّواب.

تولاني الأجابةُ والصَّحابُ أعانوني فصاحبني الصَّوابُ
وخيرُ الصَّحبِ من يؤتيكَ نصحًا يفيدُك حينَ يغشاك الترابُ

وفي الختام أرجو ممن سيقراً هذه الخطب أن يعذرني إن وجدَ خطأً وخللاً؛
فقد ألقىت هذه الخطب - كما تقدّم - حفظاً من ذاكرتي.

وإن تجد عيباً فسُدّ الخلالاً جَلَّ مَنْ لا عيبَ فيه وعَلا

وعليه فأرجو ممن رأى شيئاً أن يبذل النصيحة ويوافيني بما وجد؛ لأتدارك
ذلك في الطبعات القادمة إن شاء الله.

والحمد لله رب العالمين.

وكتبه

راشد بن محمد بن فطيس الهاجري

الرفاع الغربي - مملكة البحرين

جمادى الأولى ١٤٣٨هـ / فبراير ٢٠١٧م

•• k ••



(١)

الأمانة

•• k ••

أيها الأخيار، على مدى أسابيع مَضَتْ ورُبَّما شهوِرٍ كان هناك من الإخوة
الفضلاء مَن تَنَافَسَ على بعض الولايات، على مَقْعَدٍ في مجلسٍ نيابيٍّ، أو عُضُويَّةٍ في
مجلسٍ بلديٍّ، أو غيرها من هذه الولايات.

جئنا اليوم وقد أُسْدِلَ السُّتَارُ؛ فَازَ مَنْ فَازَ من الإخوة، أسأل المولى الكريم
بأسمائِهِ الحُسْنَى وصفاتِهِ العُلَى له السَّدَادَ والرِّشَادَ والتوفيقَ والإعانةَ، وخَسِرَ مَنْ
الإخوة مَنْ خَسِرَ وهو عندي من الرَّابِحِينَ؛ لِأَنَّهُ فَكَّ رَقَبَتَهُ مِنْ تَحْمُلِ الْمَسْئُولِيَّةِ،
فَفَرَّقَ بَيْنَ أَنْ يَأْتِيَ الْإِنْسَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وليس في رَقَبَتِهِ إِلَّا أُسْرَتُهُ، وَيَبْنِ هَذَا الَّذِي
يَأْتِي وَفِي رَقَبَتِهِ أَكْثَرُ مِنْ ثَلَاثَةِ آلَافٍ نَاخِبٍ يَسْأَلُونَهُ: مَاذَا قَدَّمْتَ لَنَا؟

كيف وقد قال نَبِيُّنا ﷺ: «مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْتَرْعِيهِ اللهُ رَعِيَّةً يَمُوتُ يَوْمَ يَمُوتُ
وَهُوَ غَاشٌّ لِرَعِيَّتِهِ إِلَّا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ»؟! (١).

كيف وقد قال نَبِيُّنا ﷺ: «مَا مِنْ عَبْدٍ اسْتَرْعَاهُ اللهُ رَعِيَّةً، فَلَمْ يَحْطِهَا بِنَصِيحَةٍ،
إِلَّا لَمْ يَجِدْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ» (٢).

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأحكام، باب من استرعى رعية فلم ينصح، رقم (٧١٥١)، ومسلم:
كتاب الإيمان، باب استحقاق الوالي الغاش لرعيته النار، رقم (١٤٢)، من حديث معقل بن يسار.
(٢) أخرجه البخاري: كتاب الأحكام، باب من استرعى رعية فلم ينصح، رقم (٧١٥٠)، من حديث
معقل بن يسار رَوَاهُ اللهُ عَنْهُ.

جاء في تفسير ابن كثير عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه أنه قال: «إِنَّ الشَّهَادَةَ» أي: الشهادة في سبيل الله «تُكْفَرُ كُلُّ ذَنْبٍ إِلَّا الْأَمَانَةَ، يُؤْتَى بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ - وَإِنْ كَانَ قَدْ قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ - فَيُقَالُ: أَدَّ أَمَانَتَكَ. فَيَقُولُ: وَأَنْتَى أُودِيَهَا وَقَدْ ذَهَبَتِ الدُّنْيَا؟ فَيُمَثَّلُ لَهُ الْأَمَانَةُ فِي قَعْرِ جَهَنَّمَ، فَيَهْوِي إِلَيْهَا فَيَحْمِلُهَا عَلَى عَاتِقِهِ فَيَصْعَدُ بِهَا، فَتَنْزِلُ عَنْ عَاتِقِهِ، فَيَهْوِي عَلَى أَثَرِهَا أَبَدَ الْأَبْدِينَ»^(١).

فالأمانة أمرها عظيم، وخطرها جسيم، وأنا لا أتحدث عن هذين الصنفين فحسب، بل أتحدث عن الخطيب فعليه أمانة، وأتحدث عن إمام المسجد فعليه أمانة، وأتحدث عن المؤذن فعليه أمانة، وأتحدث عن الطبيب في عيادته، وعن المهندس، وعن الأستاذ في جامعته.

أتحدث عنك يا ولي الأمر فانت قد وُلِّيت أمانة، أتحدث عن الجميع، عن الحاكم وعن المحكوم؛ فكلُّ عليه أمانة سيُسأل عنها يوم القيامة، لكن المصيبة إذا طلب الإنسان هذا التكليف ثم خان فيه!

وقد امتدح الله تبارك وتعالى الذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون، فنقرأ في سورة المؤمنون وفي سورة المعارج: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾^(٨) [المؤمنون: ٨، المعارج: ٣٢].

وحذر من الخيانة فنقرأ في سورة الأنفال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْنَتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾^(٣٧) [الأنفال: ٢٧].

ونقرأ قول الحق سبحانه وتعالى وهو يأمر بالأمانة: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا

(١) تفسير ابن كثير (٢/٣٣٨)، نقلا عن تفسير ابن أبي حاتم (٣/٩٨٥).

الْأَمْنَتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ۗ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ

كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ [النساء: ٥٨].

ومعلومٌ أنَّ الدِّينَ يَتَنَاقَضُ، وأوَّلُ ما يُنْقَضُ مِن هَذَا الدِّينِ فِي شَأْنِ الْأَمَانَةِ،
جاءَ فِي مُعْجَمِ الطَّبْرَانِيِّ الكَبِيرِ مِن حَدِيثِ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ
قال: «إِنَّ أَوَّلَ ما تَفْقَدُونَ مِن دِينِكُمُ الْأَمَانَةَ»^(١).

وكانَ هَذِهِ الْأَمَانَةُ شَيْءٌ مُحْشُوسٌ، يَبْحَثُ النَّاسُ عَنِ الْأَمَانَةِ يَقُولُونَ: لا نَجِدُ
الْأَمَانَةَ، أَي: لا نَجِدُ رَجُلًا أَمِينًا، فَتُفْقَدُ عِنْدَ التَّاجِرِ، وَتُفْقَدُ عِنْدَ الْمُوظَّفِ، وَتُفْقَدُ عِنْدَ
الإمام، وَتُفْقَدُ عِنْدَ الْمُؤَدِّنِ وَالخطيبِ، وَتُفْقَدُ عِنْدَ المُدْرَسِ، يَبْحَثُ النَّاسُ عَنِ الْأَمَانَةِ
فلا يَجِدُونَهَا!

بل جاءَ فِي حَدِيثِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عِنْدَ الطَّبْرَانِيِّ أَيْضًا فِي مُعْجَمِهِ الصَّغِيرِ،
قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «أَوَّلُ ما يُرْفَعُ مِنَ النَّاسِ الْأَمَانَةُ»^(٢).

ولا شكَّ أَننا نَعْرِفُ أبا ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَهُوَ أَحَدُ صَحَابَةِ النَّبِيِّ ﷺ ائْتَدَحَهُ
النَّبِيُّ ﷺ بِمَدْحٍ فِي وَجْهِهِ ما مَدَحَ أَحَدٌ بَعْدَهُ بِمِثْلِهِ، قال: قال لي رسولُ الله ﷺ:
«ما أَقَلَّتِ الغَبْرَاءُ ولا أَظَلَّتِ الخُضْرَاءُ مِن ذِي لَهْجَةٍ أَصْدَقَ مِن أَبِي ذَرٍّ شَبِيهِ عِيسَى
ابنِ مَرْيَمَ»^(٣).

(١) المعجم الكبير للطبراني (٧/٢٩٥، رقم ٧١٨٢). وأخرجه عبد الرزاق (٣/٣٦٣)، وابن أبي شيبه (١٩/٥٥٥)، والحاكم (٤/٥٠٤)، عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ موقوفاً.

(٢) المعجم الصغير للطبراني، رقم (٣٨٧)، وأخرجه أيضاً البيهقي في شعب الإيوان، رقم (٤٨٩٢).

(٣) أخرجه الترمذي: كتاب المناقب، باب مناقب أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رقم (٣٨٠٢)، من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فما كان من أبي ذرٍّ بعد هذا الشَّاء والإطراءِ إِلَّا أن جاءَ إلى النبيِّ ﷺ يطلبُ ولايةً من الولاياتِ، يطلبُ منصباً يُرشِّحُ نفسه له، قال: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَا تَسْتَعْمِلُنِي؟ أَي: تَجْعَلُنِي عاملاً والياً، قال أبو ذرٍّ: فَضَرَبَ بِيَدِهِ عَلَى مَنْكِبِي، وَقَالَ: «يَا أَبَا ذَرٍّ، إِنَّكَ ضَعِيفٌ، وَإِنَّهَا أَمَانَةٌ، وَإِنَّهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِزْبِيٌّ وَنَدَامَةٌ، إِلَّا مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا، وَأَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ فِيهَا»^(١)، فالأمرُ ليس سهلاً، بل الأمرُ عسيرٌ.

يقولُ عُمَرُ -رضي اللهُ تعالى عنه-: «لَا تَنْظُرُوا إِلَى صِيَامٍ أَحَدٍ وَلَا صَلَاةٍ» فهذه عبادتهُ، نعم هو قد يتسلَّقُ هذه العبادة ليصلَ لمصالحه الدُّنيويَّةِ الدَّنيئةِ، قد يستَخدمُ دينه ليتسلَّقَ به على ظُهورِ الآخرين؛ ثم قال: «وَلَكِنْ أَنْظُرُوا إِلَى صِدْقِ حَدِيثِهِ إِذَا حَدَّثَ، وَأَمَانَتِهِ إِذَا اتَّيَمَّنَ، وَوَرَعِهِ إِذَا أَشْفَى»^(٢) أَي: إِذَا أَقْبَلْتَ عَلَيْهِ الدُّنْيَا.

وضياعُ الأمانة له علاماتٌ وآثارٌ، من ذلك:

أولاً: إِنَّ الأمانةَ إِذَا ضَاعَتْ عندَ الإنسانِ ضاعَ دينُه؛ فهناك تلازمٌ بينَ ضياعِ الدينِ وبينَ ضياعِ الأمانةِ، أخبرَ بذلك الذي لا ينطقُ عن الهوى رسولُ الله ﷺ فقد قال ﷺ: «لَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا أمانةَ لَهُ، وَلَا دِينَ لِمَنْ لَا عَهْدَ لَهُ»^(٣).

فإِذَا رَأَيْتَ إنساناً قد ضَيَّعَ الأمانةَ فاعلمَ أَنَّهُ قَبْلَ ذَلِكَ قد ضَيَّعَ الإيمانَ وَإِنْ ظَهَرَ لَنَا بلباسِ الإيمانِ، وَإِنْ تحدَّثَ بحديثِ المؤمنين؛ لا نَغْتَرُّ بذلك، فَإِنْ مَنْ ضَيَّعَ

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإمارة، باب كراهة الإمارة بغير ضرورة، رقم (١٨٢٥)، من حديث أبي ذرٍّ رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو داود في الزهد رقم (٦٤)، وابن أبي الدنيا في الورع رقم (٢١٤)، وأبو نعيم في الحلية (٢٧/٣)، والبيهقي في السنن الكبرى (٦/٢٨٨).

(٣) أخرجه أحمد (٣/١٣٥)، من حديث أنس رضي الله عنه.

الأمانة ضيَع الإيمان، وَمَنْ خَانَ الْعَهْدَ فَقَدْ خَانَ الدِّينَ، يَقُولُ هِشَامُ بْنُ عُرْوَةَ عَنْ أَبِيهِ - رَحِمَهُمَا اللَّهُ تَعَالَى - : «مَا نَقَصَتْ أَمَانَةٌ عَبْدًا قَطُّ إِلَّا نَقَصَ مِنْ إِيْمَانِهِ»^(١).

ثانيًا: ضياع الأمانة علامة من علامات النفاق، يقول نبيُّنا ﷺ: «**آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبًا، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اتَّمَنَ خَانَ**»^(٢).

ثالثًا: ضياع الأمانة دليل على فساد الزمان، إذا كثر تضييع الأمانة؛ هذا يُضَيِّعُهَا وَذَلِكَ يُضَيِّعُهَا، هَذَا يُؤْتَمَنُ عَلَى مَالٍ فَيُضَيِّعُهُ، وَهَذَا يُؤْتَمَنُ عَلَى عَرَضٍ فَيُضَيِّعُهُ، وَهَذَا يُؤْتَمَنُ عَلَى حَدِيثٍ فَيُضَيِّعُهُ، وَهَذَا يُؤْتَمَنُ عَلَى مُهِمَّةٍ فَيُضَيِّعُهَا! فَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى فَسَادِ الزَّمَانِ، يَقُولُ نَبِيُّنَا ﷺ فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ عِنْدَ ابْنِ مَاجَةَ: «**سَيَأْتِي عَلَى النَّاسِ سَنَوَاتٌ خَدَاعَاتٌ، يُصَدَّقُ فِيهَا الْكَاذِبُ، وَيُكذَّبُ فِيهَا الصَّادِقُ، وَيُؤْتَمَنُ فِيهَا الْخَائِنُ، وَيُخَوَّنُ فِيهَا الْأَمِينُ، وَيَنْطِقُ فِيهَا الرُّوَيْبِضَةُ**» قِيلَ: وَمَا الرُّوَيْبِضَةُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «**الرَّجُلُ التَّافَهُ يَتَكَلَّمُ فِي أَمْرِ الْعَامَّةِ**»^(٣) فالرُّوَيْبِضَةُ ستكون له الكلمة، وتكون له المكانة، وتكون عنده دفة التَّوَجِيهِ.

رابعًا: ضياع الأمانة علامة من علامات دنو الساعة، يَأْتِي رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ يَتَحَدَّثُ مَعَ أَصْحَابِهِ، يَقُولُ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ» يَقَطَعُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ حَدِيثَهُ مَعَ أَصْحَابِهِ، فَيَلْتَفِتُ إِلَيْهِ الرَّسُولُ ﷺ فَيَقُولُ: «مَتَى السَّاعَةُ؟» قَالَ ﷺ: «**إِذَا ضَيَّعَتْ**

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف رقم (٣٠٩٥٩)، والآجري في الشريعة رقم (٢٤٨)، والبيهقي في الشعب رقم (٥٧).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب علامة المنافق، رقم (٣٣)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق، رقم (٥٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه أحمد (٢/٢٩١)، وابن ماجه: كتاب الفتن، باب شدة الزمان، رقم (٤٠٣٦).

الْأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ». قَالَ: وكيف إضاعتها يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا إِضَاعَتْهَا؟ قَالَ: «إِذَا أَسْنَدَ الْأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ، فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ»^(١) أي: إذا رأيت الأمر يُوزَعُ على غير أهله فانتظر الساعة، وصدق الحق سبحانه: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ ﴿٧٢﴾ [الأحزاب: ٧٢].

كما أن للأمانة علاماتٍ على فقدها فإن النبي ﷺ رَغِبَ فيها بأُمُورٍ؛ ففي يومٍ من الأيام كان ﷺ يتوضأ، فابتدر الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وضوءه يتمسحون به، يتسابقون على هذا الماء الذي يتقاطر من يده ولحيته ﷺ يتمسحون بهذا الماء المبارك، فإذا به ﷺ يقول: «مَا يَحْمِلُكُمْ عَلَى هَذَا؟» أي: ما هو الدافع؟ «قَالُوا: حُبُّ اللَّهِ وَرَسُولِهِ» فأراد النبي ﷺ أن يرشدهم إلى أمرٍ آخر، يحتاجونه في ليلهم ونهارهم، ويدور فيما بينهم؛ فقال: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُحِبَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، أَوْ يُحِبَّهُ اللَّهُ وَرَسُولَهُ فَلْيُصَدِّقْ حَدِيثَهُ إِذَا حَدَّثَ، وَلْيُؤَدِّ أَمَانَتَهُ إِذَا اتُّمِنَ، وَلْيُحْسِنْ جَوَارَ مَنْ جَاوَرَهُ»^(٢) أي: هذه هي المعايير لمن يُحِبُّ الله ورسوله: إذا تكلم فليصدق في حديثه، وإذا اتُّمِنَ فليحافظ على الأمانة، ولا يؤذي جاره.

وعلامةٌ ثانيةٌ نَقَرُها في سورة الكهف: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ [الكهف: ٨٢].

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب رفع الأمانة، رقم (٦٤٩٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في مكارم الأخلاق رقم (٢٦٦)، والبيهقي في الشعب رقم (١٤٤٠)، من حديث عبد الرحمن بن أبي قراد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فَمَنْ حَفِظَ الْأَمَانَةَ حَفِظَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَهُ شَأْنَهُ كُلَّهُ، نَفْسَهُ وَمَالَهُ وَعَرِضَهُ وَذُرِّيَّتَهُ، انظر إلى هذا الأب السابع لما كان قد حَفِظَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ما كَلَّفَ به حَفِظَ اللَّهُ له كَنْزَهُ؛ فجاءَ أبناؤُهُ بعد ذلك فَوَجَدُوهُ، يقولُ سعيدُ بنُ جُبَيْرٍ -رحمه الله تعالى- عنه: «كَانَ -أي: أبوهُما- يُؤَدِّي الْأَمَانَاتِ وَالْوَدَائِعَ إِلَى أَهْلِهَا، فَحَفِظَ اللَّهُ لَهُ -تعالى- كَنْزَهُ حَتَّى أَدْرَكَ وَلِدَاهُ فَاسْتَخْرَجَا كَنْزَهُمَا»^(١).

ثالثاً: مَنْ حَفِظَ الْأَمَانَةَ وَأَدَّاهَا حَيْثُ أُمِرَ بِهَا فَازَ بِالْجَنَّةِ، وَمَا أَعْظَمَهُ مِنْ فَوْزٍ!
 فهذا هو الفوز الحقيقي، يقولُ نَبِيُّنَا ﷺ: «أَضْمِنُوا لِي سِتًّا أَضْمِنَ لَكُمْ الْجَنَّةَ: اصْدُقُوا إِذَا حَدَّثْتُمْ، وَأَوْفُوا إِذَا وَعَدْتُمْ، وَأَدُّوا إِذَا اتُّمِنْتُمْ، وَاحْفَظُوا فُرُوجَكُمْ، وَغُضُّوا أَبْصَارَكُمْ، وَكَفُّوا أَيْدِيَكُمْ» كما جاءَ في حديثِ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند ابنِ حَبَّانٍ في صحيحِهِ^(٢)، ومن ذلك: حَفِظُ الْأَمَانَةِ.

فَأَسْأَلُ الْمَوْلَى الْكَرِيمَ بِأَسْمَائِهِ الْحُسْنَى وَصِفَاتِهِ الْعُلَا أَنْ يَجْعَلَنَا جَمِيعًا مِمَّنْ يَحْفَظُ الْأَمَانَةَ.

•• k ••

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٤/٢٨٧)، وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٥/٤٢٢) لابن أبي حاتم في التفسير.

(٢) أخرجه أحمد (٥/٣٢٣)، وابن حبان في صحيحه رقم (٢٧١).



(٢)

كَلِمَةُ النِّجَاةِ

• • k • •

لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ: كَلِمَةُ النِّجَاةِ لِمَنْ أَرَادَ النِّجَاةَ.

لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ: كَلِمَةٌ بِهَا قَامَتِ الْأَرْضُ وَالسَّمَاوَاتُ، وَلَأَجْلِهَا خُلِقَتِ
المخلوقاتُ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ
وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ [٢٤] ﴿إبراهيم: ٢٤﴾.

لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ: كَلِمَةٌ بِهَا أَرْسَلَ اللهُ رُسُلَهُ، وَأَنْزَلَ كُتُبَهُ، وَشَرَعَ شَرَائِعَ دِينِهِ:
﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ: لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [٢٥] ﴿الأنبياء: ٢٥﴾.

لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ: كَلِمَةٌ بِهَا يُؤْخَذُ الْكِتَابُ بِالْيَمِينِ، وَبِهَا تَثْقُلُ الْمَوَازِينُ.

لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ: كَلِمَةٌ وَأَيُّ كَلِمَةٍ؟ هِيَ أَوَّلُ مَا يَجِبُ أَنْ يُبَلِّغَ مِنْ دِينِ اللهِ،
فَهَا هُوَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَبْعَثُ مُعَاذًا رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إِلَى الْيَمَنِ فَيَقُولُ لَهُ: «ادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ
أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ»^(١).

لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ: هِيَ أَصْلُ الدِّينِ وَأَسَاسُهُ، وَعَمُودُهُ وَفُسْطَاطُهُ، هِيَ كَلِمَةُ
التَّقْوَى، وَهِيَ الْعُرْوَةُ الْوُثْقَى.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب وجوب الزكاة، رقم (١٣٩٥)، ومسلم: كتاب الإيمان،
باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام، رقم (١٩)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ: هي كلمة النجاة لمن أراد النجاة.

لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ: أي: لا معبود بحق إلا الله، قال الحق سبحانه: ﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ

لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۗ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾

[آل عمران: ١٨].

فهي كلمة عظيمة رتب عليها المولى **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** فضائل وأجورًا متتابعة لمن قالها مؤمنًا بها، مُعْتَقِدًا ما فيها، مُحَقِّقًا لشر وطها، حاذرًا من نواقضها.

وإني أعدد ما في لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ من الفضائل لِنَحْمَدَ المولى **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** أن أوجدنا في هذه الأرض ونحن على لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، كم حُرِمَ من لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ من بشر! كذلك لِيَشْرَبَ عُنُقُكَ، وَلِتَفْرَحَ بِفَضْلِ اللهِ **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** عليك أنك من أهل لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فأذكرك بها حتى تَتَمَسَّكَ ب: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وتعمل بها وبمقتضاها، ولا تفرط فيها طرفة عين.

الفضيلة الأولى: أن من ختم له ب: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ دخل الجنة، جاء في حديث مُعَاذٍ -رضي الله تعالى عنه- عند أبي داود في سننه، أن النبي ﷺ قال: «مَنْ كَانَ آخِرَ كَلَامِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ»^(١) فأبي نعمة هذه يتلقاها هذا العبد الذي يتلفظ لسانه بأخِرِ نَفْسٍ عنده ب: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ؟!

وقد جاء في صحيح البخاري من حديث أبي ذر -رضي الله تعالى عنه- أن النبي ﷺ قال: «مَا مِنْ عَبْدٍ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، ثُمَّ مَاتَ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ»، قال أبو ذر: يا رسول الله، وإن زنى وإن سرق؟ قال: «وإن زنى وإن سرق»،

(١) أخرجه أحمد (٢٣٣/٥)، وأبو داود: كتاب الجنائز، باب التلقين، رقم (٣١١٦).

قال: يا رَسُولَ اللَّهِ، وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ؟ قال: «وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ» قال: يا رَسُولَ اللَّهِ، وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ؟ قال: «وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ عَلَى رَغْمِ أَنْفِ أَبِي ذَرٍّ»^(١).

إِنَّهَا فَضِيلَةٌ عَظْمَى أَنْ يُخْتَمَ لَكَ بِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَهَذَا مِنْ فَضْلِ الْمَوْلَى تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَى الْعَبْدِ، فَعَلَى الْعَبْدِ أَنْ يَعِيشَ عَلَى لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؛ حَتَّى يُوَفَّقَ أَنْ يَمُوتَ عَلَى لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ.

الفضيلة الثانية: أَنَّهَا أَفْضَلُ الْحَسَنَاتِ، وَأَفْضَلُ مَا يُمَحَى بِهِ السَّيِّئَاتِ، ففِي مُسْنَدِ أَحْمَدَ قَالَ: «جَاءَ أَبُو ذَرٍّ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوْصِنِي، قَالَ: «إِذَا عَمِلْتَ سَيِّئَةً فَاتَّبِعْهَا حَسَنَةً تَمْحُهَا»، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَمِنْ الْحَسَنَاتِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؟ قَالَ: «هِيَ أَفْضَلُ الْحَسَنَاتِ»^(٢)، ف: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ أَفْضَلُ الْحَسَنَاتِ، وَأَفْضَلُ مَا يُمَحَى بِهِ السَّيِّئَاتِ.

الفضيلة الثالثة: أَنَّهَا لَا يُعَادِلُهَا شَيْءٌ أَبَدًا، فَقَدْ جَاءَ فِي مُسْنَدِ أَحْمَدَ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ نُوحًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ قَالَ لِابْنِهِ: إِنِّي قَاصٌّ عَلَيْكَ الْوَصِيَّةَ؛ إِنِّي أَمْرُكَ بِاِثْنَيْنِ، وَأَنْهَأكَ عَنِ اثْنَتَيْنِ: أَمْرُكَ بِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؛ فَإِنَّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعَ وَالْأَرْضِينَ السَّبْعَ لَوْ وُضِعَتْ فِي كِفَّةٍ، وَوُضِعَتْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فِي كِفَّةٍ رَجَحَتْ بِهِنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَلَوْ أَنَّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعَ وَالْأَرْضِينَ السَّبْعَ كُنَّ حَلْقَةً مُبْهَمَةً فَصَمَّتُهُنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»^(٣)

(١) أخرجه البخاري: كتاب اللباس، باب الثياب البيض، رقم (٥٨٢٧)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة، رقم (٩٤).

(٢) أخرجه أحمد (١٦٩ / ٥)، من حديث أبي ذر الغفاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه أحمد (١٧٠ / ٢).

فهي عظمةُ القدر قوية الشأن لا يعادها شيء.

الفضيلة الرابعة: هي أفضل الذكر، فأفضل ما يُذكرُ به المولى لا إله إلا الله، جاء عند الحاكم في مُستدركه وصححه من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «قال موسى عليه السلام: يا ربِّ علّمني شيئاً أذكرك به وأدعوك به، قال: يا موسى قل: لا إله إلا الله، قال: يا ربِّ، كلُّ عبادك يقول هذا، قال يا موسى: قل: لا إله إلا الله، قال: لا إله إلا أنت يا ربِّ، إنّما أريد شيئاً تخصني به، قال: يا موسى لو كانت السماوات السبع، وعمرهن غيري، والأرضين السبع في كفة، ولا إله إلا الله في كفة؛ مالت بهن لا إله إلا الله»^(١)، فموسى عليه السلام يريد أفضل شيء يذكر الله تبارك وتعالى به؛ فيدله المولى على لا إله إلا الله.

الفضيلة الخامسة: أنّها السبب الرئيس في الفوز بأعلى الجنان، وكم نذكر حديث السوق! وكم نردده! حديث عمر رضي الله عنه الذي قال فيه نبينا صلى الله عليه وسلم: «مَنْ دَخَلَ السُّوقَ فَقَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، يُحْيِي وَيُمِيتُ، بِيَدِهِ الْخَيْرُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، كَتَبَ اللَّهُ لَهُ أَلْفَ أَلْفِ حَسَنَةٍ، وَحَاحَ عَنْهُ أَلْفَ أَلْفِ سَيِّئَةٍ، وَرَفَعَ لَهُ أَلْفَ أَلْفِ دَرَجَةٍ، وَبُنِيَ لَهُ بَيْتٌ فِي الْجَنَّةِ»^(٢).

الفضيلة السادسة: هي حرزٌ وحصنٌ مَنيعٌ من وساوس الشيطان، فيا مَنْ تشكّي من وساوس الشيطان عليك ب: لا إله إلا الله، يقول نبينا صلى الله عليه وسلم والحديث عند الترمذي: «مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ،

(١) أخرجه النسائي في السنن الكبرى رقم (١٠٦٠٢)، وأبو يعلى في المسند رقم (١٣٩٣)، والحاكم في المستدرك (١/٥٢٨).

(٢) أخرجه الترمذي: كتاب الدعوات، باب ما يقول إذا دخل السوق، رقم (٣٤٢٨) و (٣٤٢٩).

يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ عَشْرَ مَرَّاتٍ عَلَى إِثْرِ الْمَغْرِبِ؛ بَعَثَ اللَّهُ لَهُ مَسْلِحَةً -أي: ملائكةً مُسَلَّحِينَ- يَحْفَظُونَهُ مِنَ الشَّيْطَانِ حَتَّى يُضْبِحَ، وَكَتَبَ اللَّهُ لَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ مُوجِبَاتٍ، وَمَحَا عَنْهُ عَشْرَ سَيِّئَاتٍ مُوَبِقَاتٍ، وَكَانَتْ لَهُ بِعَدْلِ عَشْرِ رِقَابٍ مُؤَمَّنَاتٍ»^(١).

اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ أَنْ جَعَلْتَنَا مِنْ أَهْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، اللَّهُمَّ ارْزُقْنَا فَضِيلَتَهَا، وَاجْعَلْنَا بِهَا فِيهَا وَبِمُقْتَضَاهَا عَامِلِينَ.

الفضيلة السابعة: أَنَّهَا تَعْصِمُ دَمَ الْمَرْءِ وَمَالَهُ إِذَا قَالَهَا، فَمَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ عَصِمَ مَالُهُ وَدَمُهُ، أَخْبَرَ بِذَلِكَ نَبِيُّنَا ﷺ فَقَدْ جَاءَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ؛ حَرَّمَ مَالَهُ وَدَمَهُ، وَحَسَابُهُ عَلَى اللَّهِ»^(٢).

وما منّا من أحدٍ إلا ويذكرُ حادثةَ أسامة، وإني أذكرُها مراراً؛ لِنَسْتَفِيدَ مِنْهَا الْأُمَّةَ، وَلِنَحْذَرَ بِهَا وَرَدَ فِيهَا، فَهَذَا أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مَعَ شِدَّةِ قُرْبِهِ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ وَشِدَّةِ تَعَلُّقِ قَلْبِ النَّبِيِّ ﷺ بِهِ وَبَأَبِيهِ، إِلَّا أَنَّهُ فِي إِحْدَى الْمَعَارِكِ عَاثَ أَحَدُ الْمُشْرِكِينَ قِتْلًا فِي الْمُسْلِمِينَ، يَقْتُلُ هَذَا وَيَقْتُلُ هَذَا، وَعَجَزَتْ سِيوفُ الْمُسْلِمِينَ عَنْ قِتْلِهِ أَوْ مَنَعِهِ؛ فَانْبَرَى لَهُ أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ -رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمَا- وَرَفَعَ عَلَيْهِ السِّيفَ بَعْدَ أَنْ قَتَلَ مَقْتَلَةً عَظِيمَةً فِي الْمُسْلِمِينَ؛ فإِذَا بِالْمُشْرِكِ يَقُولُ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، فَلَمْ يَلْتَفِتْ أُسَامَةُ إِلَى هَذِهِ اللَّفْظَةِ، وَلَمْ يُعْرِها اهْتِمَامًا،

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الدعوات، رقم (٣٥٣٤)، والنسائي في الكبرى رقم (١٠٣٣٨). من حديث عمارة بن شبيب السبيعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، رقم (٢٣)، من حديث طارق بن أشيم الأشجعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وإنما أجهز على هذا القاتل فقتله، فلما رجع الجيش أخبر النبي ﷺ بفعل أسامة؛ فقال له النبي ﷺ موبخاً: «أقتلته بعد أن قال: لا إله إلا الله؟!».

يَسْتَنْكِرُ عليه النبي ﷺ أن يُقتل رجلاً يقول: لا إله إلا الله، ونحن نقرأ هذا الحديث ونرى واقع المسلمين اليوم، كيف يقتل المسلم المسلم باسم الإسلام! وتُسأل دماء المسلمين باسم الإسلام على يد المسلمين! ويتقرب إلى الله بقتل المسلم! ولا يقتله في زاوية لا يراه فيها أحد بل يُصور ذلك، ويُشيعه على العالمين يفتخر به؟! قال: «يا أسامة، أقتلته بعد أن قال لا إله إلا الله؟ كيف تصنع ب: لا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة؟» قال: يا رسول الله، استغفر لي، لا بديل عنده، قال: «كيف تصنع ب: لا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة؟» قال: «فما زال يردد ﷺ كيف تصنع ب: لا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة»^(١) حتى الاستغفار توقّف عنه النبي ﷺ مع حبه لأسامة وحبه لأبيه، فهو حب النبي ﷺ زيد، ولكنه قال: «كيف تصنع ب: لا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة؟»؛ لأنّها عزيمة تُعصم بها الدماء، وتُعصم بها الأموال، وتُعصم بها الأعراض.

• • k • •

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب تحريم قتل الكافر بعد أن قال: لا إله إلا الله، رقم (٩٧)، من حديث جندب بن عبد الله البجلي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.



(٣)

وأشهد أن محمدًا رسول الله

•• k ••

تحدّثنا فيما مضى عن: شهادة أن لا إله إلا الله، ونتحدّث الآن عن الجزء المكمل لهذه الشهادة، وهي: وأشهد أن محمدًا رسول الله، وهو الجزء الآخر الذي نحتاجه على الدوام.

ومعنى: وأشهد أن محمدًا رسول الله؛ هو الإقرار باللسان والاعتقاد بالجنان بأن محمد بن عبد الله الهاشمي القرشي هو عبد الله ورسوله، أرسله الله إلى جميع خلقه إنسهم وجنهم، ومقتضى هذه الشهادة: طاعته ﷺ فيما أمر، وتصديقه ﷺ فيما أخبر، واجتناب ما عنه نهى وزجر، وأن لا يُعبَد الله إلا بما شرع رسول الله ﷺ يقول الحق سبحانه: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَهُمُ الرِّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمَنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾﴾ [النساء: ١٧٠].

إنّ لنبينا ﷺ حقوقًا متعددة، أذكر بعضها منها:

الحقّ الأوّل: الإبان الصادق به ﷺ فلا يعتريك شك أو تردّد وتخيّر به ﷺ بل تؤمن به إيمانًا صادقًا، كما قال الحق سبحانه: ﴿قُلْ يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وفي سورة التغابن يقول الحق سبحانه: ﴿فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (٨) [التغابن: ٨].

فلا يعتريك شك ولا طرفة عين بنبوتيه ورسالته ﷺ وأن الله أرسله ليوقظ البشرية ويخرجهم من الظلمات إلى النور.

جاء في حديث جابر رضي الله عنه: أن عمر رضي الله عنه خرج إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إنا نسمع أحاديث من يهود تُعجبنا؛ أفنكتب بعضها؟ قال: فقال رسول الله ﷺ: «أمتهم كون كما تهوكت اليهود والنصارى!» أي: أمتحرون فيما أنتم فيه، أمتحرون من رسالتي التي جئتكم بها حتى تلتفتوا إلى ما عند اليهود والنصارى من كتب محرّفة فتكتبوها! «لقد جئتكم بها بيضاء نقية، ولو كان موسى حياً ما وسعه إلا اتباعي» (١).

فالحق الأول: الإيمان الصادق به ﷺ.

الحق الثاني: طاعته؛ فيطاع ﷺ فيما أمر، ويُنْتَهَى عما نهى عنه وزجر، وهذا أمر الله تبارك وتعالى فقد قال سبحانه: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ط فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣٢]، وانظر إلى هذه الخاتمة العظيمة في هذه الآية: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ط فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكٰفِرِينَ﴾ (٣٢).

وفي سورة الأنفال يقول الحق: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ (٢٠) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٢١) ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الضُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الأنفال: ٢٠-٢٢].

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٣٨٧).

ثم رَتَّبَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الأَجْرَ العَظِيمَ لِمَنْ أَطَاعَهُ ﷺ فقال سبحانه: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾ [النساء: ٦٩].

فالذي يُطِيعُ رسولَ اللهِ ﷺ تكونُ له هذه المنزلة العظيمة، وطاعةُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى من طاعةِ رسولِهِ ﷺ فقد جاء في صحيح البخاري أن النبي ﷺ قال: «مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللَّهَ»^(١).

فأُيِّ معصية نرتكبها للنبي ﷺ هي معصية للخالق - سبحانه - بل جاء في الحديث الذي رواه البخاري - رحمه الله تعالى - في صحيحه، أن النبي ﷺ قال: «كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَى»، قالوا: يا رسول الله، ومن يأبى؟ قال: «مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى»^(٢).

لسان حال العاصي لرسول الله ﷺ كأنه يقول: أنا لا أريد دخول الجنة، والذي يعصيه ﷺ ليس له حظُّ إلا الدُّلَّةُ والصَّغارُ.

جاء في حديث ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - عند أحمد في مسنده - أن النبي ﷺ قال: «وَجُعِلَ الذُّلُّ وَالصَّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي»^(٣)؛ فإيمان صادق به ﷺ وطاعة له ﷺ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب يقاتل من وراء الإمام ويتقى به، رقم (٢٩٥٧)، ومسلم: كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية، رقم (١٨٣٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ، رقم (٧٢٨٠)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٣) مسند أحمد (٥٠/٢)، وأخرجه معلقا البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب ما قيل في الرماح، (٤٠/٤).

الحقُّ الثالثُ: اتِّباعُهُ؛ فَمَنْ آمَنَ بِشَيْءٍ وَأَطَاعَهُ اتَّبَعَهُ، هَكَذَا يَنْبَغِي؛ قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٣١) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ۗ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ [آل عمران: ٣١، ٣٢].

بل قال الحقُّ سبحانَهُ: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٦٣) [النور: ٦٣].

الحقُّ الرابعُ: مَحَبَّتُهُ؛ فَإِنَّ مَنْ آمَنَ وَأَطَاعَ وَاتَّبَعَ؛ أَحَبَّ، وَمَحَبَّتُهُ ﷺ أَنْ تَكُونَ لَهُ الْمَكَانَةُ الْأُولَى فِي قُلُوبِنَا، قَدْ لَا يَكُونُ أَغْلُبُنَا وَصَلَ إِلَى هَذِهِ الْمَرْتَبَةِ، وَلَكِنْ لَا بُدَّ أَنْ نَعْمَلَ لِأَجْلِهَا، أَي: أَنْ يَكُونَ ﷺ هُوَ الْأَوَّلُ فِي حَيَاتِنَا، وَهُوَ الْأَوَّلُ فِي كُلِّ شَيْءٍ ﷺ وَهُوَ الَّذِي يُحِبُّ أَكْثَرَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ﷺ.

وقد قال الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفٰسِقِينَ﴾ (٢٤) [التوبة: ٢٤].

فَمَنْ قَدَّمَ مَحَبَّةَ شَيْءٍ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَهُوَ مِنَ الْفٰسِقِينَ، لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ هُوَ الْأَوَّلُ فِي حَيَاتِنَا ﷺ وَنَحْنُ نَقْرَأُ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ»^(١).

وقد أرادَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يُخْرِجَ مِنَ الْمَسْجِدِ يَوْمًا وَمَعَهُ أَنَسُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيذان، باب حب الرسول ﷺ من الإيذان، رقم (١٥)، ومسلم: كتاب الإيذان، باب وجوب محبة رسول الله ﷺ، رقم (٤٤)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فاستقبله رجلٌ قائلاً: يا رسول الله، متى الساعة؟ قال له النبي ﷺ: «مَاذَا أَعَدَدْتَ لَهَا؟»، فتلعثم السائل؛ هو يسأل فيأتيه الجواب على هيئة سؤالٍ، فقال: ما أعددْتُ لها كثيرَ صلاةٍ ولا صيامٍ ولا صدقةٍ، ولكنني أحبُّ اللهَ ورَسُولَهُ، قال: «أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ»^(١).

وبطبيعة الحال لا يفهم من هذا الحديث: أن الذي لا يصلي ولا يصوم ولا يتصدق، ويكتفي بمحبة النبي ﷺ يكفيه هذا! إنما مقتضى محبته: الصلاة والصيام والصدقة، ولكن هذا السائل يقول: ليس عندي كثيرٌ من النوافل في جانب الصلاة والصيام والصدقة، قال: «أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ».

بل يدخل المقبرة - كما جاء في صحيح الجامع - فيقول: «السَّلَامُ عَلَيْكُمْ دَارَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ، وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ بِكُمْ لَاحِقُونَ»، ثم يقول: «وَوَدِدْتُ أَنِّي قَدْ رَأَيْتُ إِخْوَانِي». قال الصحابة: أولسنا إخوانك يا رسول الله؟ قال: «بَلْ أَنْتُمْ أَصْحَابِي، وَإِخْوَانِي الَّذِينَ يَأْتُونَ مِنْ بَعْدِي، يُؤْمِنُونَ بِأَحَدِهِمْ وَلَمْ يَرَانِي»^(٢).

يتمنى النبي ﷺ لُقياك، ويودُّ رؤيتك؛ لأنك آمنت به ولم تره، ألا يستحق ذلك أن يكون هو الأول في قلبك محبةً وإجلالاً وتقديراً؟!

الحق الخامس: أن يتحاكم إليه، وإلى الشرع الذي جاء بتبليغه عند التنازع،
قال الحق سبحانه: ﴿فَإِنْ نَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب علامة حب الله عز وجل، رقم (٣٦٨٨)، ومسلم: كتاب

البر والصلة، باب المرء مع من أحب، رقم (٢٦٣٩)، من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) صحيح الجامع الصغير رقم (٣٦٩٨). وأخرجه مسلم: كتاب الطهارة، باب استحباب إطالة

الغرة والتحجيل في الوضوء، رقم (٢٤٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾ [النساء: ٥٩] أي: إذا حَصَلَتِ الْخُصُومَةُ بَيْنَكَ وبين غيرك؛ فالتنازُعُ إلى الله ورسوله ﷺ، وقد قال الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ ﴿٦٥﴾ [النساء: ٦٥].

الحقُّ السادسُ: أن نُكثِرَ مِنَ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ عَلَيْهِ، لا أقولُ: الصَّلَاةُ عَلَيْهِ؛ بل الإكثارُ مِنَ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ عَلَيْهِ ﷺ أي: أن تَجْلِسَ بِمُفْرَدِكَ وَتَحْلُوَ بِنَفْسِكَ وَتُكثِرَ مِنَ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ عَلَيْهِ ﷺ: مئةَ مرَّةٍ، أو مئتي مرَّةٍ، أو ألفَ مرَّةٍ، تُكثِرُ مِنَ الصَّلَاةِ عَلَيْهِ، فأنت المُستفيدُ.

وسببُ الإكثارِ أَنَّهُ قَدْ قَالَ نَبِينَا ﷺ كَمَا جَاءَ عِنْدَ التِّرْمِذِيِّ: «الْبَخِيلُ مَنْ ذَكَرْتُ عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيَّ»^(١).

بل قال ﷺ: «إِنَّ لَهِ مَلَائِكَةً سَيَّاحِينَ يُبَلِّغُونِي مِنْ أُمَّتِي السَّلَامَ»^(٢)، فَكُلَّمَا قَالَ وَاحِدٌ: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ؛ تَلَقَّاهُ هَذَا الْمَلَكُ مِنْ جُمْلَةِ هَؤُلَاءِ الْمَلَائِكَةِ، وَبَلَّغَهَا لِلنَّبِيِّ ﷺ.

بل جاء في صحيح الجامع هذا الحديث العظيم: قال النبي ﷺ: «أَكثِرُوا الصَّلَاةَ عَلَيَّ؛ فَإِنَّ اللَّهَ وَكَلَّ بِي مَلَكًا عِنْدَ قَبْرِي يُبَلِّغُنِي مِنْ أُمَّتِي السَّلَامَ، فَإِذَا

(١) أخرجه أحمد (٢٠١/١)، والترمذي: كتاب الدعوات، باب قول رسول الله ﷺ: رغم أنف رجل، رقم (٣٥٤٦)، من حديث الحسين بن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه أحمد (٣٨٧/١)، النسائي: كتاب السهو، باب السلام على النبي ﷺ، رقم (١٢٨٢)، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

صَلَّى عَلَيَّ رَجُلٌ مِنْ أُمَّتِي؛ قَالَ لِي ذَلِكَ الْمَلَكُ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّ فُلَانَ ابْنَ فُلَانٍ صَلَّى عَلَيْكَ السَّاعَةَ»^(١).

في نفس الوقت وفي نفس اللحظة كلما صلينا وسلمنا عليه ﷺ بلغته هذه الملائكة، وهذا الملك الموكَّل به، الموكَّل عند قبره بصلاتنا وتسليمنا؛ فلا تحرم نفسك؛ فإنَّ صلاتك الواحدة يُقابلها عشرُ صلواتٍ من الله عليك، وفضلُ الله أوسعُ وأكثرُ وأبركُ.

هذه حقوقُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمن أحبه: عليه أن يؤمن به، ويُطيعه، ويتبعه، ويحبه، ويتحاكم إليه، ويكثر من الصلاة عليه.

• • k • •

(١) صحيح الجامع الصغير رقم (١٢٠٧)، وعزاه للدليمي في مسند الفردوس من حديث أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وانظر أيضا: اللآلئ المصنوعة (١/ ٢٦٠)، وكنز العمال رقم (٢١٨١).



(٤)

أدب الإحسان

•• k ••

قبل الحديث عن أدب الإحسان لا بُدَّ أن نَضَع هذا التَّساوُل: لماذا الإحسان؟
والجواب:

أولاً: لأنَّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى أمرَ به في أكثرَ من موضعٍ؛ فها نحنُ نقرأ قولَ الحقِّ
سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي سُورَةِ النَّحْلِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ
وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ ۗ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾
[النحل: ٩٠].

فالله تَبَارَكَ وَتَعَالَى يأمرنا بالإحسان، ونقرأ له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي سُورَةِ الْقَصَصِ:
﴿وَإِحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۗ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ
﴿٧٧﴾﴾ [القصاص: ٧٧].

ثانياً: لأنَّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى يُحِبُّ الإحسانَ؛ فقد جاءَ في صحيحِ الجامعِ من حديثِ
شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ مُحْسِنٌ يُحِبُّ الإحْسَانَ»^(١).
ثالثاً: لأنَّ عاقبةَ الإحسانِ تعودُ عليك أيُّها المُحْسِنُ؛ فأنتَ تقرأ في سورةِ
الإسراءِ: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۗ﴾ [الإسراء: ٧].

(١) صحيح الجامع الصغير رقم (١٨٢٤)، وأخرجه عبد الرزاق في المصنف رقم (٨٦٠٣)،
والطبراني في المعجم الكبير (٧/ ٢٧٥، رقم ٧١٢١)، من حديث شداد بن أوس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

رابعاً: لأنَّ له منزلةً عظيمةً عند الله؛ فقد جاء في كتابِ صفةِ الصَّفوةِ لابنِ الجوزيِّ - رحمه الله تعالى - يُنقلُ هذا الأثرَ العظيمَ لابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ومثُلُ ابنِ عَبَّاسٍ حينما يتكلَّمُ إنَّما يأخذُ منِ مِشكاةِ النُّبوةِ يقولُ: لئنُ أعولُ أهلَ بيتٍ منِ المسلمينَ شهراً أو جُمعةً أو ما شاء الله أحبُّ إلي منِ حَجَّةٍ بعد حَجَّةٍ ^(١).

أي: أن إعالَةَ بيتٍ منِ المسلمينَ في زمنٍ قَلَّ أو كَثُرَ أحبُّ إليه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ منِ حَجَّةٍ بعد حَجَّةٍ بعد حَجَّةٍ؛ لأنَّهُ يُدركُ قيمةَ الإحسانِ كخُلُقٍ عظيمٍ له هذه المنزلة.

لذا قيل:

وَأَفْضَلُ النَّاسِ مَا بَيْنَ الْوَرَى رَجُلٌ تُقْضَى عَلَى يَدَيْهِ لِلنَّاسِ حَاجَاتٌ

وآدابُ الإحسانِ كثيرةٌ جدًّا سنكتفي بذكرِ ثلاثةٍ منها:

الأدبُ الأوَّلُ: أن تُحسِنَ تَبَتُّغِي بِذَلِكَ وَجَهَ اللَّهِ لَا رِيَاءً وَلَا سُمْعَةً، أي: لا تَتَظَرَّ ثناءً ولا شُكراً ولا حمداً من فلانٍ، ولا تَتَظَرَّ مَصْلِحَةً حَالِيَّةً أو مُسْتَقْبَلِيَّةً من فلانٍ الذي تُحسِنُ إليه، إنَّما تَبَتُّغِي وَجَهَ اللَّهِ.

وقد مرَّ أن الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** قد جعلَ حافِزاً عظيماً للمُحْسِنِينَ، وهو النَّظَرُ إلى وجهه - سبحانه - وقد ذكرتُ قولَ الحقِّ - سبحانه -: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾

[يونس: ٢٦].

وذكرتُ قولَ المُفسِّرِ السَّعْدِيِّ - رحمه الله تعالى - في ذلك فقال: الزِّيَادَةُ هي النَّظَرُ إلى وَجْهِ اللَّهِ الْكَرِيمِ، وَسَمَاعُ كَلَامِهِ، وَالْفَوْزُ بِرِضَاهُ وَالبَهْجَةُ بِقُرْبِهِ ^(٢).

(١) صفة الصَّفوة (١/٢٩٨)، وأخرجه أبو نعيم في الحلية (١/٣٢٨).

(٢) تفسير السعدي (ص: ٣٦٢).

فَاعْمَلْ لوجهِ اللهِ ولا تَتَنَطَّرْ أَنْ يُقَالَ: نعم الرجل فلان! فَتُكْتَبُ آثارُكُ واسْمُكُ
واسْمُ قَبيلَتِكَ! فليس هذا ما يَلْتَفِتُ إليه قَلْبُكَ، إنما يَلْتَفِتُ قَلْبُكَ إلى وجهِ الله؛ لذا
يقول الحق - سبحانه - في سورة الروم: ﴿ فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ
ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمَفْلُحُونَ ﴾ [الروم: ٣٨].

ويقول في نفس السورة سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَا آتَاكُم مِّنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ
فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴾ [الروم: ٣٩].

وفي سورة الليل نقرأ قول الحق - سبحانه -: ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى
إِلَّا إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى ﴾ [٢٠] ﴿ وَسَوْفَ يُرْضَى ﴾ [٢١] [الليل: ١٩-٢١].

وقد جاء في كتاب حلية الأولياء عن عون بن عبد الله - رحمه الله تعالى -
يقول: إذا أعطيت المسكين شيئاً فقال: بارك الله فيك؛ فقل أنت: بارك الله فيك؛
حتى تخلص لك صدقتك^(١).

فيبقى لك الأجر، فهو قد دعا لك فدعوت له، ويبقى أجر هذا الإحسان لا
يُخَالِطُهُ شَيْءٌ.

وأحياناً يقول أحدنا: والله لا أدري أحسن أنا أم مسيء؟ فانظر لهذا الحديث
الذي جاء في سنن ابن ماجه، حديث كلثوم الخزاعي قال: جاء رجل إلى النبي
صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، كيف لي أن أعلم إذا أحسنت أني قد أحسنت،
وإذا أسأت أني قد أسأت؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِذَا قَالَ جِيرَانُكَ قَدْ

(١) حلية الأولياء (٤/٢٥٣).

أَحْسَنْتَ فَقَدْ أَحْسَنْتَ، وَإِذَا قَالُوا: إِنَّكَ قَدْ أَسَأْتَ فَقَدْ أَسَأْتَ»^(١).

وجيرانك ليسوا بالضرورة جيران بيتك، بل جيران مهنتك، أو جيران عملك، أو جيرانك الذين يكونون في سفرك، أو جيرانك في المسجد، إذا أجمع هؤلاء على إحسانك فأنت محسن، وإذا أجمع هؤلاء على إساءتك فأنت مسيء، فالله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** قد أوحى إلى نبيه **ﷺ** حينما قال: **«أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ»^(٢).**

فإذا أجمع أهل الخير والصلاح على إحسانك فأنت محسن، وإذا أجمعوا على إساءتك فأنت مسيء.

الأدب الثاني: أن تحتسب الأجر، وهذا الأدب لا يُنافي الأدب الأول؛ فإنك تبتغي الأجر من الله، فالله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** رتب أجوراً للمحسنين، وأتفقنا فيما سبق: أن الإحسان ليس مالا يُدفع فحسب، بل كل عملٍ ومعروفٍ تُقدمه للآخر قولاً أو فعلاً أو مالا فإن ذلك من الإحسان.

أما ما جعل الله **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** من أجور المحسن فهو كما يلي:

أولاً: أنه لا يخاف مما هو آتٍ، ولا يحزن مما فات، وهذا أجرٌ يبتغيه، وقد جاء هذا الأجر في سورة البقرة، يقول الحق **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**: **﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾** [البقرة: ١١٢].

ثانياً: أن الله **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** يتولى ذريته بالإحسان؛ فإذا أحسنت أحسن الله لك

(١) أخرجه ابن ماجه: كتاب الزهد، باب الثناء بالحسن، رقم (٤٢٢٢).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب ثناء الناس على الميت، رقم (١٣٦٧)، ومسلم: كتاب

الجنائز، باب فيمن يثنى عليه خير، رقم (٩٤٩)، من حديث أنس **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**.

في ذُرِّيَّتِكَ؛ فَقَدْ قَالَ الْحَقُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأنعام: ٨٤] أي: كذلك نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِحْسَانًا فِي ذُرِّيَّتِهِمْ.

ثالثًا: أَنَّ الْعَبْدَ مَتَى مَا كَانَ فِي حَاجَةٍ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ، كَمَا قَالَ نَبِينَا ﷺ: كَمَا جَاءَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ: «مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي حَاجَةٍ أَخِيهِ إِلَّا كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ»^(١).

وَفِي رِوَايَةٍ عِنْدَ مُسْلِمٍ يَقُولُ ﷺ: «مَنْ نَفَسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ الدُّنْيَا نَفَسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ فِي الدُّنْيَا يَسَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا فِي الدُّنْيَا سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ»^(٢).

لَعَلَّهَا كَلِمَةٌ تَقُولُهَا أَنْتَ فِي مُحَضَّرٍ، أَوْ فِي اجْتِمَاعٍ، أَوْ فِي مَجْلِسٍ تُحْسِنُ بِهَذِهِ الْكَلِمَةِ لِعَائِلَةٍ، أَوْ لِفَرْدٍ، أَوْ لِمَظْلُومٍ؛ فَيَجْعَلُهَا اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَكَ مِنْ أَبْلَغِ الْعَوْنِ فِي وَقْتِ أَنْتَ فِي حَاجَةٍ إِلَيْهِ، إِنَّهَا الْمَعْرُوفُ، قَالَ نَبِينَا ﷺ: كَمَا جَاءَ فِي مُعْجَمِ الطَّبْرَانِيِّ الْكَبِيرِ: «صَنَائِعُ الْمَعْرُوفِ تَقِي مَصَارِعَ السُّوءِ، وَصَدَقَةُ السِّرِّ تُطْفِئُ غَضَبَ الرَّبِّ، وَصِلَّةُ الرَّحِمِ تَزِيدُ فِي الْعُمْرِ»^(٣).

(١) أخرجه البخاري: كتاب المظالم، باب لا يظلم المسلم المسلم، رقم (٢٤٤٢)، ومسلم: كتاب البر

والصلة، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٨٠)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن، رقم (٢٦٩٩)، من

حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) المعجم الكبير للطبراني (٨/ ٢٦١، رقم ٨٠١٤)، من حديث أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

بل قال صلى الله عليه وسلم كما جاء في كتاب الأدب المفرد للبخاري، يقول صلى الله عليه وسلم: «أهل المعروف في الدنيا» جمع كل معروف «هم أهل المعروف في الآخرة، وأهل المنكر في الدنيا هم أهل المنكر في الآخرة»^(١).

لا شك أن الأجور التي تنتظر المحسن كثيرةٌ مهما عدّتها، وأحيلكم لكلام في غاية الروعة لابن القيم - رحمه الله تعالى - ذكره في كتابه الوابل الصيب، قال في تمام ذلك الكلام القيم قاعدةٌ أشبه ما تكون من قواعد السلوك والأخلاق، قال: فالله تعالى لعبده على حسب ما يكون العبد لخالقه^(٢).

أَحْسِنُ إِلَى النَّاسِ تَسْتَعْبِدُ قُلُوبَهُمْ فَطَمَأِ اسْتَعْبَدَ الْإِنْسَانَ إِحْسَانًا
وَكُنْ عَلَى الدَّهْرِ مِعْوَانًا لِذِي أَمَلٍ يَرْجُوا نَدَاكَ فَإِنَّ الْحَرَّ مِعْوَانٌ^(٣)

الأدب الثالث الذي ينبغي أن يتحلّى به المحسنون: هو عدم المن والأذى، أي: إذا أحسنت فلا تؤذ هذا الذي أحسنت إليه بالمن، كأن تقول: تذكر قبل عشرين سنة ماذا قدّمت لك؟ نسيت ما صنعتك لك؟ نسيت يوم كذا فعلت كذا وكذا لك ولأولادك؟! فهذا ينسف الأجر كله حتى لو كان بعد عشرين سنة أو ثلاثين سنة، والله يقول: ﴿الَّذِينَ يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذَىٰ ۖ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٢-٢٦٣].

- (١) الأدب المفرد للبخاري رقم (٢٢١)، المعجم الكبير للطبراني (١٨/٣٧٥، رقم ٩٦٠)، من حديث قبيصة بن برمة الأسدي.
(٢) الوابل الصيب لابن القيم (ص: ٣٥).
(٣) البيتان لأبي الفتح البستي من قصيدته عنوان الحكم (ص: ٣٦).

فحينما تقول قولاً معروفاً وهو من الإحسانِ القويِّ، فهو خيرٌ من هذا الإحسانِ العمليِّ الذي تُتبعُهُ بالمنِّ والأذى، فلا تَمُنُّ أبداً بَعْطاءٍ تُعْطِيهِ، وإحسانٍ تُقدِّمُهُ؛ فإنَّ النبيَّ ﷺ يقولُ كما جاء في سنن الترمذيِّ من حديث أبي ذرٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «ثَلَاثَةٌ لَا يَنْظُرُ اللهُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يُزَكِّيهِمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ»، قلنا: مَنْ هُمْ يا رسولَ اللهِ، فقد خابوا وخسروا؟ فقال: «الْمَنَانُ، وَالْمُسْبِلُ إِزَارَهُ، وَالْمُنْفِقُ سِلْعَتَهُ بِالْحَلْفِ الْكَاذِبِ»^(١).

هذا أَحْسَنَ في يومٍ مِنَ الْيَوْمِ لَكِنَّهُ مَنْ فَعَاقَبَهُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِ، وَلَا يُزَكِّيهِ، وَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ.

أَخْتِمُ هَذِهِ الْخُطْبَةَ بِمَسْأَلَةٍ أَرَاهَا مُهِمَّةً: إِذَا طَلَبْتَ مِنْ أَحَدٍ أَنْ يُحْسِنَ إِلَيْكَ فَاعْتَدَرَ فَلَا تُلْحِقْهُ غِيْبَةً وَهَيْئَانًا، فَقَدْ يَكُونُ عَاجِزًا عَنِ الْإِحْسَانِ إِلَيْكَ، أَوْ لَا يَجِدُ لَذَلِكَ سَبِيلًا، أَوْ قَدْ يَكُونُ أَحْسَنَ إِلَيْكَ مِنْ قَبْلُ، وَهُوَ الْآنَ لَا يَسْتَطِيعُ، فِإِذَا تَعَرَّضْتَ لِهَذَا الْمَوْقِفِ فَتَذَكَّرْ قَوْلَ الْحَقِّ -سُبْحَانَهُ-: ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ﴾ [التوبة: ٩١].

أَيُّ: لَا يَلْحَقُهُمْ لَوْمٌ؛ لِأَنَّهُمْ عَاجِزُونَ عَنِ الْإِحْسَانِ فِي هَذَا الْبَابِ وَفِي هَذَا الْوَقْتِ، فَإِنْ أَحْسَنَ إِلَيْكَ فَكَافِئْهُ عَلَى إِحْسَانِهِ، وَادْعُ لَهُ إِنْ لَمْ تَسْتَطِعِ الْمُكَافَأَةَ، وَلَا تُلْحِقْهُ غِيْبَةً وَهَيْئَانًا وَأَذَى.



(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان غلظ تحريم إسبال الإزار، رقم (١٠٦)، والترمذي: كتاب البيوع، باب ما جاء فيمن حلف على سلعة كاذبا، رقم (١٢١١).



(٥)

التبَيَانُ فِي ذِكْرِ جُنُودِ الرَّحْمَنِ

• • k • •

يقول الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ۗ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾
[الزمر: ٦٧].

إنَّ من دلائلِ عظمةِ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَقُوَّتِهِ وَكِبْرِيائِهِ: أَنَّ له جُنُودًا لَا يَعْلَمُ بِقُوَّتِهِمْ، وَلَا يَعْلَمُ بِعَدَدِهِمْ، وَلَا يَعْلَمُ بِكُنْهِهِمْ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى له جُنُودٌ دَالَّةٌ عَلَى عَظَمَتِهِ - سُبْحَانَهُ - حَيْثُ يَقُولُ الْحَقُّ: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾﴾
[الفتح: ٤].

ويقول - سُبْحَانَهُ -: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾﴾
[الفتح: ٧].

ويقول - سُبْحَانَهُ -: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۗ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشْرِ ﴿٣١﴾﴾
[المدثر: ٣١].

جُنُودُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يُرْسِلُهُمْ عَوْنًا لِأَوْلِيَائِهِ، وَعَذَابًا وَهَلَاكًا عَلَى أَعْدَائِهِ - سُبْحَانَهُ - وَحِينَمَا أَتَحَدَّثُ عَنْ بَعْضِ جُنُودِ الرَّحْمَنِ سُبْحَانَهُ فَإِنِّي أَذْكَرُ شَيْئًا يَسِيرًا مِمَّا نَعَلَّمُهُ، وَإِلَّا فَالْجِزءُ الْأَكْبَرُ لَا نَعَلَّمُهُ، وَلَا تُحِيطُ بِهِ الْكَلِمَاتُ وَلَا الْخُطْبُ وَلَا الْمَوَاعِظُ وَلَا الْمَحَاضِرَاتُ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۗ﴾ [المدثر: ٣١].

* الملائكةُ جُنْدٌ مِنْ جُنُودِ اللَّهِ **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** إِمَّا أَنْ يُرْسِلَهُمْ عَوْنًا لِأَوْلِيَائِهِ، سَنَدًا يُنَاصِرُونَ الصَّالِحِينَ، أَوْ يُرْسِلَهُمْ عَذَابًا وَهَلَاكًا عَلَى الْكَافِرِينَ، كُنَّا قَرَأْنَا تَنْزِيلَ الْمَلَائِكَةِ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ؛ إِذْ يَقُولُ الْحَقُّ **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفَلَاحِ مِنَ الْمَلَكِ الْمُرِيدِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الأَنْفَال: ٩-١٠].

وفي صحيح البخاري من حديث ابن عباس **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا** يقول نبيُّنا **ﷺ**: «هَذَا جِبْرِيلُ أَخَذًا بِرَأْسِ فَرَسِهِ، عَلَيْهِ أَدَاةُ الْحَرْبِ»^(١). هذا جبريلُ يَتَنَزَّلُ بِأَمْرِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَوْنًا لِأَوْلِيَائِهِ وَعَذَابًا وَهَلَاكًا عَلَى أَعْدَائِهِ.

بل جاء في حديث رافع بن خديج عند ابن ماجه في سننه: «أَنَّ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَوْ مَلَكًا آخَرَ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ **ﷺ** وَهُوَ مَعَ أَصْحَابِهِ فَقَالَ: مَا تَعُدُّونَ مَنْ شَهِدَ بَدْرًا فَيَكُم؟ قَالُوا: خِيَارُنَا. قَالَ هَذَا الْمَلَكُ: كَذَلِكَ هُمْ عِنْدَنَا خِيَارِ الْمَلَائِكَةِ»^(٢).

وفي غزوة الأحزاب في سورة الأحزاب يقول الحق **تَبَارَكَ وَتَعَالَى**: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ ﴿٩﴾ [الأحزاب: ٩] أَي: جَاءَتْكُمْ قُرَيْشٌ، وَعُظْفَانٌ، وَبَنُو النَّضِيرِ؛ وَاجْتَمَعَ عَلَيْكُمْ جُنُودُ الْكُفْرِ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾﴾ [الأحزاب: ٩].

(١) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب شهود الملائكة بدرا، رقم (٣٩٩٥).

(٢) أخرجه ابن ماجه: المقدمة، باب في فضائل أصحاب رسول الله **ﷺ**، رقم (١٦٠). وأخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب شهود الملائكة بدرا، رقم (٣٩٩٢)، من حديث رفاعة بن رافع الزرقعي **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**.

وفي غزوة حنين في سورة التوبة يقول الحق - سبحانه -: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [التوبة: ٢٥-٢٦].

فالله تبارك وتعالى يرسل هؤلاء الخلق وهم الملائكة جنودًا من عنده - سبحانه - مددًا للأولياء، وعذابًا وهلاكًا على الأعداء، نعم نحن لا نرى هذا العالم الغيبي، لكننا نُؤمنُ به.

* جُنْدِيٌّ آخَرٌ مِنْ جُنُودِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: هم صالحو الجن، المسلم من الجن يُرسله الله تبارك وتعالى جنديًا في خدمة أولياء الرحمن، وعذابًا وهلاكًا على الكافرين، يُخْرِجُ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو أحد الصالحين من أنبياء الله، فيخاطب جنوده الذين كان من جملتهم عددٌ من جنود الرحمن - سبحانه -: ﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيثُ مِنَ الْجِنِّ أَنَا ءَأَيْنِكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ ط وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾﴾ [النمل: ٣٨-٣٩] أرسله الله تبارك وتعالى في خدمة سليمان عليه السلام كما قال: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحْرِبٍ وَتَمَثِيلٍ وَحِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَتٍ ؕ أَعْمَلُوا ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٣﴾﴾ [سبأ: ١٣].

فهذا الجن خلق من خلق الله من عالمه الغيبي، يُرسلهم الله تبارك وتعالى جنودًا من جنوده في خدمة أوليائه سبحانه.

* كذلك من جنود الله: هذه الطيور التي نراها مُخلِّق في السماء، فهي من

جنود الرحمن **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** يُرْسَلُهَا فِي خِدْمَةِ أَوْلِيَائِهِ، وَعَذَابًا عَلَى الْكَافِرِينَ، أَلَمْ نَقْرَأْ قَوْلَ الْحَقِّ **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** عَنْ هَذَا الْجُنْدِيِّ، الَّذِي هُوَ مِنْ جُنُودِ الرَّحْمَنِ جَنْدَهُ فِي خِدْمَةِ سُلَيْمَانَ، أَمْرًا بِالْمَعْرُوفِ نَاهِيًا عَنِ الْمُنْكَرِ، مُغْلِظًا عَلَى مَنْ حَادَّ اللَّهَ، فَقَدْ تَفَقَّدهُ سُلَيْمَانُ فَمَا وَجَدَهُ، فَلَمَّا جَاءَ قَالَ: شَاهَدْتُ أَمْرًا عَظِيمًا، وَسُلَيْمَانُ أَعْطَاهُ اللَّهُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- الْقُدْرَةَ عَلَى كَلَامِ الطَّيْرِ، وَمَعْرِفَةِ حَدِيثِهِمْ، مَاذَا وَجَدْتَ أَيُّهَا الطَّائِرُ، أَيُّهَا الْجُنْدِيُّ؟ فَتَحَدَّثَ عَمَّا رَأَى فِي مَمْلَكَةِ سَبَأٍ، وَمَا تَصْنَعُهُ بَلْقَيْسُ وَقَوْمُهَا؛ وَقَالَ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-: ﴿ **وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ** ﴾ [٢٤] ﴿ [النمل: ٢٤]، يُرْسَلُهُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي خِدْمَةِ الْأَوْلِيَاءِ الصَّالِحِينَ.

فِي الْمَقَابِلِ أَرْسَلَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الطَّيْرَ الْأَبَابِيلَ عَلَى مَنْ جَاءَ لِيُحَارِبَ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي بَيْتِهِ الْحَرَامِ: ﴿ **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ** ﴾ [١] ﴿ **أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ** ﴾ [٢] ﴿ **وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ** ﴾ [٣] ﴿ [الفيل: ١-٣]، فَهَذَا طَيْرٌ صَغِيرٌ الْحَجْمِ، يَحْمِلُ فِي مَنْقَارِهِ حَجَارَةً صَغِيرَةً مُتْنَاهِيَةً فِي الصَّغْرِ، لَكِنَّهَا إِذَا وَقَعَتْ عَلَى هَذِهِ الْفِيلَةِ الْعَظِيمَةِ جَعَلَتْهَا كَالْعَصْفِ الْمَأْكُولِ.

* كَذَلِكَ جَعَلَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مِنْ جُنُودِهِ: الْحَشْرَاتِ، لَا نَعْرِفُهَا، أَوْ رَبَّمَا نَعْرِفُ بَعْضَهَا وَيَغِيبُ عَنَّا حَالُ أَكْثَرِهَا، إِذَا أَنْ تَكُونَ فِي خِدْمَةِ الْأَوْلِيَاءِ وَإِنَّمَا أَنْ تَكُونَ عَذَابًا عَلَى الْكَافِرِينَ، فَهِيَ هِيَ الطَّاعِيَةُ الْمُتَمَرِّدُ الْمُتَجَبَّرُ، الَّذِي دَارَ الْحَوَارِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ قَالَ الْحَقُّ: ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمَلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ** ﴾ قَالَ

إِبْرَهُمْ فَأَبَنتَ اللَّهُ بِالنَّاسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأَبَتْ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ [البقرة: ٢٥٨].

هذا المتجبر المتغطرس المعاند يُرسلُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عليه بَعُوضَةً صغيرةً، بل مُتناهيةً في الصَّغَرِ، تَدْخُلُ في أَحَدِ مَنْخَرَيْهِ وَتَسْتَقِرُّ في رَأْسِهِ؛ فلا يِرْتاحُ حتى يُضْرَبَ على رَأْسِهِ، فَظَلَّتْ هذه في رَأْسِهِ عَذَابًا عليه أَكْثَرَ مِنْ أَرْبَعِمِائَةِ سَنَةٍ، حَكَى ذلك ابنُ كثيرٍ في تفسيره ^(١) رَحْمَةُ اللَّهِ فَاللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قد يُرسلُ مِنْ جُنُودِهِ ما هو عَذَابًا وَإِذْلَالًا لِلْمُتَجَبِّرِينَ مِنَ الطُّغَاةِ الْمُعَانِدِينَ، وَالْعَاقِلُ يَعْرِفُ ذلك.

* كذلك مِنْ جُنُودِ الرَّحْمَنِ مَسَائِلُ يَضِيقُ حَصْرُهَا، مِنَ الْجَمَادَاتِ: الْحِجَارَةُ، فَإِنَّهَا مِنْ جُنُودِ اللَّهِ، انظُرْ ما ذا فَعَلَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى في قَرْيَةٍ عَصَتِ اللهُ، وَعَانَدَتْ شَرْعَهُ... قَرْيَةُ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ قال -سبحانه-: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ يَبْعِدُ ﴿٨٣﴾﴾ [هود: ٨٢-٨٣].

هل تَتَصَوَّرُ حِجَارَةً تَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ كَالْمَطَرِ ما ذا يَحْدُثُ!؟

والماءُ أَيضًا هو جُنْدٌ مِنْ جُنُودِ اللهِ، يُرسلُهُ اللهُ رَحْمَةً لِلصَّالِحِينَ وَعَذَابًا عَلَى الكَافِرِينَ، قال -سبحانه-: ﴿كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدَجَرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرَ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدٍ قَدَرٍ ﴿١٢﴾﴾ [القمر: ٩-١٢].

(١) تفسير ابن كثير (٤/٥٦٦).

فهذا الماء الذي هو جُندٌ من جنودِ الله يَنْتَفِعُ به الأولياءُ الصالحون، قد يكونُ طوفانًا يُغْرِقُ الكافرينَ.

* والجنودُ كثيرةٌ متعددةٌ، منها الرِّيحُ؛ لذا: «كان ﷺ إذا رأى الرِّيحَ خافَ، وسألَ اللهَ من خَيْرِهَا، واستعادَ مِنْ شَرِّهَا»^(١).

قال اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَنْ عَادٍ، هؤلاءِ القومِ الذين بَلَغُوا مِنَ الْقُوَّةِ أَنْ حَوَّلُوا الْجِبَالَ إِلَى قُصُورٍ، يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا، فلم يُخْلَقْ مِثْلُهُمْ فِي الْبِلَادِ قُوَّةً مُتَنَاهِيَةً، ولكن: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۖ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعِجَازٌ نَخْلٍ حَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦-٧].

* والرَّجْفَةُ كذلك جُندٌ من جنودِ الرحمن، فحينما تَرْتَجِفُ الأَرْضُ فهذا جُنْدِيٌّ مِنْ جُنُودِ اللهِ، نَسَأَلُ اللهُ أَنْ يَلْطَفَ بِنَا وَيَرْحَمَنَا جَمِيعًا، وَيَحْفَظَ بِلَادَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ كُلِّ سُوءٍ، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِن آتَبَعْتُمْ سُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ﴾ [١٠] فَأَخَذَهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنِينَ ﴿١١﴾ الَّذِينَ كَذَبُوا سُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَفْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَبُوا سُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَسِرِينَ ﴿١٢﴾ [الأعراف: ٩٠-٩٢].

* وَمِنْ جُنُودِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مَسَائِلُ مَعْنَوِيَّةٌ لَيْسَتْ بِمَحْسُوسَةٍ، وَلَهَا صُورٌ مُتَعَدِّدَةٌ، مِنْ ذَلِكَ: الرُّعْبُ، فَالرُّعْبُ جُنْدِيٌّ مِنْ جُنُودِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقْدِفُهُ اللهُ فِي قُلُوبِ الْكَافِرِينَ، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿سَأَلْتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَصْرَبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَصْرَبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: ١٢]، وقال سبحانه:

(١) أخرجه مسلم: كتاب صلاة الاستسقاء، باب التعوذ عند رؤية الريح، رقم (١٥/٨٩٩)، من حديث عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَفْتَلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ [الأحزاب: ٢٦]، وقال سبحانه: ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدَى الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ﴾ [الحشر: ٢].

وقال النبي ﷺ كما جاء في صحيح البخاري من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: «نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ»^(١).

•• k ••

(١) أخرجه البخاري: كتاب التيمم، رقم (٣٣٥)، ومسلم: كتاب المساجد، رقم (٥٢١).



(٦)

يا سلعة الرحمن

•• k ••

جاء في سنن الترمذي أن النبي ﷺ قال: «مَنْ خَافَ أَدْلَجَ، وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ الْمَنْزِلَ، أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ غَالِيَةٌ، أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ الْجَنَّةُ»^(١).

وما أدراك ما الجنة، الجنة تحتاج أن نحث الخطى تجاهها ليل نهار.

فها هو نبينا ﷺ يقول: «يُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا فِي الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيُصْبَغُ صَبْغَةً فِي الْجَنَّةِ» أي: يُعْمَسُ عَمْسَةً وَاحِدَةً، وَقَدْ كَانَ فِي الدُّنْيَا أَشَدَّ النَّاسِ بُؤْسًا فِيهَا، فَقَرًّا وَحَاجَةً وَعَوَزًا وَمَرْضًا وَضَنْكًا وَجُهْدًا «فَيَقَالُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ، هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا وَاللَّهِ يَا رَبِّ، مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ، وَلَا رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ»^(٢).

هذه عَمْسَةٌ وَاحِدَةٌ لَمْ يَتَّعَمَّ بِهَا بَعْدُ، وَلَمْ تَمَرَّ عَلَيْهِ سَاعَاتٌ فِي الْجَنَّةِ، فَقَطَّ عَمْسَةٌ وَاحِدَةً، هَذِهِ هِيَ الْجَنَّةُ غَالِيَةٌ كَمَا قِيلَ:

يَا سِلْعَةَ الرَّحْمَنِ لَسْتَ رَخِيصَةً بَلْ أَنْتِ غَالِيَةٌ عَلَى الْكَسْلَانِ
يَا سِلْعَةَ الرَّحْمَنِ لَيْسَ يَنَالُهَا بِالْأَلْفِ إِلَّا وَاحِدٌ لَا اثْنَانِ

(١) أخرجه الترمذي: كتاب صفة القيامة، رقم (٢٤٥٠)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب صفات المنافقين، باب صبغ أنعم أهل الدنيا في النار، رقم (٢٨٠٧)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

يَا سِلْعَةَ الرَّحْمَنِ أَيَّنَ الْمُشْتَرِي
فَلَقَدْ عُرِضَتْ بِأَيْسَرِ الْأَثْمَانِ
يَا سِلْعَةَ الرَّحْمَنِ هَلْ مِنْ خَاطِبٍ
فَالْمَهْرُ قَبْلَ الْمَوْتِ ذُو إِمْكَانٍ^(١)

قال الحق - سبحانه -: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقِنُّهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].

لكن هذه الجنة حفها الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى بالمكاريه؛ فلا يوصل إليها إلا بالجهد والتعب والعمل؛ لذا يقول نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ، وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ»^(٢).

فلا تصل إلى الجنة إلا بعد أن تُجهد نفسك في عبور هذه المكاريه، يقول نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الْجَنَّةَ قَالَ: يَا جِبْرِيْلُ، اذْهَبْ فَانظُرْ إِلَيْهَا، قَالَ: فَذَهَبَ فَانظَرَ؛ فَقَالَ: يَا رَبِّ، وَعِزَّتِكَ لَا يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ إِلَّا دَخَلَهَا، قَالَ: فَحَفَّهَا بِالْمَكَارِهِ، ثُمَّ قَالَ: اذْهَبْ فَانظُرْ إِلَيْهَا. فَذَهَبَ فَانظَرَ إِلَيْهَا؛ فَقَالَ: يَا رَبِّ لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ لَا يَدْخُلَهَا أَحَدٌ»^(٣)، فلا بُدَّ من عبور هذه المكاريه.

(١) النونية لابن القيم (ص: ٣٥٤-٣٥٥).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها، رقم (٢٨٢٢)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه أحمد (٢/٣٣٢-٣٣٣)، وأبو داود: كتاب السنة، باب في خلق الجنة والنار، رقم (٤٧٤٤)، والترمذي: كتاب صفة الجنة، باب ما جاء حففت الجنة بالمكاريه وحففت النار بالشهوات، رقم (٢٥٦٠)، والنسائي: كتاب الأيمان والندور، باب الحلف بعزة الله تعالى، رقم (٣٧٦٣)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأنظر ماذا قال الحق - سبحانه -: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرَ اللَّهُ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة: ٢١٤].

عظمت الجنة فتعددت أسماؤها فهي دار السلام، كما قال الحق - سبحانه -: ﴿ لَكُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّكُمْ وَهُمْ وَلِيَّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٧].

وهي دار المقامة، كما قال الحق - سبحانه -: ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ ۗ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ [الذرى ٣٤] الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ ۗ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾ [فاطر: ٣٤-٣٥].

وهي الفردوس، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴾ [١٠٧] خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴾ [الكهف: ١٠٧-١٠٨].

كذلك من أسماؤها: المقام الأمين، كما قال سبحانه: ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴾ [٥١] فِي جَنَّاتٍ وَعُيُوبٍ ﴾ [الدخان: ٥١-٥٢].

أمّا صفة أهل الجنة فقد قال النبي ﷺ في وصف أول زمرة يدخلون الجنة، كما جاء في صحيح البخاري: «أَوَّلُ زُمْرَةٍ تَلِجُ الْجَنَّةَ صُورُهُمْ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، لَا يَبْصُقُونَ فِيهَا، وَلَا يَمْتَخِطُونَ، وَلَا يَتَغَوَّطُونَ، أَيْتُهُمْ فِيهَا الذَّهَبُ، أَمْشَاطُهُمْ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، وَمَجَامِرُهُمُ الْأَلْوَةُ» أي: مباخرهم التي يتبخرون فيها هي من العود «وَرَشْحُهُمُ الْمِسْكُ»^(١).

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة، رقم (٣٢٤٥)، ومسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب أول زمرة تدخل الجنة، رقم (٢٨٣٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأما أدنى أهل الجنة فقد قال النبي ﷺ كما جاء في صحيح مسلم من حديث المغيرة بن شعبه: «سأل موسى ربه ما أدنى أهل الجنة منزلة؟ قال: هو رجل يجيء بعدما أدخل أهل الجنة الجنة، فيقال له: ادخل الجنة، فيقول: أي رب، كيف وقد نزل الناس منازلهم، وأخذوا أخذاتهم؟»، ولعل الذين دخلوا قبله دخلوا قبله بمئات السنين، «فيقال له: أترضى أن يكون لك مثل ملك ملك من ملوك الدنيا؟ فيقول: رضيت رب، فيقول: لك ذلك، ومثله ومثله ومثله ومثله، فقال في الخامسة: رضيت رب، فيقول: هذا لك وعشرة أمثاله، فيقول: رضيت رب. فيقول: ولك ما اشتئت نفسك، ولدت عينك، فيقول: رضيت رب، فيقول موسى: فأعلاهم منزلة؟ قال: أولئك الذين غرست كرامتهم بيدي، وختمت عليها، فلم تر عين، ولم تسمع أذن، ولم يخطر على قلب بشر، ومصدأه في كتاب الله عز وجل: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧]»^(١).

إنها الجنة، وما أدراك ما الجنة!

وأما أبوابها فعظيمة، قال الحق - سبحانه -: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣].

وقال النبي ﷺ: «في الجنة ثمانية أبواب»^(٢)، في رواية مسلم، قال: «والذي نفسي بيده إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة كما بين مكة وهجر، أو كما بين

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، رقم (١٨٩).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب صفة أبواب الجنة، رقم (٣٢٥٧)، من حديث

سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

مَكَّةَ وَبُصْرَى»^(١) أي: بَيْنَ طَرَفِي الْبَابِ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَهَجَرَ، وَهَجَرَ إِحْدَى الْقُرَى فِي الْأَحْسَاءِ، أَوْ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَبُصْرَى - أَحَدُ الْمَوَاقِعِ قَرِيبَةٌ مِنْ دِمَشْقَ - هَذِهِ سَعَةُ الْبَابِ.

بل قَالَ ﷺ كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ عْتَبَةَ يَرْفَعُهُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ: «وَلَقَدْ ذُكِرَ لَنَا أَنَّ مَا بَيْنَ مِصْرَاعَيْنِ مِنْ مِصَارِيحِ الْجَنَّةِ مَسِيرَةٌ أَرْبَعِينَ سَنَةً، وَلَيَأْتِيَنَّ عَلَيْهَا يَوْمٌ وَهُوَ كَظِيظٍ مِنَ الزَّحَامِ»^(٢) أي: مِنْ كَثْرَةِ الدَّاخِلِينَ فِي الْجَنَّةِ، اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ الْجَنَّةَ.

وَكَمَا سَبَقَ لَا يُمَكِّنُ أَنْ نَقِفَ عَلَى هَذَا النَّعِيمِ الْمُتَدَفِّقِ مِنْ أَخْبَارِ الْجَنَّةِ، وَيَكْفِي أَنْ نَخْتِمَ كَلَامَنَا بِهَا جَاءَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ مُبَشِّرًا هَذِهِ الْأُمَّةَ حِينَمَا أَخْبَرَ عَنْ سُكَّانِ أَهْلِ الْجَنَّةِ؛ فَقَالَ: «أَهْلُ الْجَنَّةِ عِشْرُونَ وَمِئَةٌ صَفٌّ، ثَمَّ نُونٌ مِنْهَا مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَأَرْبَعُونَ مِنْ سَائِرِ الْأُمَّمِ»^(٣).

وَعِنْدَ الْحَدِيثِ عَنِ الْجَنَّةِ فَإِنَّ الْمَقْصِدَ مِنْ ذَلِكَ أَنْ يُشَمَّرَ الْعَامِلُونَ وَيَزْدَادُوا فِي عَمَلِهِمْ، وَأَنْ يَسْتَيْقِظَ الْغَافِلُونَ مِنْ غَفَلَتِهِمْ، وَأَنْ تَتَحَرَّكَ هَذِهِ الْخَطِيئَةُ نَحْوَ هَذَا الدَّرَبِ الَّذِي يُفِضِي إِلَى هَذَا النَّعِيمِ الْمُقِيمِ.

• • k • •

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب ﴿ذُرِّيَّةً مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾، رقم (٤٧١٢)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، رقم (١٩٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الزهد والرقائق، رقم (٢٩٦٧).

(٣) أخرجه أحمد (٣٤٧/٥)، والترمذي: كتاب صفة الجنة، باب ما جاء في صف أهل الجنة، رقم (٢٥٤٦)، وابن ماجه: كتاب الزهد، باب صفة أمة محمد ﷺ، رقم (٤٢٨٩)، من حديث بريدة بن الحصيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.



(٧)

وما توفيقى إلا بالله

• • k • •

ما منّا من أحدٍ إلا وينشُد التَّوْفِيقَ، أن يُوفَّقَ في الدُّنْيَا وأن يُوفَّقَ في الآخِرَةِ، الكبيرُ والصَّغِيرُ، الحَاكِمُ والمُحَكَّمُ، الذَّكَرُ والأُنْثَى، كُلُّ عَلَى قَدْرِهِ وَحَجْمِهِ يَبْحَثُ عن مادَّةِ التَّوْفِيقِ، يَبْحَثُ عن التَّوْفِيقِ في الدُّنْيَا، في مُحِيطِ الأُسْرَةِ، في مَجَالِ العَمَلِ، في حَيَاتِهِ العَامَّةِ، يَنْشُدُ التَّوْفِيقَ بِقَدْرِهِ وَعندَ لِقَاءِ رَبِّهِ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ المُوفَّقَ هُوَ اللهُ، وَأَنَّ مَوَادَّ التَّوْفِيقِ لَا يَتَوَصَّلُ إِلَيْهَا إِلَّا بِشَرَعِ اللهِ؛ لِذَا قَالَ العَبْدُ الصَّالِحُ كَمَا قَالَ الحَقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

فَمَنْ رَامَ التَّوْفِيقَ فَلْيَتَوَجَّهْ إِلَى الحَقِّ - سُبْحَانَهُ - الَّذِي قَالَ فِي كِتَابِهِ الكَرِيمِ: ﴿قُلْ إِنَّ الفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللهُ وَسِعَ عِلْمُهُ﴾ [آل عمران: ٧٣].

وَكَانَ مِنْ هَدْيِهِ ﷺ إِذَا رَأَى الهَلَالَ قَدْ أَهَلَ لِكُلِّ شَهْرٍ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ أَهْلُهُ عَلَيْنَا بِالْأَمْنِ وَالْإِيمَانِ، وَالسَّلَامَةِ وَالْإِسْلَامِ، وَالتَّوْفِيقِ لِمَا نُحِبُّ وَتَرْضَى، رَبَّنَا وَرَبُّكَ اللهُ»^(١)، فَرَسُوهُ اللهُ ﷺ يَسْأَلُ رَبَّهُ التَّوْفِيقَ عِنْدَ كُلِّ شَهْرٍ يَرَى فِيهِ هَلَالَ الشَّهْرِ.

يَقُولُ ابنُ القَيِّمِ - عَلَيْهِ سَحَابُ الرَّحْمَاتِ - كَمَا جَاءَ فِي كِتَابِهِ الفَوَائِدِ، يَقُولُ: وَعَلَى قَدْرِ نِيَّةِ العَبْدِ وَهَمِّتِهِ وَمُرَادِهِ وَرَغْبَتِهِ فِي ذَلِكَ يَكُونُ تَوْفِيقُهُ سُبْحَانَهُ وَإِعَانَتُهُ،

(١) أَخْرَجَهُ الدَّارِمِيُّ فِي سَنَنِهِ رَقْمَ (١٧٢٩)، وَابْنُ حِبَانَ فِي صَحِيحِهِ رَقْمَ (٨٨٨)، مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَمْرِو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

يقول: فالمعونة تنزل من الله على العباد على قدر همهم وثباتهم ورغبتهم ورهبتهم، والخذلان ينزل على حسب ذلك، يقول: فالله - سبحانه - أحكم الحاكمين وأعلم العالمين، يضع التوفيق في مواضعه التي تليق به، والخذلان في مواضعه اللائقة به^(١).

فلا تُجهد نفسك بحثاً عن التوفيق، فالتوفيق بيد الله **تَبَارَكَ وَتَعَالَى**.

يقول ابن الجوزي - رحمه الله تعالى -: متى رأيت في نفسك كسلاً؛ فسَلِ المنعم، أو عجزاً فالجأ إلى الموفق، فلن تنال خيراً إلا بطاعته، ولا يفوتك خيرٌ إلا بمعصيته^(٢).

والتوفيق ليس له علاقة بالحسب والنسب، ولا بالزمان الذي تعيش فيه، ولا بالمكان الذي تقطن فيه، فانظر إلى هؤلاء: أبي لهب، وأبي جهل، وأبي طالب، عاشوا في أشرف الأزمنة؛ في زمن النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** وعاشوا في أشرف الأماكن؛ عاشوا بجوار البيت الحرام، وعاشوا هناك عند زمزم وعند المقام، عاشوا بين الصفا والمروة، ومع ذلك لم ينالوا التوفيق والهدى والنور والإيمان.

ولكن ناله أناس جاؤوا من بعيد، فقد جاء أبو ذر الغفاري من غفار، وجاء صهيب الرومي، وجاء سلمان الفارسي، وجاء بلال الحبشي، بل حتى النجاشي هناك في أرضه في أرض الحبشة، كل أولئك نالوا التوفيق؛ لأنهم أرادوا التوفيق، وطفوا باب الموفق - سبحانه - والله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** يقول: **﴿إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾** [الأنفال: ٧٠].

(١) الفوائد لابن القيم (ص: ٩٧).

(٢) صيد الخاطر لابن الجوزي (ص: ٥٠٢).

وقال عن أولئك الذين لم يريدوا التوفيق: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنَّ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ (٤٦) [التوبة: ٤٦].

ويقول الحقُّ **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** في الحديثِ القدسيِّ، وما أعظمه من حديثٍ لو فقهناه! يقول: «يا ابن آدم، **قُمْ إِلَيَّ أَمْشِ إِلَيْكَ**» فقط مجرد قِيَامٍ، وأنت إلى الآن لم تخطُ خُطوتَكَ الأولى «يا ابن آدم، **امشِ إِلَيَّ أَهْرُولُ إِلَيْكَ**» (١).

وقد جاء في كتابِ ذمِّ الهوى لابنِ الجوزيِّ، عنِ الفضيلِ بنِ عياضٍ **رَحِمَهُ اللَّهُ** أنه قال: من استحوذت عليه الشهواتُ انقطعَ عنه موادُّ التوفيقِ (٢).

فالتوفيقُ له موادُّ -أي: سُبُلٌ وطُرُقٌ- من استحوذت عليه الشهواتُ وإن كان على أبوابِ هذه السُّبُلِ وعلى أبوابِ هذه الطُّرُقِ لا يناله التوفيقُ. أذكرُ بعضاً من هذه الموادِّ بإيجازٍ واختصارٍ:

البابُ الأوَّلُ: الاستِمساكُ بكتابِ الله، قِراءةً وتَدبُّراً وتأمُّلاً وتحاكماً وتداوياً. وإنني أستغربُ من بعضِ النَّاسِ مِمَّنْ يقولُ: أنا لستُ مُوفِّقاً في شيءٍ أبداً، لا في حياتي الزَّوجِيَّةِ، ولا في حياتي العمليَّةِ. فإذا سئِلَ هل تقرأ القرآن؟ قال: لا.

فكيفَ يريدُ التوفيقَ وهو بعيدٌ عن مادَّةِ التوفيقِ، فضلاً عن تلك الشهواتِ التي استحوذت عليه، وقد قال الحقُّ في سورةِ الإسراءِ: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ (١) [الإسراء: ٩].

(١) أخرجه أحمد (٤٧٨/٣)، من طريق شريح بن الحارث، عن رجل من أصحاب النبي ﷺ.

(٢) ذم الهوى لابن الجوزي (ص: ٢٤).

فأيُّ توفيقٍ أعظمُ من ذلك؟!!

وجاء في حديث أبي سُريحٍ الخَزَاعِيِّ عن النبي ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ سَبَبٌ - أَيْ: حَبْلٌ - مَتِينٌ، طَرَفُهُ بِيَدِ اللَّهِ، وَطَرَفُهُ بِأَيْدِيكُمْ؛ فَاسْتَمْسِكُوا بِهِ فَإِنَّكُمْ لَنْ تَضِلُّوا وَلَنْ تَهْلِكُوا بَعْدَهُ أَبَدًا» رواه ابنُ حِبَّانَ في صحيحه^(١).

ونقل لنا أبو حامد الغزالي رحمه الله في كتابه إحياء علوم الدين، عن أبي هريرة - رضي الله تعالى عنه - قال: إِنَّ الْبَيْتَ الَّذِي يُتْلَى فِيهِ الْقُرْآنُ يَتَّسِعُ عَلَى أَهْلِهِ، وَيَكْثُرُ خَيْرُهُ، وَمُخَضَّرُهُ الْمَلَائِكَةُ، وَتَخْرُجُ مِنْهُ الشَّيَاطِينُ، وَإِنَّ الْبَيْتَ الَّذِي لَا يُتْلَى فِيهِ الْقُرْآنُ يَضِيقُ عَلَى أَهْلِهِ - قَدْ يَكُونُ الْبَيْتُ قَصْرًا وَاسِعًا جَدًّا، لَا تُعَدُّ عُرْفُهُ وَلَا تُحْصَى، لَكِنَّهُ يَضِيقُ عَلَى أَهْلِهِ - وَيَقِلُّ خَيْرُهُ، وَتَخْرُجُ مِنْهُ الْمَلَائِكَةُ، وَمُخَضَّرُهُ الشَّيَاطِينُ^(٢).

ثانيًا: مَنْ أَرَادَ التَّوْفِيقَ فَعَلِيهِ بِالصَّلَاةِ، وَوَاللَّهِ إِنَّكَ لَتَسْتَعْرَبُ مِنْ أَبِّ، أَوْ أَخٍّ، أَوْ شَابٍّ، أَوْ زَمِيلٍ يَشْتَكِي عَدَمَ التَّوْفِيقِ، فَإِذَا سَأَلْتَهُ: يَا فُلَانُ، هَلْ تُصَلِّيَ أَمْ لَا؟ قَالَ: لَا أَصَلِّي. فَكَيْفَ يَرِيدُ التَّوْفِيقَ؟! هَذَا لَمْ يَرِ التَّوْفِيقَ فِي الدُّنْيَا، فَكَيْفَ - عِيَاذًا بِاللَّهِ - فِي الْقَبْرِ؟ إِذَا وَقَفَ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ.. كَيْفَ يَكُونُ حَالُهُ؟

قال ابنُ القَيِّمِ - رحمه الله تعالى - في كتابه زاد المعاد، وما أعظمه من كتاب! قال: وما استندفعتُ شُرُورَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَلَا اسْتُجْلِبَتْ مَصَالِحُهَا بِمِثْلِ الصَّلَاةِ، وَسِرُّ ذَلِكَ أَنَّ الصَّلَاةَ صِلَةٌ بِاللَّهِ عَزَّوَجَلَّ وَعَلَى قَدْرِ صِلَةِ الْعَبْدِ بِرَبِّهِ عَزَّوَجَلَّ تُفْتَحُ عَلَيْهِ

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف رقم (٣٠٦٢٨)، وابن حبان في صحيحه رقم (١٢٢)، والطبراني في المعجم الكبير (٢٢/١٨٨، رقم ١٩٤).

(٢) إحياء علوم الدين (١/٢٧٤).

مِنَ الْخَيْرَاتِ أَبْوَابُهَا، وَتُقَطَّعُ عَنْهُ مِنَ الشَّرِّ أَسْبَابُهَا، وَتَفِيضُ عَلَيْهِ مَوَادُّ التَّوْفِيقِ مِنْ رَبِّهِ **عَزَّجَلَّ** وَالْعَافِيَةُ وَالصَّحَّةُ وَالغِنَى وَالنَّعِيمُ وَالرَّاحَةُ وَالْأَفْرَاحُ وَالْمَسْرَاتُ كُلُّهَا مُحَضَّرَةٌ لَدَيْهِ وَمُسَارَعَةٌ إِلَيْهِ ^(١).

وَصَدَقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَمَّا ذَكَرَ يَوْمًا مِنَ الْأَيَّامِ الصَّلَاةَ فَقَالَ: «مَنْ حَافِظٌ عَلَيْهَا كَانَتْ لَهُ نُورًا وَنَجَاةً وَبُرْهَانًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ لَمْ يُحَافِظْ عَلَيْهَا لَمْ يَكُنْ لَهُ نُورٌ وَلَا بُرْهَانٌ وَلَا نَجَاةٌ، وَكَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعَ: قَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَأَبِي بَنْ خَلْفٍ» ^(٢).

فهذه فُرْصَةٌ لِمَنْ يُضَيِّعُ الصَّلَوَاتِ أَنْ يَتُوبَ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْآنَ، وَيَعْزِمُ عَلَى أَلَّا تَقُوتَهُ صَلَاةٌ.

وَمِنْ طُرُقِ التَّوْفِيقِ وَمَوَادِّهِ وَأَبْوَابِهِ: صَلَاةُ الرَّحِمِ، وَأَنْظَرُ يَمِينًا أَوْ شِمَالًا حَوْلِكَ، أَنْظَرُ إِلَى هَذَا الْأَخِ الَّذِي وَصَلَ رَحِمَهُ، كَيْفَ وَقَفَّهُ اللَّهُ؟ تَرِ عِلَامَةَ التَّوْفِيقِ لَيْسَتْ وَفَرَةَ الْمَالِ، إِنَّمَا عِلَامَةُ التَّوْفِيقِ الْإِهْتِدَاءُ إِلَى الطَّاعَةِ، أَنْظَرُ إِلَيْهِ لَمَّا وَصَلَ رَحِمَهُ؛ كَيْفَ كَانَ، وَأَعْظَمُ الْأَرْحَامِ صَلَاةُ الْوَالِدَانِ، وَقَدْ جَاءَ رَجُلٌ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ فَقَالَ لَهُ: يَا ابْنَ عَبَّاسٍ قَتَلْتُ نَفْسًا وَأُرِيدُ أَنْ أَتُوبَ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَمْثَلُ حَيَّةٌ؟ قَالَ: لَا، قَالَ: تَبُّ إِلَى اللَّهِ، وَتَقَرَّبُ إِلَيْهِ مَا اسْتَطَعْتَ، فَلَمَّا قَامَ جَاءَهُ عَطَاءُ بْنُ يَسَارٍ وَقَالَ: يَا ابْنَ عَبَّاسٍ لِمَاذَا سَأَلْتَهُ عَنْ أُمِّهِ؟ قَالَ: إِنِّي لَا أَعْلَمُ عَمَلًا أَقْرَبَ إِلَى اللَّهِ **عَزَّجَلَّ** مِنْ بَرِّ الْوَالِدَيْنِ ^(٣).

(١) زاد المعاد لابن القيم (٤/٣٠٥).

(٢) أخرجه أحمد (٢/١٦٩)، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا**.

(٣) أخرجه البخاري في الأدب المفرد رقم (٤).

فعليك ببرِّ الوالدين في الدنيا قبل أن يموتا، لا يصلح بعد موت أمك أن تقف على قبرها وتقول: ساحيني يا أمي، وتبكي، فالآن الآن عليك أن تنكب على قدميها وتلزمها؛ فثم الجنة.

هذا هو البرُّ في الدنيا، نعم هناك برُّ في الآخرة بعد أن تموت، لكن البرُّ المقدم الذي يكون في الدنيا، وإن كنت قد أغضبت والدك الذي هو أوسط أبواب الجنة كما قال نبينا ﷺ فالآن الآن اعتذر، ولا تعتذر بعد أن يموت فلا فائدة، لن يسمع اعتذارك، ولن يقبل اعتذارك، وهذه مضيبة.

وقد جاء في حديث عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا عند أحمد في مسنده أن النبي ﷺ قال: «وَصِلَّةُ الرَّحِمِ، وَحُسْنُ الْخُلُقِ، وَحُسْنُ الْجَوَارِ؛ يَعْمُرَانِ الدِّيَارَ، وَيَزِيدَانِ فِي الْأَعْمَارِ»^(١).

وهذا توفيق، بل قال ﷺ في حديث أبي بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «إِنَّ أَعْجَلَ الطَّاعَةِ ثَوَابًا صِلَّةُ الرَّحِمِ، حَتَّىٰ إِنْ أَهْلَ الْبَيْتِ لَيَكُونُوا فَجْرَةً؛ فَتَنْمُو أَمْوَالُهُمْ، وَيَكْتُرُ عَدَدُهُمْ إِذَا تَوَاصَلُوا، وَمَا مِنْ أَهْلِ بَيْتٍ يَتَوَاصَلُونَ فَيَحْتَاجُونَ»^(٢).

إِذَا: اسْتَمْسَكَ بِكِتَابِ اللَّهِ، وَلَا تُفَرِّطْ فِي الصَّلَاةِ، وَعَلَيْكَ بِصِلَةِ الْأَرْحَامِ، فَكُلُّ ذَلِكَ مَوَادُّ وَأَسْبَابٌ وَطُرُقٌ تَتَوَصَّلُ بِهَا إِلَى التَّوْفِيقِ.

• • k • •

(١) مسند أحمد (٦/١٥٩).

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه رقم (٤٤٠).



(٨)

وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا

• • k • •

قال الحقُّ سبحانه وتعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَعْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا
السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَبِيرِ
الضَّعِيفِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ [آل عمران: ١٣٣-١٣٤].

خُلِقَ العَفْوُ ما أَجْمَلُهُ وما أَطْيَبُهُ! وهو خُلِقَ الأنبياءِ، والأتقياءِ، والأوفياءِ،
والأقوياءِ، والأكرمينَ، والصالحينَ، والمتقينَ، وهو دواءٌ للقلوبِ المكلومةِ، وشفاءٌ
للصدورِ المهمومةِ، وهو يُجِيلُ الاختلافَ إلى اتِّلافٍ، والانقسامَ إلى التَّامِ، والبُغْضَ
إلى محبَّةٍ ووثامٍ.

وقد أَحَبَّ اللهُ العَفْوَ فسمَّى نفسه بالعَفْوِ، وأمرَ به، فقال: ﴿خُذِ العَفْوَ وَأْمُرْ
بِالعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الجَاهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الأعراف: ١٩٩].

وأحَبَّ اللهُ العَفْوَ فرتَّبَ عليه الأجرَ الكثيرَ؛ فقال: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ
عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠].

وقد جاءَ في مُسندِ أحمدَ، قال عُقْبَةُ بْنُ عامِرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: لَقِيتُ رسولَ اللهِ ﷺ
فقال لي: «يا عُقْبَةُ بْنُ عامِرٍ، صِلْ مَنْ قَطَعَكَ، وَأَعْطِ مَنْ حَرَمَكَ، وَاغْفُ عَمَّنْ
ظَلَمَكَ»^(١).

(١) أخرجه أحمد (٤/١٥٨).

ولَمَّا ضَمَّ سِلَاحُ النَّبِيِّ ﷺ إِلَى عَلِيٍّ - رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ - قَالَ: وَجَدْتُ فِي ذُؤَابَةِ سَيْفِهِ ثَلَاثَةَ أَحْرُفٍ - أَي: ثَلَاثُ جُمَلٍ - : «صِلْ مَنْ قَطَعَكَ، وَقِلْ الْحَقَّ وَلَوْ عَلَى نَفْسِكَ، وَأَحْسِنْ إِلَى مَنْ أَسَاءَ إِلَيْكَ»^(١).

ولَمَّا قَامَتْ عَائِشَةُ - رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهَا - كَمَا جَاءَ فِي سُنَنِ التِّرْمِذِيِّ تُرِيدُ وَصْفَ النَّبِيِّ ﷺ قَالَتْ: «لَمْ يَكُنْ فَاحِشًا وَلَا مُتَفَحِّشًا، وَلَا صَخَابًا فِي الْأَسْوَاقِ، وَلَا يُجَازِي السَّيِّئَةَ السَّيِّئَةَ، وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَصْفَحُ»^(٢)؛ لَذَا قَالَ الْحَسَنُ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - : أَفْضَلُ أَخْلَاقِ الْمُؤْمِنِ الْعَفْوُ^(٣).

فَإِذَا أَرَدْتَ قَلْبًا مُطْمَئِنًّا وَضَمِيرًا مَرْتَاحًا؛ فَتَخَقَّقْ بِخُلُقِ الْعَفْوِ، فَقَدْ قَالَ الْأَوَّلُ:

لَمَّا عَفَوْتُ وَلَمْ أَحْقِدْ عَلَى أَحَدٍ أَرَحْتُ نَفْسِي مِنْ هَمِّ الْعَدَاوَاتِ
إِنِّي أَحْيِي عَدُوِّي عِنْدَ رُؤْيَيْهِ لِأَذْفَعِ الشَّرَّ عَنِّي بِالتَّحِيَّاتِ
وَأُظْهِرُ الْبُشْرَى لِإِنْسَانٍ أَبْغَضُهُ كَأَنَّمَا قَدْ حَشَا قَلْبِي مَحَبَّاتِ^(٤)

وَأَسْبَابُ الْعَفْوِ ثَلَاثَةٌ أُمُورٍ، أَوْجِزُهَا فِيهَا يَلِي:

(١) أَخْرَجَهُ ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ فِي مَعْجَمِهِ رَقْمَ (١٥٠٧)، وَعَزَاهُ الْمُنْذَرِيُّ فِي التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيْبِ (٣/٢١٠-٢١١) لِرَزِينٍ، وَقَالَ: وَلَمْ أَرَهُ، وَعَزَاهُ الْحَافِظُ فِي التَّلْخِيصِ الْحَبِيرِ (٣/١١٥) لِابْنِ شَاذَانَ فِي جَزْئِهِ عَنِ ابْنِ السَّمَاكِ، وَانظُرْ جَامِعَ الْأَصُولِ لِابْنِ الْأَثِيرِ (١١/٦٨٨).

(٢) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (٦/١٧٤)، وَالتِّرْمِذِيُّ: كِتَابُ الْبِرِّ وَالصَّلَاةِ، بَابُ مَا جَاءَ فِي خُلُقِ النَّبِيِّ ﷺ، رَقْمَ (٢٠١٦).

(٣) أَخْرَجَهُ ابْنُ الْمُبَارَكِ فِي الزُّهْدِ (١/٢٤٤، رَقْمَ ٧٠٠)، وَأَحْمَدُ فِي الزُّهْدِ (ص: ٢٣٣، رَقْمَ ١٦٥٦).

(٤) دِيْوَانَ الشَّافِعِيِّ (ص: ٣٩)، وَانظُرْ: أَدَبُ الدُّنْيَا وَالدِّينِ (ص: ١٨٢)، مَنَاقِبُ الشَّافِعِيِّ لِلْبَيْهَقِيِّ (٢/٨٧).

السبب الأول: لأنَّ الله -تعالى- يُحِبُّ العَفْوَ، فإذا عَفَوْتَ فَاسْتَحْضِرْ في نَفْسِكَ أَنَّكَ تَفْعَلُ فِعْلاً يُحِبُّهُ اللهُ، أَلَسْتَ تُحِبُّ اللهُ؟ وَتُحِبُّ مَا يُحِبُّهُ اللهُ **تَبَارَكَ وَتَعَالَى**؟ فلو أَحَبَّ أَحَدُنَا شَخْصًا مَا فَإِنَّهُ يَفْعَلُ لَهُ مَا يُحِبُّ، وَاللهُ **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** لَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى، يُحِبُّ العَفْوَ، فإذا عَفَوْنَا فَذَلِكَ لِأَنَّ اللهَ يُحِبُّ العَفْوَ.

وقد جاء في حديث ابن مسعود **رَضِيَ اللهُ عَنْهُ** عند الحاكم في مُسْتَدْرَكِهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ **ﷺ**: **«إِنَّ اللهَ عَفُوٌّ يُحِبُّ العَفْوَ»** (١).

لذا تَرَجَّمَ سَلَفُ الْأُمَّةِ هَذَا الْمَعْنَى؛ قَالَ رَجَاءُ بْنُ حَيَوَةَ -رحمه الله تعالى- لعبد الملك بن مروان وهو يُحَدِّثُهُ في أُسَارَى ابنِ الْأَشْعَثِ، قَالَ: يَا عَبْدَ الْمَلِكِ، إِنَّ اللهَ قَدْ أَعْطَاكَ مَا تُحِبُّ مِنَ الظَّفَرِ، فَأَعْطِهِ مَا يُحِبُّ مِنَ العَفْوَ، فَنَحْنُ نَعْفُو؛ لِأَنَّ اللهَ يُحِبُّ العَفْوَ (٢).

السبب الثاني: لِأَنَّ مِنْ سُنَنِ اللهِ **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** أَنَّهُ يُجَازِي بِالْإِحْسَانِ إِحْسَانًا؛ فَمَنْ عَفَا عَمَّا عَنْهُ، وَمَنْ سَامَحَ سَامِحَةً، وَمَنْ عَفَرَ عَفْرًا لَهُ، فَمَنْ مَنَّا فِي غِنَى عَنِ عَفْوِ اللهِ وَصَفْحِهِ وَمَغْفِرَتِهِ؟! مَنْ مَنَّا فِي غِنَى عَنِ عَفْوِ اللهِ **تَبَارَكَ وَتَعَالَى**؟!!

فقد جاء عند الطبراني في مُعْجَمِهِ الْكَبِيرِ مِنْ حَدِيثِ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ -رضي الله تعالى عنه- قَالَ رَسُولُ اللهِ **ﷺ**: **«مَنْ لَا يَرْحَمُ لَا يُرْحَمُ، وَمَنْ لَا يَغْفِرُ لَا يُغْفَرُ لَهُ، وَمَنْ لَا يَتَّبِعُ لَا يَتَّبَعُ عَلَيْهِ»** (٣).

(١) أخرجه أحمد (٤١٩/١)، والحاكم في المستدرک (٣٨٢/٤).

(٢) ذكره الماوردي في أدب الدنيا والدين (ص: ٢٦٠)، والغزالي في الإحياء (٣/١٨٤).

(٣) المعجم الكبير للطبراني (٢/٣٥١، رقم ٢٤٧٦)، وأخرجه مختصراً البخاري: كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم، رقم (٦٠١٣)، ومسلم: كتاب الفضائل، باب رحمته **ﷺ** الصبيان، رقم (٢٣١٩).

وقال كما جاء في مُسْنَدِ أَحْمَدَ: «**ارْحَمُوا تُرْحَمُوا، وَاغْفِرُوا يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ**»^(١).

وقال أيضًا كما جاء في مُسْنَدِ أَحْمَدَ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا**: «**اسْمَحْ؛ يُسْمَحْ لَكَ**»^(٢).

وهذه الأحاديثُ لَمَّا قَالَهَا النَّبِيُّ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** لَمْ يَقُلْهَا لِنَمْلًا بِهَا صَفْحَاتِ الْكُتُبِ، وَنَزِيْنَهَا أَرْفَفَ الْمَكْتَبَاتِ، بَلْ قَالَهَا لِتَكُونَ واقِعًا عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، فَمَنْ مَنَّا فِي غِنَى عَنْ أَنْ يُسْمَحَ لَهُ فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ مِنْ مَخْلُوقٍ أَوْ مِنَ الْخَالِقِ **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى!**

وقد سَبَقَ كَلَامُ ابْنِ الْقَيِّمِ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - الَّذِي قَالَهُ فِي كِتَابِهِ الْوَابِلِ الصَّيْبِ؛ حَيْثُ قَالَ: فَمَنْ عَفَا عَفَا عَنْهُ، وَمَنْ غَفَرَ غَفَرَ لَهُ، وَمَنْ سَامَحَ سَامَحَهُ ..
ثُمَّ قَالَ: وَمَنْ عَامَلَ خَلَقَهُ بِصِفَةِ عَامَلِهِ اللَّهُ - تَعَالَى - بِتِلْكَ الصِّفَةِ بَعَيْنَهَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

ثُمَّ قَالَ: فَاللَّهُ تَعَالَى لِعَبْدِهِ عَلَى حَسَبِ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ لِحَلْقِهِ^(٣).
إِنَّمَا هِيَ السُّنَنُ جَزَاءً وَفَاءً.

السبب الثالث: لِأَنَّ اللَّهَ يُكَافِي بِالْعَفْوِ عِزًّا، فَإِنَّكَ إِنْ عَفَوْتَ عَنْ قُوَّةِ أَعْرَكَ اللَّهُ، وَرَفَعَ ذِكْرَكَ وَشَأْنَكَ، فَقَدْ جَاءَ أَنَّ النَّبِيَّ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** قَالَ كَمَا جَاءَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ: «**مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ، وَمَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ**

(١) مسند أحمد (٢/ ١٦٥)، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا**.

(٢) مسند أحمد (١/ ٢٤٨).

(٣) الوابل الصيب لابن القيم (ص: ٣٥).

إِلَّا عِزًّا، وَمَا تَوَاضَعَ عَبْدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ»^(١).

وجاء في مُسْنَدِ أَحْمَدَ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَجُلًا شَتَمَ أَبَا بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَالنَّبِيَّ ﷺ جَالِسٌ، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: فَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يَعْجَبُ وَيَتَبَسَّمُ، فَلَمَّا أَكْثَرَ عَلَيْهِ مِنَ الشَّتْمِ رَدَّ عَلَيْهِ أَبُو بَكْرٍ بَعْضَ قَوْلِهِ؛ فَغَضِبَ النَّبِيُّ ﷺ وَقَامَ، فَلَحِقَهُ أَبُو بَكْرٍ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، شَتَمَنِي وَأَنْتَ جَالِسٌ، فَلَمَّا رَدَدْتُ عَلَيْهِ بَعْضَ قَوْلِهِ قُتِمَتْ، قَالَ: «فَإِنَّهُ كَانَ مَعَكَ مَلَكٌ يَرُدُّ عَنْكَ، فَلَمَّا رَدَدْتَ عَلَيْهِ بَعْضَ قَوْلِهِ وَقَعَ الشَّيْطَانُ، فَلَمْ أَكُنْ أَفْعُدُ مَعَ الشَّيْطَانِ، يَا أَبَا بَكْرٍ ثَلَاثُ كُتُوبٍ حَقٌّ: مَا مِنْ عَبْدٍ ظَلِمَ بِمَظْلَمَةٍ فَيُغْضِي عَنْهَا لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ، إِلَّا أَعَزَّ اللَّهُ بِهَا نَصْرَهُ»^(٢).

يُغْضِي اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَي: يَعْفُو اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَنْ قُوَّةٍ وَأَقْتَدَارٍ، أَي: هُوَ قَادِرٌ أَنْ يَأْتِيَ فِي مُقَابِلِ السَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ وَيَنْتَصِرُ، وَلَكِنَّهُ فَعَلَ ذَلِكَ لِلَّهِ.

لذا قال الشافعي - رحمه الله تعالى - حينما عُوتِبَ فِي السُّكُوتِ، وَمَا رَدَّ عَلَى

مَنْ قَالَ لَهُ وَقَالَ:

قَالُوا سَكَتَ وَقَدْ حُوصِمْتَ فَقُلْتُ إِنَّ الْجَوَابَ لِيَابِ الشَّرِّ مِفْتَاحُ
فَالصَّمْتُ عَنْ جَاهِلٍ أَوْ أَحْمَقَ شَرَفٌ وَفِيهِ أَيْضًا لِصَوْنِ الْعَبْدِ إِصْلَاحُ
أَمَا تَرَى الْأُسْدَ تُخْشَى وَهِيَ صَامِتَةٌ وَالْكَلْبُ يُخْشَى وَيُرْمَى وَهُوَ نَبَّاحٌ^(٣)

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة، باب استحباب العفو والتواضع، رقم (٢٥٨٨)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أحمد (٤٣٦/٢)، وأبو داود: كتاب الأدب، باب في الانتصار، رقم (٤٨٩٧).

(٣) ديوان الشافعي (ص: ٥١).

وقد جاء في سنن أبي داود أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، كم نَعْفُو عن الخادم؟ قال: فصمت النبي ﷺ فأعادها عليه فصمت، فكررها ثلاثاً، فقال النبي ﷺ: «تَعْفُو عَنْهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ سَبْعِينَ مَرَّةً»^(١).

فكيف إذا كان المخطئ في حَقِّكَ والِدَكَ.. كم تَعْفُو عنه؟! أو كان المخطئ في حَقِّكَ وَلَدَكَ.. كم تَعْفُو عنه؟! أو كان المخطئ في حَقِّكَ زَوْجَتَكَ، كم تَعْفُو عنها؟! فإن كان الخادم يُعْفَى عنه في كُلِّ يَوْمٍ يُحْطِئُ فيه سبعين مرةً، فكم تَعْفُو عَمَّنْ هو أَقْرَبُ منك للخادم!؟

وقد جاء غلامٌ مملوكٌ لأبي ذرٍّ -رضي الله تعالى عنه- وقد كَسَرَ رَجُلَ شاةٍ لأبي ذرٍّ، قال أبو ذرٍّ للغلام: مَنْ كَسَرَ رَجُلَ هذه؟ قال الغلامُ المملوكُ: أنا كَسَرْتُهُ لِأَعِظْكَ فَتَغْضَبَ فَتَضْرِبَنِي؛ فتأثم، سبحان الله! فقال أبو ذرٍّ: والله لا أَعْظِظَنَّ مَنْ حَرَّضَكَ عَلَى عَيْظِي، قد عَفَوْتُ عَنْكَ وَأَعْتَقْتُكَ^(٢).

ذلك لَأَنَّهُ يَنْتَظِرُ شَيْئًا آخَرَ سَمِعَهُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ فقد جاء عند الطبراني في مُعْجَمِهِ الكَبِيرِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «وَمَنْ كَظَمَ غَيْظًا وَلَوْ شَاءَ أَنْ يُمِضِيَهُ أَمْضَاهُ مَلَأَ اللَّهُ قَلْبَهُ رَجَاءَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ»^(٣).

اللَّهُمَّ اْمَلَأْ قُلُوبَنَا إِيمَانًا وَرَجَاءً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

• • k • •

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الأدب، باب في حق المملوك، رقم (٥١٦٤)، والترمذي: كتاب البر والصلة، باب ما جاء في العفو عن الخادم، رقم (١٩٤٩)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه ابن عساکر في تاريخ دمشق (٦٦/٢١١).

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٢/٤٥٣)، رقم (١٣٦٤٦)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

K

K

(٩)

واذكروا نعمة الله عليكم

•• k ••

قال الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَأَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ٧].

نحنُ في زمنٍ نحتاجُ فيه إلى مَبْدَأِ التَّذْكِيرِ بِنِعَمِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وإلى مَبْدَأِ تَذْكِيرِ نِعَمِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى علينا، فنحنُ في حاجةٍ إلى مَنْ يُذَكِّرُنَا بِنِعَمِ اللَّهِ، وفي حاجةٍ أَنْ نَتَذَكَّرَ نِعَمَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى علينا، في زمنٍ كَثُرَ فيه الشاكُونَ، والمتصَجِّرُونَ، والجاحِدُونَ، والمنكِرُونَ لِنِعَمِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الظاهرِ منها والباطنِ؛ لذا نتحدَّثُ عن قولِ الحقِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَأَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ٧].

فهو مَبْدَأٌ مِنَ المَبَادِي العظيمةِ أَنْ تَتَذَكَّرَ نِعَمَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عليك، وقد جاء التذكيرُ بهذا المَبْدَأِ في كتابِ اللَّهِ كثيرًا، قال الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ [الأحزاب: ٩].

وقال سبحانه في موضعٍ آخر: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

بل سارَ الأنبياءُ والصالحونَ على هذا المَبْدَأِ وأكَّدوه في أقوامِهِمْ.

فهذا موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أحدُ النَّهَاجِ المُضِيَّةِ يقولُ كما قال -الحقُّ سبحانه-:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُورِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ

وَجَعَلَ لَكُمْ مُلُوكًا وَاَتَاكُمْ مَا لَمْ يَأْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٠].

وفي موضعٍ آخرٍ في سورة إبراهيم يقول **سُبْحَانَہُ وَتَعَالَى**: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُدْبِحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ فِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ [إبراهيم: ٦].

إذًا: من المبادئ المهمة التي ينبغي أن تشيع في مجتمعاتنا مبدأ تذكّر نعمة الله **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** علينا، ومبدأ تذكّر أن المنعم بهذه النعم هو الله، القائل في كتابه: ﴿وَمَا بِكُمْ مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣].

ولو حاولت أن أعدّد نعم الله **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** علينا لما تمكّنت؛ لأنّ الحقّ **سُبْحَانَہُ وَتَعَالَى** يقول في أكثر من موضع: ﴿وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [النحل: ١٨]، ولكنني هاهنا أذكر ببعض نعم الله علينا:

النّعمة الأولى: نعمة الخلق والإيجاد، فالله **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** حينما خلّقك أنعم عليك بهذه النعمة، أن خلّقك فسوّاك فعدّلك، ثم جعل مثواك الجنة إن استقمت، والجنة حينما تتحدّث عنها كفى بها من نعمة، قال الحقّ **تَبَارَكَ وَتَعَالَى**: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاقْبَلُوا تَوْفِيقَهُ﴾ [فاطر: ٣] فالله **سُبْحَانَہُ وَتَعَالَى** يذكّرنا بهذه النعمة، نعمة الخلق والإيجاد.

ويقول الحقّ - سبحانه - في موضعٍ آخر: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [الروم: ٤٠].

فجعل **سُبْحَانَہُ وَتَعَالَى** نعمة الخلق مما يمتنُّ بها على عباده **سُبْحَانَہُ وَتَعَالَى**.

النَّعْمَةُ الثَّانِيَةُ: التَّكْرِيمُ، فَاللَّهُ **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** خَلَقَ فِي نَفْسِ الْوَقْتِ مَخْلُوقَاتٍ أُخْرَى، لَكِنْ اخْتَارَ أَنْ يَجْعَلَكَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ فَهَذِهِ نِعْمَةٌ، فَتَصَوَّرْ لَوْ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ فَلَانًا خَلَقًا أُخْرَى، لَوْ أَنَّهُ خَلَقَهُ حَشْرَةً، أَوْ شَجْرَةً، أَوْ طَائِرًا أَوْ حَيْوَانًا، فَحِينَمَا اخْتَارَ أَنْ يَخْلُقَكَ هَذَا الْخَلْقَ الْمَكْرَمَ فَهَذِهِ نِعْمَةٌ تَسْتَوْجِبُ أَنْ تُشْكِرَ، قَالَ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَجَعَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠] فَجْعَلَكَ مُكْرَمًا.

النَّعْمَةُ الثَّالِثَةُ: زَمَنُ وَمَكَانُ الْخَلْقِ وَالْإِيْجَادِ، فَاللَّهُ **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** خَلَقَكَ فِي زَمَنِ أَفْضَلَ مِنْ أَزْمِنَةٍ غَابِرَةٍ، وَأَزْمِنَةٍ قَادِمَةٍ، فَأَنْتَ حِينَمَا تَعِيشُ فِي هَذَا الزَّمَنِ فَاللَّهُ **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** اخْتَارَ لَكَ أَفْضَلَ الْأَزْمِنَةِ، وَهَذَا يَسْتَوْجِبُ أَنْ يَشْكُرَ الْعَبْدُ رَبَّهُ عَلَى هَذِهِ النِّعْمَةِ، تَصَوَّرْ لَوْ أَنَّكَ قَدْ خُلِقْتَ فِي زَمَنِ قَبْلَ مِئَتِي سَنَةٍ أَوْ ثَلَاثِ مِئَةِ سَنَةٍ فِي شَظْفٍ مِنَ الْعَيْشِ، أَوْ فِي انْتِشَارِ الْقَتْلِ، أَوْ فِي ضِيَاعِ وَتِيهِ، وَتَصَوَّرْ لَوْ أَنَّكَ مَخْلُوقٌ فِي زَمَنِ قَوْمٍ لُوطٍ، أَوْ فِي زَمَنِ الْقَرَامِطَةِ، أَوْ فِي زَمَنِ مَحَاكِمِ التَّفْتِيشِ، وَتَصَوَّرْ لَوْ أَنَّكَ خُلِقْتَ فِي مَكَانٍ غَيْرِ هَذَا الْمَكَانِ، لَوْ أَنَّ اللَّهَ **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** خَلَقَكَ فِي أَدْغَالِ أُفْرِيْقِيَا، لَا تَرَى مِنْ هَذِهِ النِّعْمِ وَلَا وَاحِدًا بِالْمِئَةِ.

وَهَذَا يَسْتَوْجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نَتَذَكَّرَ هَذِهِ النِّعْمَ فَنَشْكُرَ الْمُنْعَمَ **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**.

النَّعْمَةُ الرَّابِعَةُ: تَسْخِيرُ الْخَلْقِ لَكَ، فَاللَّهُ **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** سَخَّرَ لَنَا مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، فَالْأَلَةُ مُسَخَّرَةٌ، وَالْحَدِيدُ مُسَخَّرٌ، وَالْأَخْشَابُ مُسَخَّرَةٌ، وَدَوَابُّ الْأَرْضِ الَّتِي نَرَاهَا وَالَّتِي لَا نَرَاهَا وَلَا نَعْلَمُ بِوُجُودِهَا مُسَخَّرَةٌ لَنَا، نَحْفَظُ لَنَا هَذَا التَّوَازُنَ الْبَيْئِيَّ.

يقول الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَهْرَهُ وَبَاطِنَهُ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾﴾ [لقمان: ٢٠].

ويقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِيَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُّقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الزخرف: ١٢-١٤].

﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ [الزخرف: ١٣] فهذه المركوبات الحديثة نعم الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى وتستوجب أن نتذكر هذه النعمة فنشكر المنعم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وقد قال النبي ﷺ: كما جاء في حديث أبي هريرة عند ابن حبان في صحيحه: «لَيَلْقَيْنَ أَحَدَكُمْ رَبَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَقُولُ لَهُ: أَلَمْ أُسَخِّرْ لَكَ الْخَيْلَ وَالْإِبِلَ؟ أَلَمْ أُذْرِكْ تَرَأْسَ وَتَرَبِيعَ؟ أَلَمْ أُزَوِّجْكَ فُلَانَةَ خَطَبَهَا الْخَطَّابُ فَمَنْعَتْهُمْ وَزَوَّجْتُكَ؟»^(١).

أي: حتى هذه المرأة التي بين يديك وفي بيتك نعمة من الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى سيسألك عن وجودها في حياتك، وهذا من تسخير الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

النَّعْمَةُ الْخَامِسَةُ: الفضل والإحسان، وهي نعمة تحتاج منا إلى تأمل وتدبر، فإن ميزان العدل أن الحسنه يُقابِلُها حسنة، وأن الإساءة تُقابِلُها إساءة، لكن ميزان الفضل والإحسان عند الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى أنه يكافئنا بالحسنة عشر أمثالها وزيادة،

(١) صحيح ابن حبان رقم (٧٣٦٧). و أخرجه بنحوه مسلم: كتاب الزهد والرقائق، رقم (٢٩٦٨).

وبالسَّيِّئَةِ سَيِّئَةً، فَقَدْ قَالَ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي سُورَةِ النَّسَاءِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَضْعَفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠].

وقال في سُورَةِ الْأَنْعَامِ: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠].

وقال في سُورَةِ الْقَصَصِ: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [القصص: ٨٤].

فصلاة الجمعة بعشرٍ، وصلاتك بعشرٍ، وصدقتك بعشرٍ، وإحسانك بعشرٍ، وأيُّ نعمةٍ أفضلٌ من هذه النعمة؟!

وأيضاً من مظاهر هذا الفضل والإحسان الذي يستوجبُ الشكران على الدوام ما قد جاء عند الطبراني في مُعْجَمِهِ الْكَبِيرِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي أُمَامَةَ - رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ - أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ صَاحِبَ الشَّمَالِ - الَّذِي يَكْتُبُ السَّيِّئَاتِ - لَيَرْفَعُ الْقَلَمَ سِتِّ سَاعَاتٍ عَنِ الْعَبْدِ الْمُسْلِمِ الْمُخْطِئِ أَوْ الْمُسِيءِ، فَإِنْ نَدِمَ وَاسْتَغْفَرَ اللَّهَ مِنْهَا أَلْقَاهَا، وَإِلَّا كُتِبَتْ وَاحِدَةً»^(١) أَيُّ فَضْلٍ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ!

النَّعْمَةُ السَّادِسَةُ: أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَبْلَ تَوْبَةِ الْعَاصِينَ، وَيَسَّرَ الطَّرِيقَ إِلَيْهَا، فَجَعَلَهَا مِنْ طَرِيقٍ وَاحِدٍ، وَهُوَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، فَالْعُصَاةُ وَالْمُنَافِقُونَ وَالْكَافِرُونَ وَالْمُشْرِكُونَ إِذَا تَابُوا إِلَى اللَّهِ تَابَ عَلَيْهِمْ، قَالَ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ: ﴿إِنَّ الْمُنْفِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [١٤٥] إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٨/ ١٨٥، رقم ٧٧٦٥)، والبيهقي في الشعب رقم (٦٦٥٠).

بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ۗ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ [النساء: ١٤٥-١٤٦] أي: أن المنافقين الذين هم في الدرك الأسفل من النار إذا تابوا كانوا مع المؤمنين، فهل هناك أعظم من هذه النعمة؟!

والمحاربون المفسدون الساعون في الأرض فسادًا جزأؤهم في الدنيا خزيًا، ولهم في الآخرة عذاب عظيم، لكنهم إذا تابوا قبل الله توبتهم، قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَنْ تَقْدَرُوا عَلَيْهِمْ ۗ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾ [المائدة: ٣٣-٣٤].

وأعظم من ذلك أن الله سبحانه وتعالى لا يكتفي بمغفرة الذنوب لهم، بل يبذل سيئاتهم حسنات، وليس هناك أعظم من هذا النعيم أن تبدل السيئات حسنات، قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۗ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضْعَفُ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدُ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ [الفرقان: ٦٨-٧٠].

إنها نعمٌ متجددةٌ تحتاج منا أن نتذكرها على الدوام.



(١٠)

ولا تَرْتَدُّوا على أَدْبَارِكُمْ

• • k • •

قال الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ [المائدة: ٢١]
 وعلى مدى ثلاثة عقودٍ تقريباً رأينا إخوةً من الشبابِ والرِّجالِ ممَّن كانوا يسيرون في طريق الهداية، ويتلبَّسون بلباسِ الدِّين، منهم من يتراجع، ومنهم من يتكسُّ، ومنهم من يضعف، بعد أن كنَّا نراهم يتقدَّمون النَّاسَ، بعضهم كان إماماً، والآخر مؤدِّناً، والثالث في حلقات تحفيظ القرآن مُدرِّساً، فإذا بهم يتراجعون ويتكسُّون، وتُحصَّل عندهم هذه الرَّدَّة؛ نعم هم قلةٌ ليسوا بالكثرة، وهم أفرادٌ وليست بظاهرة، لكن هذا الأمر يُؤسِّفُ الناصِحَ المُشفِّقَ، ويُردِّدُ في نفسه: لماذا يتراجعون؟

قال الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عن الكافرين: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يَقْبَلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢١٧].

وهذا التراجع لأسبابٍ لا بُدَّ أن نعلِّمها؛ حتى لا تقع فيما وقع فيه غيرنا، والسعيدُ من اتَّعظَ بغيره، من هذه الأسباب:

أولاً: استعجالهم واندفاعهم على غير بيِّنةٍ وهُدًى، وعلى غير علمٍ ولا رشادٍ، وقد أخذ يوماً طائفةً من المؤمنين في مكَّة مع النبي ﷺ الحماؤس والاندفاعُ والعاطفةُ،

فقالوا للنبي ﷺ: نريد أن نُقاتِلَ، ونواجهه، ونفعل ونفعل، والنبي ﷺ يهدئ من روعهم ويقول: ليس الآن، عليكم الآن بالصلاة والزكاة، عليكم بهذه المثبتات، حتى أنزل المولى - تعالى - فيهم آيات، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُوا أَيَدِيكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْفِنَالُ إِذَا فَوْقُ مِنْهُمْ يُخَشُونَ النَّاسَ كَخَشِيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشِيَةً ۗ وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كُتِبَ عَلَيْنَا الْفِنَالُ لَوْلَا أَخَّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَنِ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ۗ﴾ [النساء: ٧٧] (١).

هم كانوا قبل سنوات تدفعهم العاطفة أن يقولوا: نريد أن نُقاتِلَ، فلما كتبت عليهم القتال إذا هم أعجز الناس، وأشد الناس خشية لهؤلاء من الله تبارك وتعالى. إذا: القاعدة تقول: إنَّ أشدَّ النَّاسِ حِمَاةً واندفاعاً وتهوراً هم أشدُّ النَّاسِ جَزَعًا وانهيارًا وهزيمةً عندما يجذُّ الجِدُّ وتقع الواقعة. فالدين لا يؤخذ بالعاطفة، ومن دخل عالم التدوين عاطفة خرج منه عاطفة، وإنما لا بد أن يكون عن علم وبيئة وهدي ورشاد.

ثانيًا: أنهم لما اهتدوا عاشوا في أوساط وبيئات ضعيفة الهمم، هابطة الرؤى، زائفة التدوين، قال الحق - سبحانه - لِنَبِيِّهِ ﷺ في سورة الكهف: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ۗ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۗ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ۗ﴾ [الكهف: ٢٨].

فلا بد أن تتوفر في البيئة التي تعيش فيها هذه العناصر الثلاثة: فاعلية

(١) انظر: تفسير الطبري (٧/ ٢٣٠)، تفسير ابن كثير (٢/ ٣٥٩).

واستمرارية وإخلاص، فاعليّة: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ واستمرازي: ﴿بِالْغَدْوَةِ وَالْعِسَى﴾ وإخلاص: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾.

ثالثاً: عُرُورُهُمْ وَكِبْرُهُمْ وَإِعْجَابُهُمْ بِذَوَاتِهِمْ، فبعض هؤلاء الذين تراجعوا إنَّما تراجعوا بسبب أنَّهم أصابهم داءُ العُجبِ وداءُ الغرورِ، وإنَّك تَسْتَعْرِبُ مِنْ إِنْسَانٍ هَدَاهُ اللهُ -تعالى- إِلَى دِينِهِ كَيْفَ يَتَكَبَّرُ عَلَى النَّاسِ، وَيَرَاهُمْ أَقْلَ مِنْهُ، وَيَتَرَفَّعُ عَلَيْهِمْ، وَالَّذِي يَتَرَفَّعُ بغيرِ حَقٍّ يَسْقُطُ وَيُضْرَفُ عَنِ الْحَقِّ، قَالَ اللهُ سُبحَانَهُ وَتَعَالَى فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ: ﴿سَاصِرِفٌ عَنَّا إِنِّي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كَلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا^١ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٤٦﴾

[الأعراف: ١٤٦].

هم كانوا في هداية، وكانوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ، لَكِنْ أَصَابَهُمُ الْغُرُورُ، وَإِنَّا بِالْفِعْلِ نَسْتَعْرِبُ حِينَ نَرَى شَخْصًا مُتَدَبِّئًا يَرَى النَّاسَ لَا شَيْءَ، يَدْخُلُ الْمَسْجِدَ فَلَا يُسَلِّمُ عَلَى أَحَدٍ، أَوْ يَمْشِي فِي الشَّارِعِ فَلَا يُسَلِّمُ عَلَى أَحَدٍ؛ لِأَنَّهُ يَرَى أَنَّهُ أَفْضَلُ مِنَ النَّاسِ.

وقال اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَيضاً: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ [الأعراف: ١٤٧].

وفي سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ كِبْرٍ»^(١).

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانها، رقم (٩١)، وأبو داود: كتاب اللباس، باب ما جاء في الكبر، رقم (٤٠٩١)، من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وقال عيسى **عَلَيْهِ السَّلَامُ**: إِنَّ الزَّرْعَ يَنْبُتُ فِي السَّهْلِ، وَلَا يَنْبُتُ عَلَى الصَّخْرِ، كَذَلِكَ الْحِكْمَةُ تَعْمَلُ فِي قَلْبِ الْمُتَوَاضِعِ وَلَا تَعْمَلُ فِي قَلْبِ الْمُتَكَبِّرِ، أَلَا تَرَوْنَ أَنَّ مَنْ شَمَخَ بِرَأْسِهِ إِلَى السَّقْفِ شَجَّهُ وَمَنْ طَاطَأَ أَظْلَهُ وَأَكْرَمَهُ^(١).

وهذا عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - وهو الخليفة الرَّاشِدُ الخَامِسُ الْمُسَدَّدُ الْمَوْفِقُ الصَّالِحُ، بَلَغَهُ أَنَّ ابْنَأَ لَهُ اتَّخَذَ خَاتَمًا بِأَلْفِ دِرْهَمٍ؛ فَكَتَبَ لَهُ رِسَالَةً قَالَ: إِذَا أَتَاكَ كِتَابِي هَذَا فَبِعِ الْخَاتَمَ، وَأَشْبِعْ بِهِ أَلْفَ بَطْنٍ، وَاتَّخِذْ خَاتَمًا بِدِرْهَمَيْنِ، وَاجْعَلْ فَصَّهُ حديدًا صِينِيًّا، وَاكْتُبْ عَلَيْهِ: رَحِمَ اللَّهُ أَمْرًا عَرَفَ قَدْرَ نَفْسِهِ^(٢).

هكذا يَفْعَلُ مَنْ أَرَادَ أَنْ يُرَبِّي نَفْسَهُ.

قال يَحْيَى بْنُ مَعِينٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى -: مَا رَأَيْتُ مِثْلَ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - صَحْبَانَهُ خَمْسِينَ سَنَةً مَا افْتَخَرَ عَلَيْنَا بِشَيْءٍ مِمَّا كَانَ فِيهِ مِنَ الصَّلَاحِ وَالْخَيْرِ^(٣). وهو أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ عَالِمُ الْأُمَّةِ.

رابعًا: غُلُوهُمُ وَتَشَدُّدُهُمْ فِي الدِّينِ، فَإِنَّ الْغُلُوَّ وَالتَّشَدُّدَ فِي الدِّينِ سَبَبٌ لِلانْتِكَاسِ وَالتَّرَاجُعِ، وَقَدْ جَاءَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ هَذَا الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ؛ فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا، وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ»

(١) ذكره الغزالي في إحياء علوم الدين (٣/ ٣٤٥).

(٢) ذكره ابن القيم في مدارج السالكين (٢/ ٣١٦).

(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٩/ ١٨١)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٥/ ٢٨١)، وابن الجوزي

في المناقب (ص: ٣٦٦).

مِنَ الدُّجَةِ»^(١) فالذي يُشَدُّدُ على نفسه في هذا الدين مَغْلُوبٌ.

وفي سنن ابن ماجه من حديث ابن عباس قال رسول الله ﷺ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِيَّاكُمْ وَالْعُلُوَّ فِي الدِّينِ؛ فَإِنَّهُ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ الْعُلُوَّ فِي الدِّينِ»^(٢) قال هذا حينما رأى صحابته يرمون بحجارة في أيام الحج كبيرة شيئاً ما، فرأى هذا من التشدد، ورأى أن هذا سببٌ للهلاك.

خامساً: أنهم جهلوا حقيقة هذه النفوس، فإن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى جَبَلَ هذه النفوس على حالٍ مِنَ التَّقَلُّبِ، قال رسول الله ﷺ كما جاء في مُسْنَدِ أحمد: «إِنَّ لِكُلِّ عَابِدٍ شِرَّةً» أي: نشاطاً وحماساً واندفاعاً «وَلِكُلِّ شِرَّةٍ فِتْرَةٌ» وجزماً، بعد الحماس يصير فتورٌ، هذا طبيعيٌّ «فِيمَا إِلَى سُنَّةٍ وَإِمَّا إِلَى بِدْعَةٍ؛ فَمَنْ كَانَتْ فِتْرَتُهُ إِلَى سُنَّةٍ فَقَدْ اهْتَدَى، وَمَنْ كَانَتْ فِتْرَتُهُ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ فَقَدْ هَلَكَ»^(٣).

هكذا النَّفْسُ تَنْشَطُ أحياناً وتَفُتِّرُ أحياناً، فحينما تُوجَدُ في مثل هذه البيئات؛ بيئات الذُّكْرِ، بيئات تَنْزَلُ فيها الخيرات والرحمات، بيئات فيها هذه النَّفْحَاتُ الرَّبَّانِيَّةُ تَرْتَفِعُ وتَنْشَطُ، فإذا عَفَلَتْ فِتْرَتُ، وهذا الفُتُورُ له مُعَدَّلٌ وحدُّ أدنى، فقد قال ﷺ: «فَمَنْ كَانَتْ فِتْرَتُهُ إِلَى سُنَّةٍ فَقَدْ اهْتَدَى».

إذاً: لهذه الأسباب ولغيرها تراجع أولئك الذين كانوا على طريق الهداية، وقد ذاقوا طعم الإيوان، ولكنهم لم يَتَّبِعُوا هذه النفس التي من طبيعتها التَّقَلُّبُ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيوان، باب الدين يسر، رقم (٣٩).

(٢) أخرجه أحمد (١/٢١٥)، والنسائي: كتاب مناسك الحج، باب التقاط الحصى، رقم (٣٠٥٧)، وابن ماجه: كتاب المناسك، باب قدر حصى الرمي، رقم (٣٠٢٩).

(٣) أخرجه أحمد (٢/١٥٨)، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

هذه جملة من الأسباب لتراجع أولئك الأضحاب، الذين أسأل المولى تبارك وتعالى
لي ولهم الثبات والسداد والرشد.

•• k ••



(١١)

وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ

• • k • •

ما مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا وَبَعَثَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِيهَا نَذِيرًا، وهذه الأُمَّةُ أَرْسَلَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِيهَا نَبِيًّا مُحَمَّدًا ﷺ نَذِيرًا؛ فَقَالَ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَاٍ مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَنْبِئُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾﴾ [الأحقاف: ٩].

وقال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَنْفَكُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جَنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾﴾

[الأعراف: ١٨٤].

وقال سبحانه: ﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴿٨٩﴾﴾ [الحجر: ٨٩].

بعثه الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى نَذِيرًا لِلأُمَّةِ، فكانَ مِنْ جُمْلَةِ ما أَنْذَرَ أُمَّتَهُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِجَمِيعِ أَسْمَائِهِ، وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ ﷺ أَنْذَرَ أُمَّتَهُ يَوْمَ الْحَسْرَةِ.

فَمِنْ أَسْمَاءِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ: يَوْمُ الْحَسْرَةِ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [مريم: ٣٩].

فإنَّ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَشَاهِدَ لِلْحَسْرَاتِ، نَسَأَلَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنْ يَقِينَا حَسْرَاتِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ؛ لَذَا نَتَأَمَّلُ قَوْلَ الْحَقِّ - سُبْحَانَهُ -: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾ [مريم: ٣٩] لِنَذْكُرَ بَعْضَ مَشَاهِدِ الْحَسْرَاتِ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

ففي يَوْمِ الْقِيَامَةِ تَكُونُ هُنَاكَ مَشَاهِدُ لِلْحَسْرَاتِ؛ حَيْثُ يَتَحَسَّرُ الْمُقْصِرُونَ؛ لَذَا سُمِّيَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ بِيَوْمِ الْحَسْرَةِ.

المشهد الأول من مشاهد الحسرات في يوم القيامة: مشهد المرائين الذين عملوا الغير الله.

هم صاموا، وصلوا، وآتوا الزكاة، وعملوا الصالحات، لكنهم لم يعملوا ذلك لله، وإنما عملوه للدنيا، فيأتون يوم القيامة فلا يجدون شيئاً، فيتحسرون على تلك الأعمال فيصابون بالحسرة، قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ أي: مَنْ كَانَ يُرِيدُ بِصَلَاتِهِ، وَبِرَكَاتِهِ، وَبِإِحْسَانِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿نُوفٍ إِلَيْهِمْ أَعْمَلْتُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ [هود: ١٥] سيمدحون ويثنى عليهم، ويحصلون الجاه والمنزلة في الدنيا؛ لأنهم عملوا من أجل الدنيا، ثم يقول الحق: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلُّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٦].

هم عملوا في الدنيا لكنه حبط، فيتحسرون. قال رسول الله ﷺ كما جاء في مسند أحمد: «إِنَّ أَخَوْفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ: الشُّرْكُ الْأَصْغَرُ»، قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: «الرياء».

يقول الله عز وجل لهم يوم القيامة إذا جُوزي الناس بأعمالهم: «أذْهَبُوا إِلَى الَّذِينَ كُنْتُمْ تُرَاوُونَ فِي الدُّنْيَا، فَاَنْظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ عِنْدَهُمْ جَزَاءً؟»^(١) أي: الذين كنتم تصلون من أجله، أو كنتم تحسنون خطبتكم من أجله، أو كنتم تؤذنون من أجله، اذهبوا إليه، فانظروا هل تجدون عندهم من جزاء؛ فيصابون بالحسرة. فهذا أحد المشاهد.

(١) أخرجه أحمد (٤٢٨/٥)، من حديث محمود بن لبيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

المشهد الثاني: مشهد من فرط في العمل الصالح في الدنيا.

يَتَحَسَّرُ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَمَا مِنْ كُنْتَ مُفْرَطًا فِي الصَّلَاةِ، أَوْ فِي الزَّكَاةِ، أَوْ فِي الصِّيَامِ، أَوْ كُنْتَ مُفْرَطًا فِي أَحَدِ الطَّاعَاتِ، قَدْ قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ: ﴿قَدْ حَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ بَعْتَهُ قَالُوا يَحْسَرُنَا عَلَى مَا فَرَطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ ﴿٣١﴾﴾ [الأنعام: ٣١].

وَكَمْ نَعْرِفُ مِنْ شَبَابٍ مَاتَ وَكَانَ لَا يُصَلِّي، وَكَانَ يَقُولُ فِي نَفْسِهِ: إِذَا كَبُرْتُ سَأُصَلِّي، أَوْ إِذَا أُنْهِيتُ الْجَامِعَةَ وَتَزَوَّجْتُ سَأُصَلِّي، وَسَأَلْتَرُمُ بِالصَّلَاةِ فَمَاتَ، فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَقُولُ: يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَطْتُ فِي جَنبِ اللَّهِ، كَمَا قَالَ الْحَقُّ -سُبْحَانَهُ-: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ الْعَذَابُ بِغَتَّةٍ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [الزمر: ٥٥، ٥٦]. يَتَحَسَّرُ عَلَى هَذَا الْيَوْمِ.

جَاءَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لَا يَدْخُلُ أَحَدُ الْجَنَّةِ إِلَّا أُرِيَ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ لَوْ أَسَاءَ لِيَزْدَادَ شُكْرًا، وَلَا يَدْخُلُ أَحَدُ النَّارِ إِلَّا أُرِيَ مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ لَوْ أَحْسَنَ لِيَكُونَ عَلَيْهِ حَسْرَةً»^(١).

فَالْبَدَارَ الْبَدَارَ، وَالْمَقْصُرُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ عَلَيْهِ أَنْ يُبَادِرَ.

المشهد الثالث: أنه يتحسر على صحبة السوء.

فَإِنَّهُ إِذَا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَرَأَى أَصْحَابَ السُّوءِ إِلَى أَيْنَ أَخَذُوهُ يُصَابُ بِالْحَسْرَةِ،

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار، رقم (٦٥٦٩)، من حديث أبي هريرة

شأبًا كان أو كبيرًا، ذكَّرًا أو أنثى، قَالَ الْحَقُّ -سبحانه-: ﴿ وَيَوْمَ يَعِضُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ۗ ﴾ (٢٧) يَتَوَلَّتْ لَيْتَنِي لِمَ اتَّخَذْتُ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ [الفرقان: ٢٧، ٢٨] يقول: يا لَيْتَنِي ما اتَّخَذْتُ فُلَانًا -يُسَمِّيهِ بِاسْمِهِ- هذا فُلَانٌ ضَيَّعَ عَلَيَّ دِينِي، لم يَتْرُكْنِي أَصْلِي، ولم يَتْرُكْنِي أَبْرُّ بوالِدِي، ولم يَتْرُكْنِي أَفْعَلُ الطَّاعَاتِ، وجَعَلَنِي أَزْتَكِبُ المَحْرَمَاتِ، وَأَشْرَبُ الحَمْرَ، وَأَشْرَبُ الدُّخَانَ، وَأَفْعَلُ وَأَفْعَلُ ﴿لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي ۗ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَدُولًا﴾ ﴿٢٩﴾ [الفرقان: ٢٩].

قال رسول الله ﷺ كما جاء في حديث أبي هريرة عند أحمد: «مَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فَتَفَرَّقُوا عَنْ غَيْرِ ذِكْرِ اللَّهِ إِلَّا كَأَنَّمَا تَفَرَّقُوا عَنْ جِيفَةِ جِمَارٍ، وَكَانَ ذَلِكَ الْمَجْلِسَ عَلَيْهِمْ حَسْرَةٌ»^(١).

فليُرجِعْ كُلُّ مَنْا شَرِيطَ ذِكْرِيَاتِهِ... أين قَضَى أوقَاتَهُ؟ لآئَهُ سَيَتَحَسَّرُ عَلَيْهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

المشهد الرابع: مشهد ضياع الحسنات.

قد كَانَ فِي الدُّنْيَا يَجْمَعُ الحَسَنَاتِ لِلَّهِ، لم يَكُنْ مُرَائِيًا، بل كَانَ يُصَلِّي لِلَّهِ، وَيَصُومُ لِلَّهِ، وَيُزَكِّي لِلَّهِ، وَلَكِنْ مَثَلُهُ كَمَثَلِ الَّذِي يَجْمَعُ مَاءً عَذْبًا فِي إِنَاءٍ مُخَرَّقٍ فَلَا يَمْتَلِئُ الْإِنَاءُ، فَقَدْ جَاءَ فِي سُنَنِ التِّرْمِذِيِّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «أَتَدْرُونَ مِنَ الْمُنْفِلِسِ؟» قالوا: الْمُنْفِلِسُ فِينَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْمُنْفِلِسُ مِنْ أُمَّتِي مَنْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاتِهِ وَصِيَامِهِ وَزَكَاتِهِ» هَذَا فِي كِفَّةٍ، وَأَنْظُرُ

(١) أخرجه أحمد (٢/٣٨٩).

إلى الخروقِ الآنَ «وَيَأْتِي وَقَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيَأْخُذُ هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ مِنَ الْخَطَايَا، أَخَذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ»^(١).

نعم، فهو عنده صلاةٌ وزكاةٌ وصيامٌ، لكنه يشتم، ويقذف، ويأكل أموال الناسِ بالباطلِ، ويؤي على أموالِ المسلمينَ فعبها عباً وأكلها، اغترَّ بقوتهِ وسلطانه؛ فظلمَ المسكينَ الذي لا حولَ له ولا قوة، اغترَّ بذكائه وسداجةٍ من معه؛ فأكلَ ماله واستدرجَه! فضاعتِ الحسناتُ، وضاعتِ صلاةُ التراويحِ، وضاعَ قيامُ الليلِ؛ لأنَّ هؤلاءٍ سيأخذونَ منه يومَ القيامةِ ليتحسَّروا.

المشهدُ الخامسُ: حينما يُعابنُ أهلُ النارِ النَّارَ.

قال الحقُّ سبحانه وتعالى: ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ۝١١ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ۝١٢ وَجِئْنَا بِبُحْبُوحٍ ۝١٣ يَوْمَئِذٍ يَبْسُوفُ السُّجُودَ ۝١٤ وَجِئْنَا بِسَحَابٍ مَدِينٍ ۝١٥﴾ [الفجر: ٢١-٢٤] أي: يا ليتني قدّمتُ لحياتي ما يسرُّ نظري في هذا الموقفِ العظيم. فقد رأى مشهدَ النَّارِ حقيقةً.

لذا قال الحقُّ سبحانه وتعالى: ﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ۝٧ تَكَادُ تَمَيَّرُ مِنَ الْغَيْظِ ۝٨ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝٨﴾ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٨١)، والترمذي: كتاب صفة القيامة والرقائق، باب ما جاء في شأن الحساب والقصاص، رقم (٢٤١٨)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَأَعْرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحِّقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١١﴾ [المك: ٧-١١].

وقد جاء في صحيح مسلم أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «يُؤْتَى بِالْمَوْتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُ كَبْشٌ أَمْلَحٌ، فَيُوقَفُ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ فَيُقَالُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ؛ فَيَشْرَبُونَ وَيَنْظُرُونَ، فَيُقَالُ لَهُمْ: هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ قَالَ: فَيَقُولُونَ نَعَمْ، فَيُقَالُ: يَا أَهْلَ النَّارِ هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ قَالَ: فَيَشْرَبُونَ وَيَنْظُرُونَ وَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هَذَا الْمَوْتُ. قَالَ: فَيُؤْمَرُ بِهِ فَيُدْبَحُ، فَيُقَالُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ»، ثم قرأ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [مريم: ٣٩] (١).

وهذا المشهد سَمَّاهُ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ الْحَسْرَةِ، حينما يُعَايِنُ أَهْلَ الْجَنَّةِ الْمَوْتَ أَنَّهُ مَاتَ، وَيُعَايِنُ أَهْلَ النَّارِ الْمَوْتَ أَنَّهُ مَاتَ، فَيَتَحَسَّرُونَ عَلَى هَذَا؛ فَيَقُولُ: ﴿وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [مريم: ٣٩].

•• k ••

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾، رقم (٤٧٣٠)، ومسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء، رقم (٢٨٤٩)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.



(١٢)

وَعَجَلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى

• • k • •

نَقِفُ عند هذه الآية تَتَمَلُّ فيها رُوحَ المَبَادِرَةِ إلى الخيراتِ، فهي خُلِقَ الأنبياءِ، والأتقياءِ، والطَّامِحِينَ، والصَّالِحِينَ، والعاملِينَ، والمُخْلِصِينَ، والمُبَادِرُ إلى الخيراتِ هو في حقيقته مُبَادِرٌ إلى رَبِّ البَرِيَّاتِ القَائِلِ في كتابه الكريمِ مُبَيِّنًا ما قاله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَعَجَلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾ [طه: ٨٤].

وهو مُبَادِرٌ لِجَنَّةِ عَرْضِهَا الأَرْضُ والسَّمَاوَاتُ، كما قَالَ الحقُّ -سبحانهُ-: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

وهو مُبَادِرٌ لِأَعْلَى الدَّرَجَاتِ، كما قَالَ الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلٍ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدِ وَقَتْلِهِمْ وَكُلًّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحَسَنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [الحديد: ١٠].

وهو مُبَادِرٌ لِلاتِّصَافِ بِأَجْمَلِ الصِّفَاتِ، صفاتِ المُؤْمِنِينَ الَّذِينَ قَالَ اللهُ فِيهِمْ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُّشْفِقُونَ﴾ [٥٧] وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ [٥٨] وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ [٥٩] وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ [٦٠] أُولَئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ [٦١] [المؤمنون ٥٧-٦١].

وهو مُبَادِرٌ لِلْفَوْزِ بِأَصْدَقِ الدَّعَوَاتِ المَبَارَكَاتِ، فقد دَعَا النبيُّ ﷺ لِلْمُبَادِرِينَ

المبكرين كما جاء في سنن أبي داود، فقال: «اللَّهُمَّ بَارِكْ لِأُمَّتِي فِي بُكُورِهَا»^(١).

فعلينا بهذا الخلق الرفيع -خلق المبادرة- ونحن نرى هذه الأيام كيف تنقضي بسرعة، وهذه الأزمنة كيف تنقضي، وهذا الموت يلقطنا لقطاً فيلحق آخرنا بأولنا، نرى في كل يوم ميّتا نُشيعُهُ: صديقاً أو قريباً أو حبيباً، كل ذلك يدعُو إلى المبادرة، فكم نتألم ونحن نرى مَنْ هو نائمٌ، وأصوات الخطباء تصل إليه على سريره لم يبادر إلى صلاة الجمعة! التي مَنْ تركها ثلاث جمع طبع الله على قلبه بطابع النفاق.

وكم نتألم ونحن نرى الشاب القوي تمر عليه الأيام لا يركع لله تبارك وتعالى ركعة! وكم نتألم ونحن نرى هذه المرأة تمر عليها السنون وهي لا تزال تُجاهر الله بمعصيتها بما تُبديه من مفاتيها تاركةً الحجاب! وكم نتألم ونحن نرى هذا الذي يجمع المال ويكيزه فتمر عليه السنون ولا يُخرج زكاةً ماله! قد اغتر بدنانير قليلة يُعطيها عند باب المسجد، وترك زكاة الله التي أوجبها عليه، مُتغافلاً أو غافلاً أنه سيقف يوماً بين يدي الله يسأله عن هذا الواجب العظيم لم تركه؟

وكم نتألم ونحن نرى هذا المتقاعد عن التوبة! فهو لا يزال يُؤخر التوبة ويقول: غداً أتوب أو بعد غدٍ، وكُلُّنا يعلمُ حديث النبي ﷺ حينما قال كما جاء في صحيح مسلم: «بادرُوا بالأعمال» أي: الأعمال الصالحة «فإننا» لا يدري الإنسان ماذا يعرض له من الأعمال غداً، قد تكون هذه الفتنة في نفسه، أو في ولده، أو في أهله،

(١) أخرجه أحمد (٤١٧/٣)، وأبو داود: كتاب الجهاد، باب في الابتكار في السفر، رقم (٢٦٠٦)، والترمذي: كتاب البيوع، باب ما جاء في التبكير بالتجارة، رقم (١٢١٢)، وابن ماجه: كتاب التجارات، باب ما يرجي من البركة في البكور، رقم (٢٢٣٦)، من حديث صخر الغامدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أو في مجتمعه تصدّه عن الطاعة والعبادة، كما نرى في البلاد من حولن، **«كقطع الليل المظلم، يُصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً، أو يمسي مؤمناً ويصبح كافراً، يبيع دينه بعرض من الدنيا»**^(١).

ولا عذر للمتأخرين بعد علمهم بحديث النبي ﷺ الذي رواه الطبراني في معجمه الكبير من حديث أبي ذر - رضي الله تعالى عنه - قال: «قلت: يا رسول الله، ماذا يُنجي العبد من النار؟ قال: **«الإيمان بالله»**، قلت: مع الإيثار عمل؟ قال: **«يرضخ بما رزقه الله»** أي: يتصدق، قلت: يا رسول الله، أرايت إن كان فقيراً لا يجد ما يرضخ به؟ قال: **«يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر»**، قلت: يا رسول الله، أرايت إن كان عيباً لا يستطيع أن يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر، قال: **«يصنع لأخرق»** أي: يساعده الناس الذين لا يستطيعون خدمة أنفسهم، قال أبو ذر قلت: يا رسول الله، أرايت إن كان أخرق لا يستطيع أن يصنع شيئاً، قال: **«يعين مغلوباً»**، قال قلت: يا رسول الله، أرايت إن كان ضعيفاً لا يستطيع أن يعين مظلوماً، قال: **«يا أبا ذر ما تريد أن تترك في صاحبك من شيء! يمسك الأذى عن الناس»**، قال قلت: يا رسول الله، إذا فعل هذا دخل الجنة؟ قال ﷺ: **«ما من مسلم يفعل خصلةً من هؤلاء إلا أخذت بيده حتى تدخله الجنة»**^(٢) ومع هذا هناك من لم يبادر حتى يمسك الأذى عن الناس.

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب الحث على المبادرة بالأعمال قبل تظاهر الفتن، رقم (١١٨)،

من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه رقم (٣٧٣)، والطبراني في المعجم الكبير (١٥٦/٢)، رقم

(١٦٥٠)، والحاكم في المستدرک (٦٣/١).

وهذا ثُمَامَةُ بْنُ أَثَالٍ سَيِّدُ أَهْلِ الْيَمَامَةِ لَهُ قِصَّةٌ فِي إِسْلَامِهِ يُمْكِنُ الرَّجُوعُ إِلَيْهَا فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ، مِنْ ذَلِكَ: أَنَّهُ لَمَّا أَرَادَ أَنْ يُسَلِّمَ بَعْدَ أَنْ أُسِرَ وَقَفَ بَيْنَ يَدَيْ النَّبِيِّ ﷺ لِيُعْطِينَ قَاعِدَةً، تَقُولُ هَذِهِ الْقَاعِدَةُ: لَا تُبَرِّرُ تَرَاحِيكَ بِسُوءِ مَا ضِيكَ، فَبَعْضُ النَّاسِ يُبَرِّرُ هَذَا التَّرَاحِي الَّذِي فِيهِ بِسُوءِ مَا قَدَّمَ، يَقُولُ: أَنَا فَعَلْتُ، وَأَنَا فَعَلْتُ، وَأَنَا فَعَلْتُ، فَذَلِكَ لَا يَصْلُحُ، انظُرْ مَاذَا فَعَلَ ثُمَامَةُ -رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ- لَمَّا أَسْلَمَ، وَقَفَ بَيْنَ يَدَيْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، وَاللَّهِ مَا كَانَ عَلَى الْأَرْضِ وَجْهًا أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ وَجْهِكَ؛ فَقَدْ أَصْبَحَ وَجْهَكَ أَحَبَّ الْوُجُوهِ إِلَيَّ، وَاللَّهِ مَا كَانَ مِنْ دِينٍ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ دِينِكَ، فَأَصْبَحَ دِينُكَ أَحَبَّ الدِّينِ إِلَيَّ، وَاللَّهِ مَا كَانَ مِنْ بَلَدٍ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ بَلَدِكَ، فَأَصْبَحَ بَلَدُكَ أَحَبَّ الْبِلَادِ إِلَيَّ.

ثُمَّ مَضَى بَعْدَ أَنْ اسْتَأْذَنَ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ وَدَخَلَ مَكَّةَ مُعْتَمِرًا، فَقَالَ لَهُ قَائِلٌ: صَبَوْتَ! قَالَ: لَا وَلَكِنِّي أَسْلَمْتُ وَدَخَلْتُ فِي دِينِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَكَانَ سَيِّدَ الْيَمَامَةِ، وَكَانَتِ الْيَمَامَةُ هِيَ الْمَغْذِي وَهِيَ الشَّرِيَانُ لَطْعَامِ مَكَّةَ وَأَهْلِ مَكَّةَ، ثُمَّ قَالَ: وَاللَّهِ لَا يَأْتِيكُمْ مِنَ الْيَمَامَةِ حَبَّةٌ حِنْطَةٍ حَتَّى يَأْذَنَ فِيهَا النَّبِيُّ ﷺ^(١).

هَكَذَا يُبَادِرُ الْإِنْسَانُ فِي خِدْمَةِ دِينِهِ، وَعَشِيرَتِهِ، وَبِلَادِهِ، وَأُسْرَتِهِ، يُبَادِرُ وَلَا يَتَرَاخَى، وَكَمْ هُوَ جَمِيلٌ مَا قَالَهُ السَّعْدِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- حِينَمَا قَالَ: وَمَنْ سَبَقَ فِي الدُّنْيَا إِلَى الْخَيْرَاتِ، فَهُوَ السَّابِقُ فِي الْآخِرَةِ إِلَى الْجَنَّاتِ!

(١) أخرج البخاري: كتاب المغازي، باب وفد بني حنيفة وحديث ثمامة بن أثال، رقم (٤٣٧٢)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب ربط الأسير وحبسه، رقم (١٧٦٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَصَدَقَ الْقَائِلُ حِينَمَا قَالَ:

إِذَا هَبَّتْ رِيَّاحُكَ فَاعْتَنِمَهَا فَإِنَّ لِكُلِّ خَافِقَةٍ سُكُونُ
وَلَا تَغْفُلْ عَنِ الْإِحْسَانِ سَاعَةً فَمَا تَدْرِي السُّكُونُ مَتَى يَكُونُ
وَإِنْ دَرَّتْ نِيَّاقُكَ فَاحْتَلِبْهَا فَمَا تَدْرِي الْفَصِيلُ لِمَنْ يَكُونُ^(١)

وكما أنَّ المُسارعةَ إلى الخيراتِ أمرٌ محمودٌ، فإنَّ هناك مَنْ يُبادِرُ إلى الكُفْرِ والنِّفاقِ فلا نُغَلِبُ مِنْ قَبْلِ أَوْلِيائِكَ، قال الحقُّ -سبحانه-: ﴿وَلَا يَحْزَنكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ﴾ [آل عمران: ١٧٦] لكنهم لا يُسارعونَ إلى المساجِدِ، ولا إلى الطاعاتِ، ولا إلى التَّوْبَةِ ﴿فِي الْكُفْرِ﴾ [آل عمران: ١٧٦] هم يُبادرونَ لكنَّ إلى الكُفْرِ ﴿إِنَّهُمْ لَنْ يَصْرُوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ ۗ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [١٧٦]. [آل عمران: ١٧٦].

وقال -سبحانه- أيضًا: ﴿يَتَأْتِيهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزَنكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ﴾ [المائدة: ٤١].

فصنّفُ يُسارعُ إلى الكُفْرِ، وصنّفُ يُسارعُ إلى الارتقاءِ في أحضانِ الكُفْرِ، كما قال اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ تَدْمِينًا﴾ [المائدة: ٥٢].

(١) الأبيات ذكرها الماوردي في أدب الدنيا والدين (ص: ٢٠٣)، والقرطبي في التفسير (٥/ ٣٨٤)، غير منسوبة.

وصنف ثالثٌ يُسارعُ إلى الذُّنوبِ والمعاصي، أنت تُحاولُ أن تُخففَ من سُرْعتهِ وهو يُسارعُ، أنت تُحاولُ أن تأمرَهُ بالمَعْرُوفِ وتنهَاهُ عن المُنْكَرِ لِيَتَوَقَّفَ عن هذه المُسَارَعَةِ وهو يُسارعُ إلى الكُفْرِ، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَتَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسْرِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتِ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعمَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [المائدة: ٦٢].

إِذَا: فنحنُ مُطالبون أن نُسارعَ في الخيراتِ، وَأَلَّا نَعْتَرَّ بأولئك الذين يُسارعون إلى السَّيِّئَاتِ، فإنَّ الراشدَ والمُوفِّقَ هو مَنْ كان في الآخرةِ مِنَ السَّابِقِينَ.

•• k ••

K

K

(١٣)

وصايا في زمن الانتصار

• • K • •

والأُمَّةُ تعيشُ في مثلِ هذا الظُّرفِ، وتمتُّ في هذا الزَّمنِ بما ترى ونَسْمَعُ، كان لزامًا علينا أن نُوجِّهَ بعضَ الوصايا، وهي وصايا تتكرَّرُ علينا، لكنَّها في مثلِ هذه الأزمنة، ومثلِ هذه الأيامِ تكونُ أوجِبَ:

الوصية الأولى: علينا جميعًا في مثلِ هذه الظُّروفِ وفي غيرها، أن نُحسِنَ التَّوَكُّلَ على اللهِ تعالى، وهو مطلوبٌ في كلِّ وقتٍ وفي كلِّ حينٍ، لكنَّهُ يتأكَّدُ في مثلِ هذه الظُّروفِ التي قد تتعلَّقُ فيها القلوبُ بغيرِ الله - سبحانه - فعلينا بالتَّوَكُّلِ على الله، وتفويضِ الأمرِ إلى الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** في كلِّ شيءٍ، والثِّقَّةِ بحسُنِ اختيارِ الله **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** لنا، والاعتمادِ عليه - سبحانه - في جلبِ المنافعِ ودفعِ المضارِّ.

والتَّوَكُّلُ على الله شَرْطُ الإيِّمانِ وعلامتهُ، قال اللهُ **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا

إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣].

وقال - سبحانه -: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٠].

إذًا: الوصية الأولى: أن نُحسِنَ التَّوَكُّلَ على الله **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** في جميعِ أمرنا.

الوصية الثانية: أن نَعْلَمَ عِلْمَ اليقينِ أنَّ النَّصْرَ بيدِ الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** والتَّأييدَ منه **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** فلا بُدَّ أن تتعلَّقَ القلوبُ بالحقِّ **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** إذ وَعَدَ أوليائهُ بالنَّصرِ، والنَّصرُ لا يكونُ إلا من عنده.

فَقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات: ١٧١-١٧٣].

وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَفُومُ الْأَشْهُدُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر: ٥١].

فإِذَا عَلِمَ أَنَّ النَّصْرَ بِيَدِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَا بُدَّ أَنْ تَتَوَجَّهَ الْقُلُوبُ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تَسْتَنْصِرُهُ وَتَطْلُبُ مِنْهُ النَّصْرَ وَالتَّيْيِدَ؛ لِذَا نَجِدُ فِي قِصَّةِ نُوْحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا أَحَاطَتْ بِهِ جَحَافِلُ الْكُفْرِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ عَلِمَ أَنَّ النَّصْرَ بِيَدِ اللَّهِ، فَقَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي شَأْنِهِ: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانصُرْ ﴿١٠﴾﴾ [القمر: ١٠].

لَمْ تَتَوَجَّهْ هَذِهِ الدَّعَوَاتُ إِلَى غَيْرِ اللَّهِ، وَإِنَّمَا كَانَتْ هَذِهِ الدَّعْوَةُ إِلَى اللَّهِ؛ إِذْ طَرَقَ بَابَ السَّمَاءِ، قَالَ اللَّهُ -سُبْحَانَهُ-: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانصُرْ ﴿١٠﴾﴾ [القمر: ١٠]، قَالَ اللَّهُ: ﴿فَفَنَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنَمَّرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدٍ فِدْرٍ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفْرًا ﴿١٤﴾﴾ [القمر: ١١-١٤].

وَمَنْ عَلِمَ أَنَّ النَّصْرَ بِيَدِ اللَّهِ فَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ لَا يَتَوَصَّلُ إِلَى هَذَا النَّصْرِ إِلَّا بِالْعُودَةِ إِلَى الدِّينِ، فَلَا تَكُنْ مِمَّنْ يُؤَخِّرُ النَّصْرَ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ بِبُعْدِكَ عَنِ الدِّينِ؛ فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ كَمَا جَاءَ فِي سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ: «إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعَيْنَةِ» نَوْعٌ مِنْ أَنْوَاعِ الرِّبَا «وَأَخَذْتُمْ أذْنَابَ الْبَقَرِ، وَرَضِيْتُمْ بِالزَّرْعِ، وَتَرَكْتُمْ الْجِهَادَ؛ سَلَطَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ذَلًّا لَا يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ»^(١) فَبَقْدَرِ مَا تَرْجِعُ إِلَى هَذَا الدِّينِ، وَإِلَى أَصْلِ هَذَا الدِّينِ يُحَقِّقُ لَنَا الْمَوْلَى تَبَارَكَ وَتَعَالَى النَّصْرَ الْمُبِينَ.

(١) أخرجه أحمد (٤٢/٢)، وأبو داود: كتاب البيوع، باب في النهي عن العينة، رقم (٣٤٦٢).

الوصية الثالثة: في مثل هذه الظروف حينما تلتقي الصفوف شرع الله لنا أن نُكثِرَ من ذِكْرِهِ - سبحانه - لا نكتفي بالذكرِ فحسبُ، بل الإكثارُ من ذِكْرِهِ - سبحانه - قال الحقُّ - سبحانه -: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيْتُمْ فَعِئَّةٌ فَاتَّبَتُوا وَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥].

وإنَّ من ذِكْرِ اللَّهِ - سبحانه - أن يقولَ المؤمنونَ: حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، وأن يُكثِرُوا من هذا الذِّكْرِ، قال الحقُّ - سبحانه -: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣] النتيجة كما قال الله: ﴿فَأَنقَلِبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّهِنَّ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [١٧٤] إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ. فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٤-١٧٥].

إِذَا: من ذِكْرِ اللَّهِ أن نقولَ: حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، فنبرأ من الحَوْلِ والقُوَّةِ إِلَّا من اللَّهِ سبحانه.

وإنَّ من ذِكْرِ اللَّهِ كَثْرَةَ الاستغفارِ، والتَّوْبَةَ إلى اللَّهِ - سبحانه - قال الحقُّ - سبحانه - في سُورَةِ هُودٍ: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ٥٢].

وقال - سبحانه -: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ ١ ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ ٢ ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَأَسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ ٣ [النصر: ١-٣].

فلا بدُّ أن يُكثِرَ الإنسانُ من الاستغفارِ.

ولعلَّ قائلاً يقول: أَلَا يَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يَفْرَحَ وَهُوَ يَرَى رَايَةَ الْحَقِّ يُضْرَبُ
بِهَا الْبَاطِلُ فَيَنْدَحِرُ وَيَزْهَقُ؟

والجواب: بلى، إِنَّ رَايَةَ الْحَقِّ حِينَمَا تَرْتَفِعُ وَتَنْتَصِرُ فَهَذَا يَدْعُو إِلَى الْفَرَحِ،
لَكِنَّهُ الْفَرَحُ الْمَشْرُوعُ، قَالَ الْحَقُّ -سَبْحَانَهُ- فِي كِتَابِهِ الْكَرِيمِ: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ
الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ يَنْصُرِ اللَّهُ ۚ يَنْصُرُ مَن يَشَاءُ ۗ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾﴾
[الروم: ٤-٥].

لَكِنَّهُ لَيْسَ فَرَحَ الْأَغَانِي وَالْفُجُورِ وَالْمُجُونِ، إِنَّمَا فَرَحُ إِقَامَةِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ
الزَّكَاةِ، وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَالْعُودَةِ إِلَى الدِّينِ، هَكَذَا يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ
إِذَا رَأَوْا رَايَةَ الْحَقِّ تَنْتَصِرُ، وَرَأَوْا رَايَةَ الْحَقِّ يُضْرَبُ بِهَا رَأْسُ الْبَاطِلِ فَيَزْهَقُ.

قَالَ الْحَقُّ -سَبْحَانَهُ- وَهُوَ يُبَيِّنُ كَيْفَ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ: ﴿الَّذِينَ إِذَا مَكَتَهُمْ فِي
الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ۗ وَاللَّهُ
عَلِيمٌ بِالْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ [الحج: ٤١].

الوصية الرابعة: الحذر من إساءة الظنِّ بالمؤمنين، فإنَّ مما يروِّج له ويروجُّه
أهل الباطلِ اليومَ في مجتمعاتنا: إساءة الظنِّ بإخوانك المؤمنين: إساءة الظنِّ بأخيك
الذي يُصَلِّيُ مَعَكَ فِي الْمَسْجِدِ، وَإِسَاءَةَ الظنِّ بِأَخِيكَ الَّذِي يَسْكُنُ بِجِوَارِكَ، وَإِسَاءَةَ
الظنِّ بِأَخِيكَ الَّذِي أَنْتَ وَإِيَّاهُ فِي خَنْدَقٍ وَاحِدٍ، فَهَنَّاكَ دَعَوَاتٌ تُرَوِّجُ لِإِسَاءَةِ الظنِّ
بِهِمِ وَالتَّشْكِيكِ فِي أَمْرِهِمْ، فَلْنَحْذَرْ مِنْ هَذَا الْخَطْبِ الْخَطِيرِ الَّذِي يُرَوِّجُهُ أَهْلُ
الْبَاطِلِ وَالنِّفَاقِ.

قَالَ الْحَقُّ -سَبْحَانَهُ-: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ ۖ أَيُّ هَوْلًا لِّلْمُنَافِقِينَ ۗ مَا زَادُوكُمْ

إِلَّا خَبَالًا وَلَا وُضْعًا خَلَلَكُمْ يَبْغُونَكُمْ الْفِنَنَةَ وَفِيكُمْ سَمْعُونَ لَهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ
بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ [التوبة: ٤٧].

الوصية الخامسة: إِنَّ مِنْ أَعْظَمِ الْمَقَامَاتِ فِي مِثْلِ هَذِهِ الظُّرُوفِ مَقَامَ الدُّعَاءِ،
الذي لم يتركه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ فِي شِدَّةٍ وَلَا فِي رِخَاءٍ؛ فَعَلَى الْعَبْدِ الْمُسْلِمِ
الْمُؤْمِنِ أَنْ يَطْرُقَ بَابَ السَّمَاءِ، وَيَدْعُو اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِالنَّصْرِ وَالتَّيْيِيدِ لِلْمُسْلِمِينَ
فِي كُلِّ مَكَانٍ.

قال عمر -رضي الله تعالى عنه- والحديث في صحيح مسلم: لَمَّا كَانَ يَوْمٌ
بَدَرَ نَظَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِلْمُشْرِكِينَ وَهُمْ أَلْفٌ، وَأَصْحَابُهُ ثَلَاثٌ مِئَةٌ وَتِسْعَةٌ عَشَرَ،
فَاسْتَقْبَلَ الْقِبْلَةَ وَرَفَعَ يَدَيْهِ، ثُمَّ هَتَفَ بِرَبِّهِ عَزَّجَلَّ: «اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ
أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ إِنَّ تَهْلِكَ هَذِهِ الْعِصَابَةُ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ لَا تُعْبَدُ فِي الْأَرْضِ»
يَرْفَعُ يَدَيْهِ ﷺ وَيَدْعُو، وَهُوَ الْمُؤَيَّدُ الْمَنْصُورُ، فَيَهْتَفُ بِرَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى حَتَّى سَقَطَ
رِدَاؤُهُ عَنِ مَنْكِبَيْهِ، فَيَدْخُلُ أَبُو بَكْرٍ -رضي الله تعالى عنه- فَيَرَى هَذَا الْإِلْحَاحَ، وَيَرَى
هَذَا الْمَقَامَ، فَيَرْجِعُ رِدَاءَ النَّبِيِّ ﷺ إِلَى مَنْكِبَيْهِ، وَيَلْتَزِمُهُ مِنْ وَرَائِهِ وَيَقُولُ: «يَا نَبِيَّ
اللَّهُ، كَفَاكَ مُنَاشِدَتَكَ رَبِّكَ، إِنَّهُ سَيُنْجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ؛ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِذْ
تَسْتَعْجِلُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّفِينَ﴾ ﴿٩﴾
[الأنفال: ٩]»^(١).

فَلَا تَبْخَلْ عَلَى إِخْوَانِكَ فِي كُلِّ مَكَانٍ بِدَعْوَةٍ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ، أَوْ فِي وَصْحِ
النَّهَارِ، وَأَنْتَ قَائِمٌ أَوْ سَاجِدٌ، فَلَعَلَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنْ يَجْعَلَ النَّصْرَ وَالتَّيْيِيدَ وَالتَّمَكِينَ

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجهاد والسير، باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر، رقم (١٧٦٣).

لهؤلاء بدعوة تصدُر منك أو من فلانٍ، ولا تستصغر نفسك؛ فإنَّ النبي ﷺ قال
كما جاء في سنن النسائي: «إِنَّمَا يَنْصُرُ اللَّهُ هَذِهِ الْأُمَّةَ بِضَعِيفِهَا، بِدَعْوَتِهِمْ وَصَلَاتِهِمْ
وَإِخْلَاصِهِمْ»^(١).

• • k • •

(١) أخرجه النسائي: كتاب الجهاد، باب الاستنصار بالضعيف، رقم (٣١٧٨)، من حديث سعد بن
أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(١٤) الدُّعَاءُ بِالنُّصْرِ

•• k ••

لا شكَّ أنَّ المتأملَ في حالِ الأُمَّةِ في مثلِ هذهِ الأيامِ يجدُ أنَّ دواعيَ النُّصرةِ والتأييدِ يطالبُ بها كُلُّ مَنْ يَنتمي لهذهِ الأُمَّةِ، ومن صُورِ نُصرةِ هذهِ الأُمَّةِ: الدُّعاءُ لها بالنُّصرِ والتَّمكينِ والثباتِ، والمتأملُ في كتابِ اللهِ وسُنَّةِ رَسولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يجدُ أنَّ هذا النوعَ من النُّصرةِ يتكرَّرُ كثيرًا في كتابِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وفي سيرةِ النبيِّ ﷺ ومن جاءَ بعدهُ مِنَ الصَّالِحِينَ، والدُّعاءُ ليس هو السَّببُ الأوحدَ، بل لا بُدَّ مع هذا السَّببِ مِنَ الأخذِ بالعملِ، فلسنا من دُعاةِ الإنزواءِ في التَّكايَا والزَّوايا والدُّعاءِ فحَسْبُ، بل لا بُدَّ مع الدُّعاءِ مِنَ العملِ والبَدلِ والجِهَادِ والعطاءِ، كما سيأتي بعد قليلٍ.

إنَّكَ حينما تَقْرَأُ في كتابِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وهو يُعَرِّفُكَ -سبحانَهُ- بنفسِهِ، ويقولُ لك: إنَّ النُّصرَ بيدهِ -سبحانَهُ تبارك وتعالى- حتى تتوجَّهَ هذهِ القلوبُ والأفئدةُ إليه.

يقولُ الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ (١١٦)

[آل عمران: ١٢٦].

ويقولُ -سبحانَهُ-: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۗ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا

الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ ۗ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (١١٠) [آل عمران: ١٦٠].

ويقول في سورة الأنفال: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ اللَّهُ بِكُمُ النَّصْرَ لَأُخْرِجَنَّكُمْ مِنَ الْعَدُوِّ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنفال: ١٠].

﴿١٠﴾ [الأنفال: ١٠].

ويقول - سبحانه -: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ﴾ [الحج: ٤٠].

ويقول - سبحانه -: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

وغيرها من الآيات كثير دال على أن النصر بيد الله.

فإذا أراد العبد النصر لنفسه ولهذه الأمة فليتوجه إلى الله، كما توجه الأنبياء

والمُرسلون والصالحون من قبل، قال الحق - سبحانه -: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ

وَجُنُودِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٠].

وهذا هو العمل والعطاء والجهاد، فتوجهوا إلى من بيده النصر ﴿قَالُوا

رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْبَلَدِ إِنَّنَا نَجِدُهُمُ كَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٠].

﴿٢٥٠﴾ [البقرة: ٢٥٠]. والنتيجة كما قال تعالى: ﴿فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ

جَالُوتَ وَءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٥١].

النَّاسَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ لَفْسَدَاتِ الْأَرْضِ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى

الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١].

وفي خواتيم سورة البقرة: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ۗ وَاعْفُ عَنَّا

وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ۗ إِنَّكَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وفي سورة آل عمران: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِيثِيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا

أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا أَسْتَكَانُوا ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا آغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ
الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾ [آل عمران: ١٤٦-١٤٧]، والنتيجة كما قال تعالى: ﴿فَكَانَهُمْ اللَّهُ تَوَابًا
الدُّنْيَا وَحَسَنَ تَوَابٍ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿١٤٨﴾ [آل عمران: ١٤٨].

وهكذا نجد في كتاب الله كثيرًا من الآيات التي تُبيِّنُ أَنَّ الأَخْذَ بهذا السَّبَبِ
أَخْذٌ عَزِيزٌ وَعَظِيمٌ، غَفَلَتْ عَنْهُ الأُمَّةُ، فَالأُمَّةُ فِي حَالِ رَخَائِهَا غَافِلَةٌ، وَفِي حَالِ
شِدَّتِهَا غَافِلَةٌ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُرَبِّينَا عَلَى أَصْلِ مِنْ أَصُولِ الإِسْلَامِ العَظِيمَةِ، فَقَدْ
قَالَ ﷺ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَسْتَحِيبَ اللَّهُ لَهُ عِنْدَ الشَّدَائِدِ وَالْكَرْبِ فَلْيُكْثِرِ الدُّعَاءَ
فِي الرَّخَاءِ»^(١).

وَإِذَا تَأَمَّلْنَا سِيرَةَ النَّبِيِّ ﷺ نَجِدُ أَنَّهُ كَمَا جَاءَ فِي سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ، يَقُولُ النُّعْمَانُ
-رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ-: «شَاهَدْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ إِذَا لَمْ يُقَاتِلْ أَوَّلَ النَّهَارِ أَخَّرَ
الْقِتَالَ حَتَّى تَزُولَ الشَّمْسُ، وَتَهَبَّ الرِّيَّاحُ، وَيَنْزَلَ النَّصْرُ»^(٢).

فِي هَذَا الوَقْتِ حِينَما تَكْثُرُ الجُمُوعُ وَالجَمَاعَاتُ، وَتَلْهَجُ السُّنُ الْمُؤْمِنِينَ بالدُّعَاءِ،
يَسْتَنْزِلُ النَّصْرَ ﷺ بتلك الدَّعَوَاتِ؛ لِأَنَّهَا مَظَنَّةُ الإِجَابَةِ فِي مِثْلِ هَذِهِ الأَوْقَاتِ.

وَجَاءَ فِي صَحِيحِ البُخَارِيِّ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَامَ خَطِيبًا فِي يَوْمٍ مِنَ الأَيَّامِ، فَقَالَ:

(١) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ: كِتَابُ الدَّعَوَاتِ، بَابُ مَا جَاءَ أَنْ دَعَاهُ المُسْلِمُ مُسْتَجَابَةً، رَقْمُ (٣٣٨٢)، مِنْ
حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (٤٤٤/٥)، وَأَبُو دَاوُدَ: كِتَابُ الجِهَادِ، بَابُ فِي أَيِّ وَقْتٍ يَسْتَحِبُّ اللِّقَاءَ، رَقْمُ
(٢٦٥٥)، وَالتِّرْمِذِيُّ: كِتَابُ السَّيْرِ، بَابُ مَا جَاءَ فِي السَّاعَةِ الَّتِي يَسْتَحِبُّ فِيهَا القِتَالَ، رَقْمُ
(١٦١٣)، مِنْ حَدِيثِ النُّعْمَانِ بْنِ مَقْرِنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَأَخْرَجَهُ بِنَحْوِهِ البُخَارِيُّ: كِتَابُ الجَزِيَّةِ، بَابُ الجَزِيَّةِ وَالمَوَادِعَةِ مَعَ أَهْلِ الحَرْبِ، رَقْمُ (٣١٦٠).

«أَيُّهَا النَّاسُ، لَا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ، وَسَلُّوْا اللَّهَ الْعَافِيَةَ، فَإِذَا لَقَيْتُمُوهُمْ فَابْتُتُوا -أو قال: فَإِذَا لَقَيْتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا-، وَاَعْلَمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ الشُّيُوفِ»، ثم قال: «اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الْكِتَابِ، وَمُجْرِيَ السَّحَابِ، وَهَازِمَ الْأَحْزَابِ، اهْزِمْهُمْ وَأَنْصُرْنَا عَلَيْهِمْ»^(١).

جاء بالعدَدِ والعدَّةِ، لكنَّهُ أَخَذَ بِهَذَا السَّبَبِ اللَّازِمِ فِي النَّصْرِ.

قال أنسٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - كما جاء عند أبي داود -: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا غَزَا قَالَ: «اللَّهُمَّ أَنْتَ عَضْدِي وَنَصِيرِي، بِكَ أَحْوَلُ، وَبِكَ أَصُولُ، وَبِكَ أَقَاتِلُ»^(٢).

وقال ابنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا كما جاء في صحيح البخاري: «حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ ﷺ حِينَ قَالُوا: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾» [آل عمران: ١٧٣] ^(٣).

ومع هذا الحشد من الآيات والأحاديث إلا أن هناك أنفساً قد تقاعست وعجزت حتى عن الدعاء، ومن منّا يتجرّد ويحلّو بنفسه ويدعو للإسلام والمسلمين،

- (١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب كان النبي ﷺ إذا لم يقاتل أول النهار، رقم (٢٩٦٦)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب استحباب الدعاء بالنصر عند لقاء العدو، رقم (١٧٤٢)، من حديث عبد الله بن أبي أوفى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
- (٢) أخرجه أبو داود: كتاب الجهاد، باب ما يدعى عند اللقاء، رقم (٢٦٣٢)، وأخرجه بنحوه أحمد (٣/ ١٨٤)، والترمذي: كتاب الدعوات، باب في الدعاء إذا غزا، رقم (٣٥٨٤).
- (٣) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾، رقم (٤٥٦٣).

أو لأولئك المجاهدين في كل مكان، الذين يُقاتلون من أجل حماية الأمة ومُكتسباتها؟ وهو أبسط ما يكون، ربّما نقضي الساعات الطوال نسمع تحليلاً هنا، وتحليلاً هناك، ثم نخرُج بعده صفرَ اليدين لم نستفد ولم نغد، وقد أعطانا ربنا **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** هذا السلاح، قال: **﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾** [البقرة: ١٨٦].

ومع ذلك هناك مَنْ يتقاعس عن الدعاء، فإذا تقاعست الأمة حتى عن الدعاء غَضِبَ اللهُ عليها، قال رسول الله ﷺ كما جاء في سنن الترمذي: **«إِنَّهُ مَنْ لَمْ يَسْأَلِ اللَّهَ يَغْضَبْ عَلَيْهِ»** ^(١) فهناك أنفُسُ خاملة حتى عن الدعاء.

ثم اعلم أن الله **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** جعل في الدعاء مزية أنه يردُّ القضاء، وبذلك يردُّ على هذا المسكين الذي يقول: المخطط أكبر من الدعاء، وما يُحكُّ للأمة أكبر من الدعاء! نقول: هذه مخططات أرضية، ونبينا ﷺ يقول: **«إِنَّ دُعَاءَ الْعَبْدِ يَرُدُّ الْقَضَاءَ»** ^(٢) فكيف بالمخططات والتدبيرات؟! بل قال ﷺ: **«وَالدُّعَاءُ يَنْفَعُ بِمَا نَزَلَ وَمَا لَمْ يَنْزَلْ، وَإِنَّ الْبَلَاءَ لَيَنْزَلُ فَيَتَلَقَّاهُ الدُّعَاءُ؛ فَيَعْتَلِجَانِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»** ^(٣).

لكن هناك عَجْزَةٌ مِنَ النَّاسِ، وهم الذين قال فيهم النبي ﷺ: **«أَبْخَلُ النَّاسِ**

(١) أخرجه أحمد (٤٤٢/٢)، والترمذي: كتاب الدعوات، باب ما جاء في فضل الدعاء، رقم (٣٣٧٣)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه الترمذي: كتاب القدر، باب ما جاء لا يرد القدر إلا الدعاء، رقم (٢١٣٩)، من حديث سلمان الفارسي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: **«لَا يَرُدُّ الْقَضَاءَ إِلَّا الدُّعَاءُ»**.

(٣) أخرجه الترمذي: كتاب الدعوات، باب في دعاء النبي ﷺ، رقم (٣٥٤٨)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

الَّذِي يَبْخُلُ بِالسَّلَامِ، وَإِنَّ أَعْجَزَ النَّاسِ مَنْ عَجَزَ عَنِ الدُّعَاءِ»^(١).

وكم من دعوة غيرت موازين القوى، فلا تحتقر نفسك، ولا تقل: أنا ضعيف، أو أنا لا حول لي ولا قوة، ولا تهمش نفسك؛ فإن الله تبارك وتعالى قد يجعل من ضعفك قوة للمسلمين، فقد جاء عند الحاكم في مستدرکه أن النبي ﷺ قال: «كَمْ مِنْ ضَعِيفٍ مُتَضَعِّفٍ ذِي طَمَرَيْنِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبْرَهُ، مِنْهُمْ: الْبَرَاءُ بْنُ مَالِكٍ» قال الراوي: فكان البراء في غزوة فأوجع المشركون في المسلمين، وكانت الغلبة للمشركين، فصاح المسلمون: يا براء إن رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّكَ لَوْ أَقْسَمْتَ عَلَى اللَّهِ لَأَبْرَكَ» فأقسم على ربك، فقال البراء: أفسمت عليك يا رب لَمَا مَنَحْتَنَا أَكْتَا فَهْمُ، وَأَحْتَمْتَنِي بِنَبِيِّكَ ﷺ قال: فمَنَحُوا أَكْتَا فَهْمُ وَقَتِلَ الْبَرَاءُ شَهِيدًا^(٢).

وفي سير أعلام النبلاء: خَرَجَ قُتَيْبَةُ بْنُ مُسْلِمٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - لِمُلَاقَاةِ خُصُومِهِ، فَلَمَّا رَأَى جُيُوشَهُمْ هَالَهُ أَمْرُهُمْ، فَالْتَفَتَ سَائِلًا: أَيْنَ مُحَمَّدُ بْنُ وَاسِعٍ؟ أَحَدُ عُلَمَاءِ الْأُمَّةِ وَأَتْقِيَائِهَا، وَصَالِحِيهَا، قَالُوا: هُوَ ذَاكَ فِي الْمَيْمَنَةِ جَامِعٌ عَلَى قَوْسِهِ يُضَبِّصُ بِأُضْبُعِهِ نَحْوَ السَّمَاءِ يَدْعُو، فَقَالَ قُتَيْبَةُ: تِلْكَ الْأُضْبُعُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ مِئَةِ أَلْفِ سَيْفٍ شَهِيرٍ، وَشَابٌّ طَرِيرٍ^(٣)؛ لَأَتَّبِعُهُمْ يَعْرِفُونَ قِيَمَةَ الدُّعَاءِ.

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط رقم (٥٥٩١)، وأبو الشيخ في الأمثال رقم (٢٤٧)، والبيهقي في الشعب رقم (٨٣٩٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعا.

وروي عن أبي هريرة أيضا موقوفا؛ أخرجه البخاري في الأدب المفرد رقم (١٠١٥)، وأبو يعلى في المسند رقم (٦٦٤٩)، وابن حبان في صحيحه رقم (٤٤٩٨)، والبيهقي في الشعب رقم (٨٣٩٤).

(٢) المستدرک للحاكم (٣/٢٩١)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأخرجه مختصرا الترمذي: كتاب المناقب، باب مناقب البراء بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رقم (٣٨٥٤).

(٣) سير أعلام النبلاء (٦/١٢١).

لذا كان صلاح الدين الأيوبيُّ رحمه الله تعالى إذا سمِعَ أنَّ بلدًا من بلاد المسلمين قد دهمها العدوُّ ولا يملكُ شيئًا؛ خرَّ لله ساجدًا على الأرضِ وكان من دُعائه: اللهمَّ قد انقَطَعَتْ أسبابي الأرضيَّةُ ولم يبقَ إلَّا الإخْلادُ إليك، والاعتِصامُ بحَبْلِكَ، والاعتمادُ على فَضْلِكَ، أنتَ حَسْبِي وَنِعْمَ الْوَكِيلُ. قال الرَّاوي: فما يَمُرُّ ذلك اليومُ حتى تأتيَ البَشَائِرُ بأنَّ البلاءَ رُفِعَ عن تلك البلادِ^(١).

إنَّها قُلُوبٌ عَلِمَتْ أَنَّ النَّصْرَ بيدِ اللهِ فَتَعَلَّقَتْ باللهِ بعدَ أَنْ أَعَدَّتِ الْعِتَادَ وَالْعُدَّةَ، هكذا شأنُ المُسْلِمِ في كُلِّ زمانٍ ومكانٍ.

•• k ••

(١) انظر: سيرة صلاح الدين الأيوبي لابن شداد (ص: ١٢).



(١٥)

فاستغفروني اغفر لكم

•• k ••

نعلمُ أنَّ منَ أعظَمِ أسبابِ زوالِ النِّعمِ، وحُلُولِ المصائبِ والبلايا والنِّقمِ، على الأفرادِ أو على المُجتمعاتِ - الكُفْرُ باللهِ **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** وكثرةُ الوقوعِ في الذُّنوبِ والمعاصي، فإنَّها سببٌ رئيسٌ في زوالِ النِّعمِ التي يَتَمَتَّعُ بها الأفرادُ وتَنعَمُ بها المُجتمعاتُ، دَلَّ على ذلكِ الدَّلِيلُ مِنَ الكِتَابِ والسُّنَّةِ، وذلكِ كثيرٌ.

منَ ذلكِ قولُ الحقِّ **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** في سُورَةِ النِّحْلِ: ﴿ **وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِيَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ** ﴾ [النحل: ١١٢].

وقال **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** في سُورَةِ الإسْرَاءِ: ﴿ **وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا** ﴾ [الإسراء: ١٦].

وقال سبحانه في سُورَةِ القَصَصِ: ﴿ **وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَمِهَا رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ** ﴾ [القصاص: ٥٩].

وفي سُورَةِ الطَّلَاقِ: ﴿ **وَكَايِنٍ مِّنْ قَرْيَةٍ عَنَّتْ عَنِّ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا تَكَرَّرًا** ﴾ [الطلاق: ٨].

والوقوعُ في السيِّئاتِ والمعاصي واردٌ، لكنَّ الذي يَنْبَغِي أَنْ يَرِدَ هو المبادرةُ

إلى التَّوْبَةِ، وإلى العَوْدَةِ، وإلى الاستِغْفَارِ مِنْ كُلِّ ذَنْبٍ يَصْدُرُ مِنَ الْإِنْسَانِ، فَمَا مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَهُوَ صَاحِبُ ذَنْبٍ، لَيْسَ فِيْنَا إِنْسَانٌ بِلَا خَطِيئَةٍ، فَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ كَمَا جَاءَ فِي سُنَنِ ابْنِ مَاجَهٍ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَّاءٌ، وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ»^(١).

وعند الطَّبْرَانِيِّ فِي مُعْجَمِهِ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمَا- قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا مِنْ عَبْدٍ مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَهُ ذَنْبٌ، يَعْتَادُهُ الْفَيْئَةَ بَعْدَ الْفَيْئَةِ، أَوْ ذَنْبٌ هُوَ مُقِيمٌ عَلَيْهِ لَا يُفَارِقُهُ حَتَّى يُفَارِقَ، إِنَّ الْمُؤْمِنَ خُلِقَ مُفْتَنًا تَوَّابًا نَسِيًّا إِذَا ذُكِرَ ذَكَرٌ»^(٢).

فَإِذَا عَلِمَ هَذَا الَّذِي تَقَدَّمَ صَارَ لِرِزَامًا عَلَيْنَا أَنْ نُحْيِيَ فِي نُفُوسِنَا شَعِيرَةَ الْإِسْتِغْفَارِ، وَنُبَادِرَ إِلَى بَابِ التَّوْبَةِ أَفْرَادًا وَجَمَاعَاتٍ، فَاللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يُعَرِّفُنَا بِنَفْسِهِ أَنَّهُ رَحِيمٌ، وَدُودٌ، غَفُورٌ، رَحِيمٌ، قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَنَا فِي سُورَةِ هُودٍ: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبَّ رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾^(٣) [هود: ٩٠].

وَقَالَ سُبْحَانَهُ فِي سُورَةِ الْمَزْمَلِ: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٤) [المزمل: ٢٠].
وَقَالَ لَنَا كَمَا جَاءَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ فِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَقُولُ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ تَخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَعْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا فَاسْتَغْفِرُونِي أَعْفِرُ لَكُمْ»^(٥).

(١) أخرجه أحمد (٣/١٩٨)، والترمذي: كتاب صفة القيامة، رقم (٢٤٩٩)، وابن ماجه: كتاب الزهد، باب ذكر التوبة، رقم (٤٢٥١)، من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١١/٣٠٤)، رقم (١١٨١٠).
(٣) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٧٧)، من حديث أبي ذر الغفاري.

وقال ﷺ كما جاء عند الحاكم في مُسْتَدْرَكِهِ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ قَالَ: وَعَزَّتْكَ يَا رَبِّ لَا أَبْرَحُ أُغْوِي عِبَادَكَ مَا دَامَتْ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ، فَيَقُولُ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: وَعَزَّتِي وَجَلَالِي لَا أَزَالُ أَغْفِرُ لَهُمْ مَا اسْتَغْفَرُونِي»^(١).

فعلينا أن نُحْيِي شعيرة الاستغفار في نفوسنا قولاً وعملاً، والله يُريد أن يَتُوبَ علينا، كما قال تعالى في سُورَةِ النَّسَاءِ: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾^(٢٧) يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا^(٢٨) [النساء: ٢٨، ٢٧].

إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَحْتُ نَبِيَّهُ ﷺ الطاهر المُطَهَّرَ المعصومَ على إحياء شعيرة الاستغفار في نفسه، فيقول له في مَوْضِعٍ: ﴿وَأَسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾^(١٠٦) [النساء: ١٠٦].

ويقول له في مَوْضِعٍ ثَانٍ: ﴿فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾^(٥٥) [غافر: ٥٥].

ويقول في مَوْضِعٍ ثَالِثٍ: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلِّبَكُمْ وَمَتَوَلِّكُمْ﴾^(١٩) [محمد: ١٩].

ويقول له في مَوْضِعٍ رَابِعٍ: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَأَسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾^(٣) [النصر: ٣].

فالتزم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بما أَمَرَ اللَّهُ بِهِ، فقد جاء في سنن الترمذي أن ابنَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «كَانَتْ تُعَدُّ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الْمَجْلِسِ الْوَاحِدِ مِئَةٌ مَرَّةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَقُومَ: رَبِّ

(١) أخرجه أحمد (٢٩/٣)، والحاكم في المستدرک (٤/٢٦١)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

اغفر لي وتب عليّ؛ إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الْغَفُورُ»^(١).

وحيثما نتحدث عن الاستغفار لا نعني الاستغفار باللسان فحسب، وإنما الاستغفار باللسان له لوازيم، من لوازيمه ما يلي: التحلل من المظالم التي للناس، فلا يصلح: أن أجلس من الصباح إلى المساء، أستغفر الله وأنا أكل أموال اليتامى ظلماً، أو أشتت هذا، أو أتحدث في عرض هذا.

فلا يصح الاستغفار وهناك مظالم للآخرين: شهادة زور على فلان تأكل حقه، أو تتعدى على هذا بقوتك وسُلطانك، ففي صحيح البخاري قال رسول الله ﷺ: «مَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ مَظْلَمَةٌ لِأَخِيهِ فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهَا فَإِنَّهُ لَيْسَ تَمَّ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ، مِنْ قَبْلِ أَنْ يُؤْخَذَ لِأَخِيهِ مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ أَخِيهِ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ»^(٢) فلا بد أن يتحلل من المظالم.

وانظر إلى الشهيد الذي له المنزلة العليا عند الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عنه كما جاء في صحيح مسلم: «يُغْفَرُ لِلشَّهِيدِ كُلِّ ذَنْبٍ إِلَّا الدِّينَ»^(٣) مع ما له من هذا المقام الرفيع، إلا أن هناك حقوقاً للآخرين لا بد أن يتحلل منها، فما بال هذا الإنسان الذي ليس بشهيدٍ وأكل أموال الناس بالباطل؟!!

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٢١)، وأبو داود: كتاب الصلاة، باب في الاستغفار، رقم (١٥١٦)، والترمذي: كتاب الدعوات، باب ما يقول إذا قام من مجلسه، رقم (٣٤٣٤)، وابن ماجه: كتاب الأدب، باب الاستغفار، رقم (٣٨١٤).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب القصاص يوم القيامة، رقم (٦٥٣٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الإمارة، باب من قتل في سبيل الله كفرت خطاياها إلا الدين، (١٨٨٦)، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وجاء في صحيح مُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ أَبِي أَمَامَةَ - رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ - قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ اقْتَطَعَ حَقَّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ بِيَمِينِهِ» سِوَاءَ بِيَدِهِ الْيَمْنَى، أَوْ بِحَلْفِهِ، كَالَّذِي حَلَفَ أَنَّهُ رَأَى وَهُوَ لَمْ يَرَ، أَوْ حَلَفَ عَلَى شَهَادَةِ زُورٍ، أَوْ حَلَفَ لِيَحْرِمَ امْرَأَةً وَأَوْلَادَهَا مِنَ الْمِيرَاثِ، أَوْ حَلَفَ عَلَى قِطْعَةِ أَرْضٍ أَنهَا لَيْسَتْ لِفُلَانٍ وَهِيَ لِفُلَانٍ، أَوْ حَلَفَ أَنَّ فُلَانًا قَالَ وَهُوَ لَمْ يَقُلْ «فَقَدْ أَوْجَبَ اللَّهُ لَهُ النَّارَ، وَحَرَّمَ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ»، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: وَإِنْ كَانَ شَيْئًا يَسِيرًا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «وَإِنْ قَضِيًّا مِنْ أَرَاكٍ»^(١) أَي: حَتَّى لَوْ كَانَ هَذَا الْمُقْتَطَعُ عُودًا مِنْ أَرَاكٍ، فَقَدْ أَوْجَبَ اللَّهُ لَهُ النَّارَ وَحَرَّمَ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ.

وَمِنْ لُؤَاذِمِ الْاسْتِغْفَارِ أَيْضًا: الْعَزْمُ فِيهِ، فَلَا يَقُولُ الْإِنْسَانُ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَنَا إِنْ شِئْتَ، اللَّهُمَّ تُبِّ عَلَيْنَا إِنْ شِئْتَ، اللَّهُمَّ كَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا إِنْ شِئْتَ، فَإِنَّ مِنْ لُؤَاذِمِ الْاسْتِغْفَارِ: الْعَزْمُ فِي الْمَسْأَلَةِ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَمَا جَاءَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ: «لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ، اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي إِنْ شِئْتَ، لِيَعَزِمَ الدُّعَاءَ؛ فَإِنَّ اللَّهَ صَانِعُ مَا شَاءَ لَا مُكْرَهَ لَهُ»^(٢).

وَمِنْ لُؤَاذِمِ الْاسْتِغْفَارِ أَيْضًا: الْإِقْلَاعُ عَنِ الذَّنْبِ، فَلَا يَصْلُحُ أَنْ يَقُولَ تَارِكُ الصَّلَاةِ: أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَهُوَ مَا زَالَ لَا يُصَلِّي، أَوْ يَقُولُ الزَّانِي: أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَهُوَ مَا زَالَ يَزْنِي، أَوْ يَقُولُ أَكَلِ الرَّبَا: أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ مِنْ أَكَلِ الرَّبَا وَهُوَ مَا زَالَ يَأْكُلُ الرَّبَا، بَلْ لَا بُدَّ مِنَ الْإِقْلَاعِ، وَإِلَّا لَمْ يَسْتَفِدْ مِنَ الْاسْتِغْفَارِ.

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب وعيد من اقتطع حق مسلم، رقم (١٣٧).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الدعوات، باب ليعزم المسألة فإنه لا مكره له، رقم (٦٣٣٩)، ومسلم:

كتاب الذكر والدعاء، باب العزم بالدعاء ولا يقل إن شئت، رقم (٩/٢٦٧٩) من حديث أبي هريرة

وقد جاء في سُنَنِ ابْنِ مَاجَهَ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَذْنَبَ كَانَتْ نُكْتَةً سَوْدَاءً فِي قَلْبِهِ، فَإِنْ تَابَ وَنَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ صُقِلَ قَلْبُهُ، فَإِنْ زَادَ زَادَتْ، فَذَلِكَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ﴿١٤﴾»^(١).

فحتى يُصْقَلَ هذا القلبُ وتُمحَى تلك الصَّحيفَةُ من تلك الخطايا والذُّنُوبِ فلا بُدَّ أَنْ يَنْزَعَ وَيُقْلَعَ عَمَّا هُوَ فِيهِ، مُسْتَعِينًا بِاللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ثُمَّ يَسْتَغْفِرُ اللَّهَ: ﴿وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبَّ رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ ﴿١٠﴾ [هود: ٩٠].



(١) أخرجه أحمد (٢/٢٩٧)، والترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾، رقم (٣٣٣٤)، وابن ماجه: كتاب الزهد، باب ذكر الذنوب، رقم (٤٢٤٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(١٦) الإخبار بمعاني الانتصار

• • k • •

كَتَبَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِأَوْلِيَائِهِ النَّصْرَ وَالتَّأْيِيدَ عَلَى أَعْدَائِهِ مِنَ الْكَافِرِينَ، فَقَالَ
سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كِمْنَاتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ هُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُنَدَنَا
لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات: ١٧١-١٧٣].

وَقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ
يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذرتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ
الْآخِرَةِ﴾ [غافر: ٥٢، ٥١].

إِنَّ لِلنَّصْرِ مَعَانِي، وَمِنْ مَعَانِيهِ الْمُشْتَهَرَةُ: النَّصْرُ عَلَى الْأَعْدَاءِ فِي مِيَادِينِ الْقِتَالِ،
لَكِنْ هُنَاكَ مَعَانٍ أُخْرَى لِلانْتِصَارِ قَدْ يَغْفُلُ عَنْهَا الْمُسْلِمُ وَالتِّي مِنْهَا: الْانْتِصَارُ عَلَى
النَّفْسِ، وَالانْتِصَارُ عَلَى الشَّيْطَانِ، وَالانْتِصَارُ عَلَى الْفِتَنِ.

أولاً: الانتصار على النفس: هو من أعظم صور الانتصار، والذي يعجز عن
الانتصار على نفسه وشهواتها ومحوباتها فهو عن غيرها أعجز، قال بشر الحافي
- رحمه الله تعالى - كما جاء في كتاب ذم الهوى لابن الجوزي **رحمه الله**: وَمَنْ جَعَلَ
شَهَوَاتِ الدُّنْيَا تَحْتَ قَدَمَيْهِ فَفَرَّقَ الشَّيْطَانُ مِنْ ظِلِّهِ - أَي: هَرَبَ الشَّيْطَانُ مِنْ ظِلِّهِ -
وَمَنْ غَلَبَ عِلْمُهُ هَوَاهُ فَهُوَ الصَّابِرُ الْغَالِبُ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْبَلَاءَ كُلَّهُ فِي هَوَاكَ، وَالشِّفَاءَ
كُلَّهُ فِي مُحَالَفَتِكَ إِيَّاهُ. انتهى كلامه رحمه الله^(١).

(١) ذم الهوى لابن الجوزي (ص: ٣١).

والشاهدُ في قوله: فهو الصابِرُ الغالبُ. فهذا نوعٌ مِنَ الغلبةِ والانتصارِ، أنْ يَنْتَصِرَ الإنسانُ على نَفْسِهِ وشَهَوَاتِهَا، وكمٌ لِلنَّفْسِ مِنْ لذائذِ وشَهَوَاتٍ ومحبوباتٍ! فإذا تَعَلَّبَ على ذلك كان قادِرًا على أنْ يَتَغَلَّبَ على غَيْرِهَا، وإذا قرَأنا في كتابِ اللهِ **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** نَجِدُ أنَّ المَعْوَلَ عليه والمُعْتَبَرِ هي هذه النَفْسُ، فقد قال اللهُ **تَبَارَكَ وَتَعَالَى**: **﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾** [النازعات: ٤٠].

هذه النَفْسُ المْتَمَرَّةُ الطائِشَةُ **﴿فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾** [النازعات: ٤٠-٤١]، وهذا هو الانتصارُ الحقيقيُّ.

والمحاسبةُ تكونُ على النَفْسِ، قال الحقُّ **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**: **﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مِمَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُخَضَّرًا وَمِمَّا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ. وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾** [آل عمران: ٣٠].

وقال **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**: **﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مِمَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾** [إبراهيم: ٥١].

وقال **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**: **﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾** [الزمر: ٥٥] **﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ بِإِحْسَانٍ عَلَيَّ مَا فَرَطْتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لِمَنْ السَّخِرِينَ﴾** [الزمر: ٥٥-٥٦].

فالمُعْتَبَرُ هذه النَفْسُ، والمَعْوَلَ على الانتصارِ على هذه النَفْسِ، فهي تريدُ الحرامَ وتَنْطَلِقُ ناحيتهُ، تريدُ الدَّعَةَ والرَّاحَةَ، والتَّفَلَّتْ مِنَ الأحكامِ؛ فيحتاجُ الإنسانُ أنْ يُغَالِبَهَا لِيَنْتَصِرَ عليها، فإذا انتَصَرَ عليها كان مِنَ المُنْتَصِرِينَ، الذين كَتَبَ اللهُ **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** لهم النَّصْرَ والتَّأيِيدَ.

قال وَهَبُ بْنُ مُنْبِهٍ - رحمه الله تعالى - : مكتوبٌ في حِكْمَةِ دَاوُدَ: حَقٌّ عَلَى الْعَاقِلِ
أَلَّا يَعْغَلَ عَنْ أَرْبَعِ سَاعَاتٍ: سَاعَةٍ يُنَاجِي فِيهَا رَبَّهُ، وَسَاعَةٍ يُحَاسِبُ فِيهَا نَفْسَهُ،
وَسَاعَةٍ يَخْلُو فِيهَا مَعَ إِخْوَانِهِ الَّذِينَ يُخْبِرُونَهُ بِعُيُوبِهِ وَيَصُدُّونَهُ عَنْ نَفْسِهِ، وَسَاعَةٍ
يُحَلِّي بَيْنَ نَفْسِهِ وَبَيْنَ لَذَائِهَا فِيمَا يَحِلُّ وَيَجْمَلُ، فَإِنَّ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ عَوْنًا لَهُ عَلَى تِلْكَ
السَّاعَاتِ وَإِجْمَامًا لِلْقُلُوبِ (١).

ومحوباتُ النَّفْسِ التي تصدُّنا عن طريقِ الحقِّ، وعن سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ كَثِيرَةٌ؛
لِذَا قَالَ الْحَقُّ - سَبِحَانَهُ -: ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ
وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ
إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ
لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٢٤].

وهذه النَّفْسُ تُحِبُّ الْمَالَ، وَالْجَاهَ، وَالسُّلْطَانَ، فَلَا تَكُنْ هَذِهِ الْمَحْبُوبَاتُ صَادَةً
لَنَا عَنْ طَرِيقِ اللَّهِ؛ لِذَا قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَنْ صِنْفٍ مِنْ هَذِهِ الْمَحْبُوبَاتِ وَهِيَ
التَّجَارَةُ: «التَّاجِرُ الصَّادِقُ الْأَمِينُ مَعَ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشُّهَدَاءِ» (٢)؛ لِأَنَّهُ اسْتَطَاعَ
أَنْ يَتَّصِرَ عَلَى هَذِهِ النَّفْسِ، وَالنَّفْسُ كَمَا قِيلَ:

وَالنَّفْسُ كَالطِّفْلِ إِنْ تَهْمَلُهُ شَبَّ عَلَى حُبِّ الرِّضَاعِ وَإِنْ تَفْطِمُهُ يَنْفَطِمِ

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد (١/ ١٠٥، رقم ٣١٣)، وهناد في الزهد (٢/ ٥٨٠)، والبيهقي في
الشعب رقم (٤٣٥٢).

(٢) أخرجه الترمذي: كتاب البيوع، باب ما جاء في التجار، رقم (١٢٠٩)، من حديث أبي سعيد
الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فَخَالِفِ النَّفْسَ وَالشَّيْطَانَ وَاعْصِمِهَا وَإِنْ هُمَا مَحْضَاكَ النَّصْحَ فَاتِّمِمِ
وَلَا تُطِعْ مِنْهُمَا خَصْمًا وَلَا حَكَمًا فَأَنْتَ تَعْرِفُ كَيْدَ الْخَصْمِ وَالْحَكَمِ^(١)

ثانيًا: الانتصارُ على الشَّيْطَانِ، الذي تَوَعَّدَنَا وَهَدَّدَنَا أَنَّهُ سَيَقْعُدُ فِي طَرِيقِنَا إِلَى اللَّهِ، فَقَدْ قَالَ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ [الإسراء: ٦١-٦٢].

فَقَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَأَسْتَفْزِرُ مِنْ أَسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجَلِبُ عَلَيْهِمْ بِخَبْرِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدَّهُمْ^٤ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴿٦٥﴾ [الإسراء: ٦٣-٦٥].

هؤلاءِ الْمُتَّصِرُونَ، الَّذِينَ انْتَصَرُوا عَلَى نَزَغَاتِ الشَّيْطَانِ.

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَمَا جَاءَ فِي صَحِيحِ ابْنِ حِبَّانَ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ قَعَدَ لِابْنِ آدَمَ بِطَرِيقِ الْإِسْلَامِ فَقَالَ لَهُ: تُسَلِّمُ وَتَدْرُ دِينَكَ وَدِينَ آبَائِكَ؟ فَعَصَاهُ فَأَسْلَمَ فَعُفِرَ لَهُ، فَقَعَدَ لَهُ فِي طَرِيقِ الْهَجْرَةِ فَقَالَ لَهُ: تُهَاجِرُ وَتَدْرُ أَرْضَكَ وَسَاءَكَ؟ فَعَصَاهُ فَهَاجَرَ، فَقَعَدَ لَهُ فِي طَرِيقِ الْجِهَادِ فَقَالَ لَهُ: تُجَاهِدُ - وَهُوَ جُهْدُ النَّفْسِ وَالْمَالِ - فَتُقَاتِلُ فَتُقْتَلُ فَتُنَكِّحُ الْمَرْأَةَ وَيُقَسَّمُ الْمَالُ؟ فَعَصَاهُ فَقَاتَلَ» فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ» الَّذِي يُغَالِبُ الشَّيْطَانَ حَتَّى يَتَّصِرَ عَلَيْهِ «فَمَا تَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ،

(١) الأبيات من قصيدة البردة للبوصري (ص: ٧-٨).

وإن قُتِلَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، وَإِنْ غَرِقَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، أَوْ وَقَصَتْهُ دَابَّتُهُ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ»^(١).

إِذَا: هذا نوعٌ آخرٌ من أنواع الانتصارات التي ينبغي أن يلتفت إليها المسلم وهو في طريقه إلى الله.

ثالثاً: انتصارُ الثباتِ على الدينِ حتى المماتِ، فالتدئينُ ليس نزوةً، ولا موضحةً حتى يتدبّر الإنسان أياماً وشهوراً، بل هو ثباتٌ حتى المماتِ، سواءً عمّر السنين المتلاحقة، أو قصر عمره، أرايت هؤلاء الذين يتساقطون في الطريق بعد أن كانوا يوماً من الأيام من المتدبّرين المصلّين، فإذا بهم يتساقطون، هؤلاء لم يحقّقوا النصر، إنما النصر هو ألا يأتي الموت إلا وأنت مسلمٌ طوال هذا الخطّ، والفتن بأنواعها المختلفة تعترضك في طريقك، وأنت ثابتٌ صابرٌ؛ لذا قال الحقُّ **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لِنَبِيِّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ -**: ﴿وَلَقَدْ نَعَلْنَا أَنَّاكَ بِضَيْقِ صَدْرِكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿١٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿١٨﴾ وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿١٩﴾﴾ [الحجر: ٩٧-٩٩].

أي: عبادةٌ مُستمرّةٌ حتى المماتِ؛ لأننا نعيش في أزمنةٍ كثرت فيها الفتن التي تصدُّ عن الدين، فأنت لا تلتفت هنا أو هناك إلا وتجد من يفتنك في دينك في شهواتٍ وشبهاتٍ تصدُّ عن الدين؛ لذا قال **عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ** كما جاء عند الترمذيّ

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه رقم (٤٥٩٣)، من حديث سبرة بن أبي فاكه **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**.

وأخرجه أيضاً أحمد (٤٨٣/٣)، والنسائي: كتاب الجهاد، باب ما لمن أسلم وهاجر وجاهد، رقم (٣١٣٤).

في سُنَّته: «يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ الصَّابِرُ فِيهِمْ عَلَى دِينِهِ كَالْقَابِضِ عَلَى الْجَمْرِ»^(١) أي: الذي يُرِيدُ أَنْ يُصَلِّيَ الصَّلَوَاتِ الْحَمْسَ فِي جَمَاعَةٍ، والذي يُرِيدُ أَنْ يَتَدَيَّنَ وَيَهْتَدِيَ بِهِدْيِ النَّبِيِّ ﷺ كَالْقَابِضِ عَلَى الْجَمْرِ؛ لهذا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ»^(٢) يَخْشَى عَلَى قَلْبِهِ مِنَ الانْحِرَافِ وَهُوَ النَّبِيُّ الْمُوَيَّدُ ﷺ.

وَلْتَدَبَّرْ مَا جَاءَ فِي قِصَّةِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَالسَّحْرَةَ، فَقَدْ جَاءَ السَّحْرَةَ يُرِيدُونَ نَوْعًا مِنْ أَنْوَاعِ الْإِنْتِصَارَاتِ عَلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا جَاؤُوا إِلَى فِرْعَوْنَ: ﴿وَجَاءَ السَّحْرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لِنِ الْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [الأعراف: ١١٣-١١٤].

وَهَذَا نَوْعٌ مِنَ الْإِنْتِصَارِ ﴿قَالُوا يَمُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَأَسْرَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَّ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَعَلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَغِيرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأَلْقَى السَّحْرَةَ سَاجِدِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [الأعراف: ١١٤-١٢٠].

جَاؤُوا لِيُعْلِنُوا الْكُفْرَ عَلَى مُوسَى فَإِذَا هُمْ سَاجِدِينَ لِلَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ﴿قَالُوا أءَأَمَّنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٠-١٢٢].

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الفتن، رقم (٢٢٦٠)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وأخرجه بنحوه أحمد (٣٩٠ / ٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
 (٢) أخرجه مسلم: كتاب القدر، باب تصريف الله تعالى القلوب، رقم (٢٦٥٤)، من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

يُهدِّدُهُمْ فِرْعَوْنُ بِالتَّقْطِيعِ وَالتَّنْكِيلِ وَالصَّلْبِ بَعْدَ أَنْ كَانَ يَعِدُّهُمْ قَبْلَ قَلِيلٍ
بِالمُكَافَاةِ عَلَى نَصْرِهِمْ، لَكِنَّهُمْ اخْتَلَفَتْ رُؤَاهُمْ فِي النَّصْرِ، فَرَأَوْا النَّصْرَ أَنْ يَمُوتُوا
عَلَى الإِسْلَامِ.

﴿قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿١٣٥﴾ وَمَا نُنْقِمُ مِنْآ إِلَّا أَنْ ءَامَنَّا بِثَابِتِ رَبِّنَا لَمَّا
جَاءَنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ [الأعراف: ١٢٥-١٢٦].

وَلَسْتُ أَبَالِي حِينَ أُقْتَلُ مُسْلِمًا عَلَى أَيِّ جَنْبٍ كَانَ لِلَّهِ مَصْرَعِي
وَذَلِكَ فِي ذَاتِ الإِلَهِ وَإِنْ يَشَاءُ يُبَارِكُ عَلَى أَوْصَالِ شِلْوٍ مُمْنَعٍ^(١)

• • k • •

(١) البيتان لحبيب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أخرجه البخاري: كتاب المغازي، رقم (٣٩٨٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

K

K

(١٧)

تَعْظِيمُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى

• • K • •

إِنَّ أَعْظَمَ عِبَادَةٍ يَتَقَرَّبُ بِهَا الْعَبْدُ إِلَى اللَّهِ هِيَ عِبَادَةُ تَعْظِيمِ اللَّهِ، وَهِيَ مِنَ الْعِبَادَاتِ الْمَغْفُولِ عَنْهَا، وَهِيَ أَعْظَمُ الْعِبَادَاتِ عَلَى الْإِطْلَاقِ؛ لِعَظِيمِ شَأْنِ اللَّهِ وَسُلْطَانِهِ وَجَلَالِهِ تَقَدَّسَ - سُبْحَانَهُ - وَيَتَفَرَّغُ مِنْ هَذِهِ الْعِبَادَةِ سَائِرُ الْعِبَادَاتِ، فَإِذَا امْتَلَأَ هَذَا الْقَلْبُ بِتَعْظِيمِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى خَافَهُ وَرَجَاهُ؛ فَلَمْ يَقَعْ فِي ظُلْمٍ لِنَفْسِهِ وَلَا لِغَيْرِهِ، وَلَمْ يُؤْمَلْ وَيَرْجُحْ غَيْرُهُ - سُبْحَانَهُ - لَذا إِذَا أَطَّلَعْنَا فِي آيَاتِ اللَّهِ الْمُتَوَّاةِ، وَآيَاتِهِ الْكُونِيَّةِ وَجَدْنَا أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يُعَرِّفُنَا بِنَفْسِهِ، وَيَمْدَحُ نَفْسَهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى كَمَا جَاءَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لَيْسَ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ الْمَدْحُ مِنَ اللَّهِ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ مَدَحَ نَفْسَهُ»^(١).

فحينما يُعَرِّفُنَا الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِنَفْسِهِ وَبِعَظَمَتِهِ وَجَلَالِهِ وَسُلْطَانِهِ وَبِقُدْرَتِهِ وَقُوَّتِهِ، فَإِنَّهُ يَمْدَحُ نَفْسَهُ - سُبْحَانَهُ - حَتَّى يَعْظُمَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِ خَلْقِهِ إِنْسِهِمْ وَجَنِّهِمْ، وَجَمِيعِ مَخْلُوقَاتِهِ، قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَهُوَ يَمْدَحُ نَفْسَهُ: ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١) لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۗ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢) هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ۗ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣) هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾، رقم (٤٦٣٤)، ومسلم: كتاب التوبة، باب غيرة الله تعالى وتحريم الفواحش، رقم (٢٧٦٠)، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٦﴾ [الحديد: ١-٦].

إنَّ هذه الآياتِ الدَّالة على عظمةِ الله تبارك وتعالى وأنه مُطَّلِعٌ علينا في شأننا كُلِّهِ تَهَيُّرُ الأبدانِ والقلوبِ؛ لذا عابَ المولى تبارك وتعالى على الذين لم يُعظِّمُوهُ - وهذا كثيرٌ في كتابه - ثم أزدَفَ هذا الاستِنكارَ عليهم بيانِ عظمته - سبحانه - ففي سورة نوح قال الحقُّ سبحانه وتعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾﴾ [نوح: ١٣] أي: ما لكم لا تُعظِّمُونَ الله ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ [نوح: ١٣-٢٠].

وقال - سبحانه - في سورة الأنعام: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ۗ قُلْ مَن أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۗ لِيَجْعَلَ لَهُمْ قَرَاطِيسَ يُبَدُّونَهَا وَيُخْفُونَ كَثِيرًا ۗ وَعَلَّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا ءَابَاؤُكُمْ ۗ قُلْ اللَّهُ ۗ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾﴾ [الأنعام: ٩١].

وقال - سبحانه - في سورة الحج: ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾ [الحج: ٧٤].

وقال - سبحانه - في سورة الزمر: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ۗ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا

فَبَضَّتْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ، سُبْحَانَهُ، وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ [الزمر: ٦٧].

وكذا يُعَرِّفُنَا رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ - بِرَبَّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَبَيَّنَّ لَنَا عِظَمَةَ الْخَالِقِ - سُبْحَانَهُ - حَتَّى يَعْظَمَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِنَا فَلَا نَصْرِفُ عِبَادَةً لغيرِهِ؛ وَلَا نَخَافُ غيرَهُ؛ وَلَا يُرَجَى وَلَا يُؤَمَّلُ غيرُهُ؛ لِأَنَّهُ هُوَ الْعَظِيمُ سُبْحَانَهُ.

فَإِذَا امْتَلَأَتِ الْقُلُوبُ بِعِظَمَةِ اللَّهِ انْقَادَتْ إِلَيْهِ وَإِلَى شَرَعِهِ، فَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَمَا جَاءَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ: «يَطْوِي اللَّهُ عَزَّجَلَّ السَّمَوَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُهَا بِبِيَمِينِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيُّنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيُّنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟ ثُمَّ يَطْوِي الْأَرْضِينَ بِشِمالِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيُّنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيُّنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟»^(١).

وَنَحْنُ نَقْرَأُ مِثْلَ هَذَا الْحَدِيثِ، هَلْ يُفَكِّرُ أَحَدٌ مِنَّا يَوْمًا أَنْ يَكُونَ مُتَكَبِّرًا عَلَى خَلْقِ اللَّهِ، أَوْ مُتَجَبِّرًا أَوْ ظَالِمًا أَوْ هَاتِكًا لِحُرْمَاتِ غيرِهِ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ الْعَظِيمَ هُوَ اللَّهُ، الَّذِي يَتَوَعَّدُ هَؤُلَاءِ الْمُتَكَبِّرِينَ الْمُتَجَبِّرِينَ، بَلْ قَالَ ﷺ كَمَا جَاءَ فِي مُسْنَدِ أَحْمَدَ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ: «يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، وَالْعِظَمَةُ إِزَارِي، فَمَنْ نَارَعَنِي وَاحِدَةً مِنْهَا أَلْقَيْتُهُ فِي جَهَنَّمَ»^(٢).

وَجَاءَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ أَيْضًا: «يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ

(١) أخرجه مسلم: كتاب صفة القيامة، رقم (٢٧٨٨)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه أحمد (٤١٤/٢)، وأبو داود: كتاب اللباس، باب ما جاء في الكبر، رقم (٤٠٩٠)، وابن ماجه: كتاب الزهد، باب البراءة من الكبر، رقم (٤١٧٤).

وأخرجه مسلم: كتاب البر والصلة، باب تحريم الكبر، رقم (٢٦٢٠)، من حديث أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما، بلفظ: «العز إزاره، والكبرياء رداؤه، فمن ينارعني عذبتة».

وَأَخْرَكُمْ، وَإِنْسَكُمُ وَجِنَّكُمْ، فَأَمُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ وَاحِدٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمَخِيطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ»^(١).

فلا تعجز عن سؤال الله، ولا تجعل لدُعائك سقفًا تقف عنده، بل اسأل الله -تعالى- ما شئت من خيرَي الدنيا والآخرة، فإن خزائنه مملأى، ويمينه سحاء الليل والنهار لا ينقصها شيء.

وقد عظم الخلق خالقهم **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** حتى هذه الجهادت التي نراها، فنحن نقرأ في قول الحق -سبحانه-: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ۝ ﴿١٨﴾﴾ [الحج: ١٨].

ودليل تعظيمك لله سجدتك لله، ورؤوعك لله، وانحنائك لشرع الله، وإخضاع أهوائك وعواطفك لله، فقد انقادت هذه الأشجار والجبال والنجوم والكواكب وهي أعظم خلقنا من خلقنا.

وإذا التفت ورأيت من لا يعظم الله كمن يعظم البقر، أو الشمس، أو القبور، أو الأحجار، أو الأدميين أمثالهم لا بد أن تصيبك رعشة وخوف، وتستنكر ذلك في قلبك، وتستنكره على الملائكة، ولا يكن هدهد سليمان **عَلَيْهِ السَّلَامُ** أفضل حالاً منا، فإنه حين خرج ووجد أمة من الناس يسجدون للشمس من دون الله، وقد عظم

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلوة، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٧٧)، من حديث أبي ذر الغفاري **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**.

الله في قلبه، فجاء إلى سليمان مُسْتَنْكِرًا، قال: ﴿إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾﴾ [النمل: ٢٣-٢٦].

هذهُ يقولُ ذلك، بل سنذهبُ إلى ما هو أبعدُ من ذلك: السماواتُ، الجبالُ، الأرضينَ، تستنكرُ إذا وجدتُ مَنْ لَمْ يُعْظِمِ اللهَ، فقد قال الحقُّ - سبحانه - في سورة مريم: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾﴾ [مريم: ٨٨].

وكم نسمعُ نحنُ مَنْ يقولُ: اتَّخَذَ الرحمنُ ولدًا، ومُهَيَّئُهُ ونباركُ له، واللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يُرِينَا كَيْفَ تَسْتَنْكِرُ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَالْجِبَالُ ﴿٨٨﴾ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًا ﴿٩٠﴾ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾﴾ [مريم: ٨٨-٩٢].

قال الصَّحَّاحُ - رحمه الله تعالى - كما جاء في تفسير ابن كثير: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ﴾ [مريم: ٩٠] أي: يَتَشَقَّقْنَ فَرَقًا مِنْ عِظْمَةِ اللَّهِ (١).

فعظمةُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَا بُدَّ أَنْ تَعْظَمَ فِي هَذِهِ الْقُلُوبِ، وَأَكْثَرُ مَا يُضْعَفُ عِظْمَةُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي قُلُوبِنَا: الذُّنُوبُ وَالْمَعَاصِي.

قال ابنُ القيم - رحمه الله تعالى - في كتابه الجوابِ الكافي: وَمِنْ عُقُوبَاتِ الذُّنُوبِ أَنَّهَا تُضْعَفُ فِي الْقَلْبِ تَعْظِيمَ الرَّبِّ - جَلَّ جَلَالُهُ - وَتُضْعَفُ وَقَارُهُ فِي

(١) تفسير ابن كثير (٥/٢٦٦).

قَلْبِ الْعَبْدِ، وَلَا بُدَّ شَاءَ أَوْ أَبِي ^(١).

فكُلَّمَا عَصَى الْعَبْدُ رَبَّهُ ضَعُفَ تَعْظِيمُهُ لِخَالِقِهِ **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**، وَمَا مِنَّا مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ أَعْطَاهُ اللَّهُ **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** مِنَ الْمَوَاهِبِ وَالْقُدْرَاتِ، فِيمَا أَنْ يَصْرِفَ هَذِهِ الْمَوَاهِبَ وَالْقُدْرَاتِ فِي طَاعَةِ اللَّهِ أَوْ يَصْرِفَهَا فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ، وَمِنْ أَعْظَمِ مَا تُصْرِفُ بِهِ الْمَوَاهِبُ وَالْقُدْرَاتِ: تَعْظِيمُ اللَّهِ **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** فِي قُلُوبِ الْخَلْقِ.

فَإِذَا أَعْطَاكَ اللَّهُ **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** قُوَّةً وَمَوْهَبَةً أَعْمَلْ عَلَى تَعْظِيمِ اللَّهِ **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** فِي نَفْسِ النَّاسِ، فَإِنْ كُنْتَ صَاحِبَ قَلَمٍ عَظِيمٍ اللَّهُ **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** بِقَلَمِكَ، وَإِنْ كُنْتَ مُدَرِّسًا فَعَظِّمِ الْمَوْلَى **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** فِي قُلُوبِ تُلَّابِكَ، وَكَذَا إِنْ كُنْتَ صَاحِبَ مَوْهَبَةٍ آيًّا كَانَتْ عَظِيمِ اللَّهِ **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** مِنْ خِلَالِ مَا أَعْطَاكَ اللَّهُ مِنَ الْمَوَاهِبِ، شَاعِرًا كُنْتَ، أَوْ نَاقِدًا أَوْ كَاتِبًا، وَكَمْ هُوَ جَمِيلٌ مَا ذَكَرَهُ أَحَدُ الشُّعْرَاءِ فِي آيَاتٍ سَارَتْ بِهَا الرُّكْبَانُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ يُعَظِّمُ فِي تِلْكَ الْكَلِمَاتِ الْمَوْلَى - سُبْحَانَهُ - قَالَ:

قُلْ لِلطَّيِّبِ تَخَطَّفَتْهُ يَدُ الرَّدَى	يَا مُعَالِجِ الْأَوْجَاعِ مَنْ أَرَدَاكَ
قُلْ لِلْمَرِيضِ نَجَا وَعُوفِي بَعْدَمَا	عَجَزَتْ فُنُونُ الطَّبِّ مَنْ عَافَاكَ
قُلْ لِلصَّحِيحِ يَمُوتُ لَا مِنْ عِلَّةٍ	مَنْ بِالْمَنَائِيَا يَا صَحِيحُ دَهَاكَ
قُلْ لِلجَنِينِ يَعْيشُ مَعزُولًا بِلَا	رَاعٍ وَمَرْعَى مَا الَّذِي يَرَعَاكَ
قُلْ لِلْبَصِيرِ وَكَانَ يَحْذَرُ حُفْرَةَ	فَهَوَى بِهَا مَنْ ذَا الَّذِي أَهْوَاكَ
بَلْ سَائِلِ الْأَعْمَى مَشَى بَيْنَ الزَّحَا	مِ بِلَا اصْطِدَامٍ مَنْ يَقُودُ خُطَاكَ

(١) الجواب الكافي لابن القيم (ص: ٦٩).

وَإِذَا رَأَيْتَ الثُّعْبَانَ يَنْفُثُ سُمَّهُ
وَأَسْأَلُهُ كَيْفَ تَعِيشُ يَا ثُعْبَانُ
وَسَلْ بُطُونَ النَّحْلِ كَيْفَ تَقَاطَرْتِ
يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَهْلًا
فَأَسْجُدْ لِمَوْلَاكَ الْقَدِيرِ فَإِنَّهُ
وَتَكُونُ مَائِلًا فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ
فَأَسْأَلُهُ مَنْ بِالسُّمُومِ حَشَاكَ
أَوْ تَحْيَا وَهَذَا السُّمُّ يَمْلَأُ فَكَ
شَهْدًا وَقُلْ لِلشَّهِدِ مَنْ حَلَّاكَ
مَا الَّذِي بِاللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ أَغْرَاكَ
لَا بُدَّ يَوْمًا تَنْتَهِي دُنْيَاكَ
لِتُجْزَى بِمَا قَدْ قَدَّمْتَهُ يَدَاكَ^(١)

فالعاقِلُ مَنْ وَظَّفَ مَا وَهَبَهُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي تَعْظِيمِ الْخَالِقِ فِي نَفْسِهِ، وَفِي
نُفُوسٍ مِنْ حَوْلِهِ.

• • k • •

(١) الأبيات للشاعر إبراهيم بديوي، انظر: تعظيم الله جل جلاله «تأملات وقصائد» لأحمد بن
عثمان المزيد (ص: ٢٤٥-٢٤٧).



(١٨)

أوهن البيوت

•• k ••

قال الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنَ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ أَخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤١].

يَضْرِبُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَنَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ هَذَا الْمَثَلَ الْعَظِيمَ، وَيَبَيِّنُ لَنَا أَنَّ الْبُيُوتَ مُتَفَاوِتَةٌ فِي التَّمَاسُكِ، فَمِنْهَا الْقَوِيَّةُ، وَمِنْهَا الضَّعِيفُ، وَمِنْهَا مَا هُوَ أَوْهَنُ مِنْ الضَّعِيفِ مِمَّنْ أَصَابَهُ الْوَهْنُ وَعَدِمَ التَّمَاسُكَ.

وَأَوْهَنُهَا: بَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ، وَهَنْ فِي بِنَائِهَا الْحِسِّيُّ، وَوَهْنٌ فِي بِنَائِهَا الْمَعْنَوِيِّ، أَمَّا بِنَاؤُهَا الْحِسِّيُّ فَهُوَ مُشَاهِدٌ وَمُلاحَظٌ، فَتَحْتَ أَيِّ تَأْثِيرٍ يَتَفَتَّتْ وَيَتَفَكَّكُ، وَأَمَّا بِنَاؤُهَا الْمَعْنَوِيُّ فَضَعِيفٌ؛ لِأَنَّ أَسْوَأَ الْعِلَاقَاتِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ تَكُونُ فِي بَيْتِ الْعَنْكَبُوتِ، فَلِلْعَنْكَبُوتِ أَكْثَرُ مِنْ ثَلَاثِينَ أَلْفَ نَوْعٍ، مِنْ هَذِهِ الْأَنْوَاعِ أَنَّ الْأُنْثَى بَعْدَ التَّلْقِيحِ مِنَ الذَّكَرِ تَأْكُلُ الذَّكَرَ، وَمِنْ أَنْوَاعِهَا إِذَا كَبُرَ صِغَارُ الْعَنْكَبُوتِ أَكَلُوا أُمَّهَمُ وَقَتَلُوا أَبَاهُمُ.

فَجَعَلَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بَيْتَ الْعَنْكَبُوتِ وَهَذِهِ الْحَسْرَةَ مَثَلًا لِلْبُيُوتِ الْمُتَهَالِكَةِ، الَّتِي قَدْ نَعَتْزُ وَنَحْنُ نَرَاهَا فَتَحْسَبُ أَنَّهَا مُتَمَاسِكَةٌ؛ لِمَا فِيهَا مِنْ وَسَائِلِ خَدَاعَةٍ، وَمَنَاطِرَ زَائِفَةٍ، فَيُضْرَفُ عَلَيْهَا فِي بَدَايَاتِهَا عَشْرَاتِ الْأُلُوفِ مِنَ الدَّنَانِيرِ، بَلْ مِائَاتِ الْأُلُوفِ مِنَ الدَّنَانِيرِ، وَلَكِنَّهَا فِي الدَّخْلِ مُتَهَالِكَةٌ ضَعِيفَةٌ، أَصَابَهَا الْوَهْنُ.

وهناك أسبابٌ تجعلُ بيوتنا ضعيفةً غيرَ متماسكةٍ، ممَّا يكونُ بينَ الزَّوجِ وزَوْجَتِهِ مِن وَهْنٍ فِي الْعِلَاقَةِ، تَرَاهَا فَتَعْتَرُّ، لَكِنَّكَ إِذَا دَخَلْتَ فِي هَذِهِ الْبُيُوتِ وَجَدْتَ فُرْقَةً وَخِصَامًا وَهَجْرًا:

السَّبَبُ الْأَوَّلُ: عَدَمُ الرِّضَا بِالْقَضَاءِ: وهو سببٌ رئيسٌ لِتَصَدُّعِ بُيُوتِنَا مِنَ الدَّخْلِ، فَقَدْ لَا يَرْضَى الرَّجُلُ عَنِ قَسَمِهِ الَّذِي قَسَمَهُ اللَّهُ لَهُ فِي هَذِهِ الزَّوْجَةِ، أَوْ مَا حَصَلَ لَهَا مِنْ تَغْيِيرٍ، بَعْدَ أَنْ كَانَتْ شَابَّةً حَسَنَةً الْوَجْهِ حَسَنَةَ الْجِسْمِ، فَإِذَا هِيَ تَغَيَّرَتْ بِأَثَرِ الْوِلَادَةِ وَالْأَمْرَاضِ وَتَقَدَّمَ السِّنُّ، فَإِذَا بِهِ يَعْتَرِضُ عَلَى هَذَا الْقَضَاءِ بِالتَّسْحُطِ وَرُبَّمَا بِالْخِيَانَةِ.

واللهُ -تعالى- يَقُولُ فِي كِتَابِهِ الْكَرِيمِ: ﴿ وَمَنْ ءَايَنْتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم: ٢١].

ومراحلُ العِلَاقَةِ بَيْنَ الرَّجُلِ وَزَوْجَتِهِ تَمُرُّ بِهَذِهِ الْمَرَاهِلِ الثَّلَاثِ:

المرحلةُ الْأُولَى: السَّكْنُ فَهُوَ يَسْكُنُ إِلَيْهَا، وَهِيَ تَسْكُنُ إِلَيْهِ، وَلَكِنْ رَبِّمَا تَغَيَّرَ الْأُمُورُ وَتَعَصَفُ هَذَا الْبَيْتِ الْعَوَاصِفُ؛ فَلَا يَسْكُنُ إِلَيْهَا وَلَا تَسْكُنُ إِلَيْهِ، فَيَتَّقِلُونَ إِلَى مَرَحِلَةٍ أُخْرَى تُقَوِّي الْعِلَاقَةَ وَهِيَ: الْمَوَدَّةُ، وَرَبَّمَا تَتَقَطَّعُ حِبَالُ الْمَوَدَّةِ؛ فَيَبْقَى بَيْنَ الزَّوْجِ وَالزَّوْجَةِ الرَّحْمَةُ، يَرْحُمُهَا وَلَيْسَ بِالضَّرُورَةِ أَنْ يَكُونَ مُحِبًّا لَهَا، أَوْ مُعْجَبًا بِهَا، بَلْ يَرْحُمُهَا؛ لِأَنَّهَا أُمُّ أَبْنَائِهِ، أَوْ لِلْعِشْرَةِ الَّتِي بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا، أَوْ لِيَكْسِبَ الْأَجْرَ فِيهَا.

قال رسولُ اللهِ ﷺ كما جاءَ عِنْدَ التِّرْمِذِيِّ فِي سُنَنِهِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ:

«وَأَرْضٌ بِمَا قَسَمَ اللَّهُ لَكَ تَكُنُ لَكَ أَعْنَى النَّاسِ»^(١).

قاعدة عظيمة؛ فهذه المرأة الحسنة التي تزوجتها قد تتغير، القوية قد تضعف، والسليمة قد تمرض؛ لذا قال الربيع بن أنس -رحمه الله تعالى-: «علامة الشكر: الرضا بقدر الله والتسليم لقضائه»^(٢).

فأحوالنا تتبدل، أنت أيضاً تضعف وتمرض، ومن بعد الغنى ربما تكون فقيراً، هذه لا بد منها، كما قيل:

ثَمَانِيَةٌ لَا بُدَّ مِنْهَا عَلَى الْفَتَى وَلَا بُدَّ أَنْ تَجْرِيَ عَلَيْهِ الثَّمَانِيَةُ
سُرُورٌ وَهَمٌّ وَاجْتِمَاعٌ وَفُرْقَةٌ وَيُسْرٌ وَعُسْرٌ ثُمَّ سَقَمٌ وَعَافِيَةٌ

وقد قال أبو عثمان النيسابوري بعدما سأله سائل: يا أبا عثمان ما أُرْجى عمالك عندك؟ قال: كُنْتُ فِي صَبُوتِي يَجْتَهِدُ أَهْلِي أَنْ أَنْزَوْجَ فَأَرْفُضُ وَأَتَمِّعُ وَأُبْرِّرُ، حَتَّى جَاءَتْنِي فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ امْرَأَةٌ قَالَتْ: يَا أبا عُثْمَانَ، إِنِّي قَدْ هَوَيْتُكَ، وَأَسْأَلُكَ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ أَنْ تَتَزَوَّجَنِي، قَالَ: فَقَبِلْتُ؛ فَأَحْضَرْتُ أَبَاهَا وَكَانَ شَيْخًا فَقِيرًا فَتَزَوَّجْتُ بِهَا، فَفَرِحَ وَفَرِحَتْ بِذَلِكَ، فَلَمَّا أُدْخِلْتُ إِلَيَّ وَنَظَرْتُ إِلَيْهَا فَإِذَا هِيَ: عَوْرَاءُ عَرَجَاءُ وَفِيهَا وَفِيهَا، فَمَكَّثْتُ عِنْدِي، وَكَانَتْ مِنْ شِدَّةٍ وَلَعِهَا بِي تَقُولُ: لَا تَخْرُجْ مِنَ الْبَيْتِ، ابْقَ مَعْنَا، فَكُنْتُ أَجْلِسُ الْأَيَّامَ الطَّوَالَ، وَأَجْعَلُ لَهَا الْأَوْقَاتَ الْكَثِيرَةَ، أَجْلِسُ عِنْدَهَا جَبْرًا لِحَاظِهَا، وَحِفْظًا لِقَلْبِهَا، وَمُرَاعَاةً لِمَشَاعِرِهَا، وَأَنَا عَلَى أَحْرَّ مِنْ جَهْرِ الْعَضَى، لَكِنَّهُ

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٣١٠)، والترمذي: كتاب الزهد، باب من اتقى المحارم فهو أعبد الناس، رقم (٢٣٠٥).

(٢) ذكره ابن القيم في مدارج السالكين (٢/ ٢١٠).

جَبْرٌ لِلخَوَاطِرِ، قَالَ: فَمَكَثْتُ عِنْدِي خُمْسَةَ عَشَرَ سَنَةً ثُمَّ مَاتَتْ، فَمَا مِنْ عَمَلٍ أَرْجِي عِنْدِي مِنْ حِفْظِي لِقَلْبِهَا وَمُرَاعَاتِي لَشُعُورِهَا^(١).

إِنَّهُ التَّسْلِيمُ بِقِضَاءِ اللَّهِ؛ لِتَحْفَظَ هَذِهِ الْبُيُوتُ مِنَ التَّصَدُّعِ، وَلِتَتَمَّاسَكَ وَلَا يَتَنَاطَرَ أَهْلُهَا.

السَّبَبُ الثَّانِي: كَثْرَةُ الْوُقُوعِ فِي الْمَعَاصِي وَالذُّنُوبِ: وَوَاللَّهِ إِنَّ الذَّنْبَ الَّذِي تَرْتَكِبُهُ أَوَّلُ مَا يَتَأَثَّرُ بِهِ أَهْلُنَا، فَتَحْدُثُ الْفُرْقَةُ مِنْ حَيْثُ لَا نَعْلَمُ، يُخْرِجُ الرَّجُلَ فَيُذَنِّبُ فَيَرْجِعُ إِلَى أَهْلِهِ فَيَجِدُ النُّفْرَةَ مِنْهُمْ، وَيَجِدُونَ النُّفْرَةَ مِنْهُ، دَلٌّ عَلَى ذَلِكَ الْوَحْيِ الَّذِي نَطَقَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ فَقَدْ جَاءَ فِي مُسْنَدِ أَحْمَدَ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، مَا تَوَادَّ اثْنَانِ فَفُرِّقَ بَيْنَهُمَا إِلَّا بِذَنْبٍ يُحْدِثُهُ أَحَدُهُمَا»^(٢).

وَلَيْسَ هُنَاكَ أَفْضَلُ مِنْ هَذَا الْبَيَانِ، فَلَا يَسْتَعْرَبُ شَارِبُ الْخَمْرِ، وَلَا الزَّانِي، وَلَا الْمُرَابِي، وَلَا الْعَاصِي مَا يَحْدُثُ مِنْ نُفْرَةٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَهْلِهِ، فَهَذَا هُنَا الْإِشْكَالُ وَجُودُ الْمَعَاصِي وَالذُّنُوبِ، وَاللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَمَا جَاءَ عِنْدَ الطَّبْرَانِيِّ فِي مُعْجَمِهِ الصَّغِيرِ: «مَا اخْتَلَجَ عِرْقٌ» أَي: نَبَضَ «وَلَا عَيْنٌ إِلَّا بِذَنْبٍ، وَمَا يَدْفَعُ اللَّهُ عَنْهُ أَكْثَرَ»^(٣).

(١) ذكره ابن الجوزي في صيد الخاطر (ص: ٤٠٥-٤٠٦).

(٢) مسند أحمد (٢/٦٨).

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الصغير رقم (١٠٥٣)، من حديث البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقال ابنُ القَيِّم - رحمه اللهُ تعالى - في كتابه الجوابِ الكافي: ومن عُقوباتها - أي: المعاصي والذُنُوب - أُنَّها تَمَحُّقُ بَرَكةَ العُمُرِ، وبَرَكةَ الرِّزْقِ، وبَرَكةَ العِلْمِ، وبَرَكةَ العَمَلِ، وبَرَكةَ الطَّاعَةِ، وبالجملة: أُنَّها تَمَحُّقُ بَرَكةَ الدِّينِ والدُّنيا^(١).

بل يَنْقُلُ في نَفْسِ الكِتَابِ، الجوابِ الكافي، قال: وقال بعضُ السَّلَفِ: إني لَأَعْصِي اللهَ فَأَعْرِفُ ذلكَ في خُلُقِ امْرَأَتِي ودَابَّتِي^(٢).

إنَّ للذَّنْبِ تَأْثِيرًا، مَجْرَدُ نَظَرِ الرَّجُلِ لامْرَأَةٍ غيرِ زَوْجَتِهِ يُؤَثِّرُ عليه وَيَجِدُ غِبَّةً ولو بعد حينٍ.

قال أبو عبدِ اللهِ بنُ الجَلَاءِ - وقد ذَكَرَ هذا الأثرَ ابنُ الجَوْزِيِّ في كتابه ذَمُّ الهوى -: كُنْتُ واقفًا أَنْظُرُ إلى غُلامٍ نَصْرانيٍّ حَسَنِ الوَجْهِ، فَمَرَّ بي أبو عبدِ اللهِ البَلْخِيُّ فقلتُ: يا عَمُّ، أترى أنَّ هذا الوَجْهَ يُعَذِّبُ بالنَّارِ؟ قال: فَضَرَبَ أبو عبدِ اللهِ بيده بين كَتِفَيَّ، وقال: لَتَجِدَنَّ غِبَّها ولو بعد حينٍ - أي: لَتَجِدَنَّ أثرَ هذه الكَلِمَةِ وهذه النَّظْرَةِ ولو بعد حينٍ - قال ابنُ الجَلَاءِ: فَوَجَدْتُ غِبَّها بعدَ أَرْبَعِينَ سَنَةً، أُنْسِيْتُ القرآنَ كُلَّهُ!^(٣)

هذا وهو حافظٌ للقرآنِ، لم يَكُنْ مِنَ العُصاةِ المَشهورينَ بالمَعْصيةِ.

لَمَّا وَقَعَ في هذا الذَّنْبِ: النَّظَرِ المَحْرَمِ إلى شابٍّ بشهوةٍ، واعتَرَضَ هل يُعَذِّبُ هذا بالنَّارِ؟ وَجَدَ غِبَّها بعدَ أَرْبَعِينَ سَنَةً؛ لذا يقولُ محمودُ الوَرَّاقُ رحمه اللهُ:

(١) الجواب الكافي لابن القيم (ص: ٨٤).

(٢) الجواب الكافي لابن القيم (ص: ٨٩).

(٣) ذم الهوى لابن الجوزي (ص: ١٢٧).

رَأَيْتُ صَاحَ الْمَرْءِ يُصْلِحُ أَهْلَهُ وَيَعْدِيهِمْ دَاءَ الْفَسَادِ إِذَا فَسَدَ
وَيَشْرَفُ فِي الدُّنْيَا بِفَضْلِ صَاحِحِهِ وَيُحْفَظُ بَعْدَ الْمَوْتِ فِي الْأَهْلِ وَالْوَالِدِ^(١)

السَّبَبُ الثَّلَاثُ: الْمُقَارَنَةُ: فحينما يُقَارَنُ الرَّجُلُ ما يراه في نِسَاءٍ خَارِجَ بَيْتِهِ بما يراه في بَيْتِهِ في امرأته فَإِنَّ هَذَا سَبَبٌ لِلتَّصَدُّعِ وَالْوَهْنِ، يَرَى هَذِهِ الْمَرْأَةَ فِي صُورَتِهَا فِي تَلْفَازٍ، أَوْ فِي صَحِيفَةٍ، أَوْ فِي شَارِعٍ، أَوْ فِي عَمَلٍ، يراها وقد تَزَيَّنَتْ وَتَغَنَّجَتْ وَتَعَدَّلَتْ، فَإِذَا بِهِ يَلْتَفِتُ إِلَى أَهْلِهِ فَلَا يَرَاهُمْ شَيْئًا؛ فَتَتَصَدَّعُ الْبُيُوتُ، يَرَى الْمَرْأَةَ وَلَهَا مِنَ الْعُمُرِ عَشْرُونَ سَنَةً فَيَلْتَفِتُ فَيَرَى امْرَأَتَهُ الَّتِي تَجَاوَزَتْ الْأَرْبَعِينَ؛ فَلَا يراها شَيْئًا!

قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿أَهْمٌ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ^ع نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا^ع وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرِيًّا^ط وَرَحِمْتَ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ^{٣٢}﴾ [الزخرف: ٣٢].

والعاقِلُ هو الذي لا يَسْمَحُ لهذا النَّظَرِ ولا لهذا الْفِكْرِ بالتَّجَوُّلِ فيما عند النَّاسِ؛ فَإِنَّهُ يَعْجِزُ، وَاَنْظُرْ إِلَى هَذَا التَّوَجُّهِ الرَّبَّانِيِّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ^ع وَرَزَقْنَاكَ مِنْ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ^{١٣١}﴾ [طه: ١٣١].

إِذَا: ماذا أَفْعَلُ؟

الجوابُ: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا^ط لَا تَسْأَلْكَ رِزْقًا^ط نَحْنُ نَرْزُقُكَ^ط وَالْعَقِبَةُ لِلنَّقْوَىٰ^{١٣٢}﴾ [طه: ١٣٢].

(١) البيتان لمحمود الوراق، ديوانه (ص: ٩٧).

قال ابن الجوزي في كتابه صيد الخاطر كلامًا في غاية الرّوعة، قال: قد يرى الإنسان امرأة في ثيابها -أي: في حجابها ما يرى منها شيء أبدًا ولا وجهها- فيتخايل إليه أنّها أحسن من زوجته^(١).

فكيف بالذي يرى العارية المتبرّجة السّفور؟!!

ثم قال بعد كلامٍ في كتابه القيم: وهذا المعنى هو الذي أوقع الزّناة في الفواحش^(٢).

السّاح للمقارنة بالنظر، والسّاح للمقارنة بالفكر.

•• k ••

(١) صيد الخاطر لابن الجوزي (ص: ٣٠٩).

(٢) صيد الخاطر لابن الجوزي (ص: ٣٠٩).



(١٩)

الوقت

• • k • •

أعمارنا هذه التي نقضيها لا تُقاسُ بعددِ السَّنواتِ والشُّهورِ والأيَّامِ، إنَّما تُقاسُ بما اسْتَفَدْنَا في تلكِ السَّنينَ والشُّهورِ والأيَّامِ، جَعَلَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى للوقتِ أَهْمِيَّةً، وَعَظَّمَ مِنْ شَأْنِهِ.

فأقسَمَ به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فقال: ﴿وَالْفَجْرِ ١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ٢﴾ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسِرُّ ٤﴾ [الفجر: ١-٤].

وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ١﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى ٢﴾ [الليل: ١-٢].

وقال: ﴿وَالضُّحَى ١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ٢﴾ [الضحى: ١-٢].

وقال: ﴿وَالْعَصْرِ ١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ ٢﴾ [العصر: ١-٢].

وهذا القَسَمُ بهذه الأوقاتِ دالٌّ على أَهْمِيَّةِ هذا الوقتِ، فالوقتُ عند المُسْلِمِ عَظِيمٌ وله شَأْنٌ عَظِيمٌ، وهو واحدٌ مِنْ نِعَمِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَيْنَا أَنْ يَسِّرَ لَنَا أوقاتاً نَعْمُرُها بِذِكْرِهِ؛ فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مُمْتَنِّئاً على عِبَادِهِ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ١﴾ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ٢﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ١٢﴾ [النحل: ١٢].

يَمْتَنُّ الحَقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَيْنَا بنِعْمَةِ الوَقْتِ. وقال رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

كما جاء في حديث ابن عباسٍ عند البخاري: «نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصَّحَّةُ وَالْفَرَاغُ»^(١).

والوقتُ خزائنةٌ نَضَعُ فيها ما نشاءُ، ثم نحاسبُ على ما وضَعناه، فنَضَعُ فيها الخيرَ، أو نَضَعُ فيها الشرَّ.

وقد رُوِيَ عن عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ: إِنَّ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِزَانَتَانِ فَاَنْظُرُوا مَا تَضَعُونَ فِيهِمَا^(٢).

فالوقتُ لا بُدَّ من اسْتِغْلَالِهِ في تحصيلِ الحسناتِ ورفَعِ الدرجاتِ وإلاَّ فالحسرةُ عليه عظيمةٌ يومَ القيامةِ.

قال الله سُبحانَهُ وتعالى: ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِئْنَا بِيَوْمِنَا بِالْجَهَنَّمَ يَوْمِنَا يَنْذَكُرُ الْإِنْسَانَ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى ﴿٢٣﴾ يَقُولُ بَلَيْتَنِي فَذَمَّتْ لِحْيَاتِي ﴿٢٤﴾﴾ [الفجر: ٢١-٢٤] أي: يا لَيْتَنِي وَضَعْتُ شَيْئًا في تلك الخزائنِ، يا لَيْتَنِي عَمَرْتُ ذلكَ الوقتَ الذي قَضَيْتُهُ.

وكذا يقولُ الحقُّ سُبحانَهُ وتعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ الْعَذَابُ بِغَتَّةٍ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [الزمر: ٥٥-٥٦].

يَتَحَسَّرُ على الساعةِ التي مَرَّتْ، بل على ما هو أَقْلٌ مِنْ ذلك، يَتَذَكَّرُ تلكَ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب لا عيش إلا عيش الآخرة، رقم (٦٤١٢).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في الزهد رقم (٤٢٣)، والبيهقي في الزهد الكبير رقم (٧٨٠).

الأوقات التي مرّت، والأنفاس التي راحت ولم يملأها بحسنةٍ تُكتسب، وما رُفِعَ له فيها درجةٌ.

إنَّ الوقتَ أنفاسٌ إذا ذهبَتْ لا تعودُ، فواللهِ إننا لا نستطيعُ أنْ نَسْتَرِدَّ نَفْسًا مَضَى قَبْلَ دَقِيقَةٍ واحدةٍ، فَضْلاً عن أنْ نَسْتَرِدَّ يوماً أو سنةً مَضَتْ، وما مِنَّا أحدٌ الآنَ يَنْظُرُ خَلْفَهُ في السنينَ التي مَضَتْ إلا وهو يقولُ: يا لَيْتَنِي ويا لَيْتَنِي؛ لذا قال الحَسَنُ **رَحِمَهُ اللهُ**: يا ابنَ آدَمَ، إنَّما أنتَ أَيَّامٌ إذا ذَهَبَ يومٌ ذَهَبَ بَعْضُكَ ^(١).

يُشَبِّهُ الحَسَنُ البَصْرِيُّ هذه الأيَّامَ بهذه الرُّزْنامَةِ ^(٢) التي نَضَعُها أماننا، وفي كُلِّ يومٍ نَقْطَعُ منها وَرْقَةً، لا يُمكنُ أنْ يُعوَدَ يومٌ من أَيَّامِ ألفٍ وأربعمائةٍ وخمسةٍ وثلاثينَ للهجرةِ، فما مَضَى مَضَى، بل إنَّ الرُّزْنامَةَ إذا مَضَى عليها سنةٌ لا يُمكنُ أنْ نَسْتَفِيدَ منها كما لا يُمكنُ أنْ نَسْتَفِيدَ من أَيَّامِنا الماضيةِ.

وَصَدَقَ ابنُ عُمَرَ **رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا** حينما قالَ -والحديثُ في البُخاريِّ-: «إذا أَمْسَيْتَ فلا تَنْتَظِرِ الصُّبْحَ، وإذا أَصْبَحْتَ فلا تَنْتَظِرِ المَساءَ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ» ^(٣).

ما أَجْمَلَ هذا التَّوَجِيهَ! الآنَ أنتَ في صِحَّةٍ فَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِيَوْمِ مَرَضِكَ، وَخُذْ مِنْ حَيَاتِكَ لِيَوْمِ مَوْتِكَ، هكذا يَتَعامَلُ العاقِلُ مع وَقْتِهِ.

(١) انظر: جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي (٢/٣٨٢).

(٢) الرزنامة: كتيب يتضمن معرفة الأيام والشهور، وطلوع الشمس والقمر على مدار السنة. المعجم الوسيط (١/٣٤٣).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب قول النبي **ﷺ**: «كن في الدنيا كأنك غريب»، رقم (٦٤١٦).

وأسباب ضياع الأوقات ثلاثة:

الأول: عدم وضوح الهدف، أو غياب الهدف من أفكارنا، فحينما يُصيح الإنسان وهو لا يعرف هدفه في الحياة، أو يُمسي وهو لا يعرف الغاية من خلقه في الحياة؛ تضيع أوقاته، وقد كفانا الله تبارك وتعالى مؤنة البحث عن الهدف في الحياة؛ فقال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطِيعُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات: ٥٦-٥٨].

ويبين لنا الهدف فقال: ﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۚ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾ [الحديد: ٢١].

هذا هو هدفنا جميعاً.

قال رسول الله ﷺ كما جاء في سنن الترمذي من حديث أبي هريرة: «مَنْ خَافَ أَذْلَجَ، وَمَنْ أَذْلَجَ بَلَغَ الْمَنْزِلَ، أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ غَالِيَةٌ، أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ الْجَنَّةُ»^(١).

إذا: السبب الرئيس في تضييع الأوقات هو غياب الهدف أو عدم وضوحه.

السبب الثاني: أننا استسلمنا لسراق الوقت، فهناك سراق للوقت يسرقون أوقاتنا وقد استسلمنا لهم ورفعنا الراية البيضاء، ومن أعظم لصوص الوقت: صاحب السوء، فلا تقل: أنا قوي، أو أنا واثق من نفسي، لا تخف علي! لا، فالصاحب ساحب، كما يقولون.

(١) أخرجه الترمذي: كتاب صفة القيامة، رقم (٢٤٥٠).

وقد قال الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي
اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٣٧﴾ يَتَوَلَّى لَيْتَنِي لِمَ اتَّخَذْتُ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٣٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ
الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴿٣٩﴾﴾ [الفرقان: ٢٧-٢٩].

فقد كان هذا الشابُّ في حلقةِ الذِّكْرِ، ومن رُوَادِ الْمَسْجِدِ، ومن حَمَلَةِ الْمُصْحَفِ،
فَأَضَلَّهُ عَنِ الذِّكْرِ صَاحِبُ السُّوءِ هَذَا، فَضَيَّعَ عَلَيْهِ وَقْتَهُ.

وقال رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الرَّجُلُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ» سواءً كان شابًّا
أو كبيرًا «فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ»^(١).

وقال ابنُ مَسْعُودٍ: اعْتَبِرُوا الرَّجُلَ بِمَنْ يُصَاحِبُ، فَإِنَّمَا يُصَاحِبُ الرَّجُلَ مَنْ
هُوَ مِثْلُهُ^(٢).

عَنِ الْمَرْءِ لَا تَسَلْ وَسَلْ عَنْ قَرِينِهِ فَكُلُّ قَرِينٍ بِالْمُقَارِنِ يَقْتَدِي
إِذَا كُنْتَ فِي قَوْمٍ فَصَاحِبُ خِيَارِهِمْ وَلَا تَصْحَبِ الْأَزْدَى فَتَزْدَى مَعَ الرَّدِيِّ^(٣)

ومن سُرَّاقِ الْوَقْتِ أيضًا ذاكُ الْجُنْدِيِّ الْقَوِيِّ مِنْ جُنُودِ إِبْلِيسَ وهو: سَوْفَ،
سَوْفَ أَفْعَلُ، سَوْفَ أَفْعَلُ، سَوْفَ أَفْعَلُ. وتَمْتَضِي الْأَيَّامُ وَالسُّنُونَ وَمَا فَعَلُ، وَعَلَى
مَطِيَّةِ سَوْفَ أَفْعَلُ، سَوْفَ أَصَلِّي فِي جَمَاعَةٍ، سَوْفَ أَتْرُكُ الْمَعْصِيَةَ الْفُلَانِيَّةَ، رَمَضَانَ

(١) أخرجه أحمد (٣٠٣/٢)، وأبو داود: كتاب الأدب، باب من يؤمر أن يجالس، رقم (٤٨٣٣)،

والترمذي: كتاب الزهد، رقم (٢٣٧٨)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه ابن بطة في الإبانة رقم (٥٠٠)، والبيهقي في الشعب رقم (٨٩٩٣)، وابن أبي الدنيا في
الإخوان رقم (٣٨).

(٣) ذكره ابن عبد ربه في العقد الفريد (١٧٩/٢) غير منسوب، ونسبه الماوردي في أدب الدنيا
والدين (ص: ١٦٦) لعدي بن زيد، والبيت الأول في ديوان طرفة (ص: ٣٢).

القَادِمِ بِإِذْنِ اللَّهِ سَأْتُرُكَ الدُّخَانَ، سَوْفَ سَوْفَ..

وهذه المَطِيَّةُ تَتَحَرَّكُ نَعَمَ، لَكِنْ فِي مَكَانِهَا؛ لَذَا قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - يَا ابْنَ آدَمَ إِيَّاكَ وَسَوْفَ؛ فَإِنَّكَ بِيَوْمِكَ وَلَسْتَ بِعَدِكَ^(١).

السَّبَبُ الثَّلَاثُ: أَنَّنَا نَجْهَلُ أَهْمِيَّةَ الْوَقْتِ، فَكَمْ مَرَّةً طَرَقَ أَسْمَاعَنَا قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ: «لَا تَزُولُ قَدَمُ عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ حَمْسٍ: عَنْ عُمْرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ؟ وَعَنْ شَبَابِهِ فِيمَا أَبْلَاهُ؟ وَمَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ؟ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ؟ وَمَاذَا عَمِلَ فِيمَا عَلِمَ؟»^(٢).

أَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي ذَلِكَ الْحَدِيثِ الْعَظِيمِ: «إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَفِي يَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ فَإِنْ اسْتَطَاعَ أَلَّا يَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَغْرِسَهَا»^(٣).

وذلك لِأَهْمِيَّةِ الْوَقْتِ، فَلَا يَنْهَزِمُ الْإِنْسَانُ أَمَامَ الظُّرُوفِ، حَتَّى وَإِنْ كَانَتْ هَذِهِ الظُّرُوفُ قِيَامَ السَّاعَةِ، بَلْ يَعْمَلُ وَيَسْتَفِيدُ مِنَ الْوَقْتِ مَعَ آخِرِ ثَانِيَةٍ فِيهِ، وَيَبْنِي نَفْسَهُ وَذَاتَهُ، هَذَا هُوَ الْجَادُّ الَّذِي لَا يَسْتَسَلِمُ؛ لِهَذَا يَقُولُ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِنِّي لَأَبْغِضُ أَنْ أَرَى الرَّجُلَ فَارِعًا لَيْسَ فِي شَيْءٍ مِنْ عَمَلِ الدُّنْيَا وَلَا مِنْ عَمَلِ الْآخِرَةِ^(٤). أَيُّ: يَعِيشُ هَمَلًا لَا قِيَمَةَ لَهُ لَا فِي الدِّينِ وَلَا فِي الدُّنْيَا.

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد (٤/١)، رقم (٨)، وهناد في الزهد (١/٢٨٩)، وابن أبي الدنيا في قصر الأمل رقم (٢١٩).

(٢) أخرجه الترمذي: كتاب صفة القيامة، باب في القيامة، رقم (٢٤١٦)، من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه أحمد (٣/١٩١)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه ابن المبارك في الزهد (١/٢٥٦-٢٥٧)، رقم (٧٤١)، وابن أبي شيبة في المصنف رقم (٣٥٧٠٤)، وأبو داود في الزهد رقم (١٧٤)، وأبو نعيم في الحلية (١/١٣٠).

فالوقت عزيزٌ، وهو أشبه ما يكونُ بالضيْفِ، والضيْفُ إذا ذهبَ إمَّا أنْ يَحْمَدَكَ
أو يَذُمَّكَ، هكذا قال الحَسَنُ البَصْرِيُّ - رحمه الله تعالى - فقد قال: نَهَارُكَ ضَيْفُكَ
فَأَحْسِنُ إِلَيْهِ، فَإِنْ أَحْسَنْتَ إِلَيْهِ ارْتَحَلَ بِحَمْدِكَ، وَإِنْ أَسَأْتَ إِلَيْهِ ارْتَحَلَ بِذَمِّكَ،
وكذلك لَيْلُكَ^(١).

دَقَّاتُ قَلْبِ الْمَرْءِ قَائِلَةٌ لَهُ إِنَّ الْحَيَاةَ دَقَائِقٌ وَثَوَانِي
فَارْفَعْ لِنَفْسِكَ بَعْدَ مَوْتِكَ ذِكْرَهَا فَالذِّكْرُ لِلْإِنْسَانِ عُمُرٌ ثَانِي^(٢)

وإِذَا ضَيَّعَ الْإِنْسَانُ وَقْتَهُ وَقَعَ فِي الْمَزَالِقِ الْعَظِيمَةِ، وَأَعْظَمُ مَا يَقَعُ فِيهِ مُضَيِّعُ
الوقتِ: الكُفْرُ بِاللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وَسَوْفَ أَذْكَرُ صُورًا وَقَعَ فِيهَا أَبْنَاؤُنَا وَبَنَاتُنَا فِي مِثْلِ هَذِهِ الْأَيَّامِ، وَذَلِكَ
لِتَحْدَرِ أَبْنَاءُنَا مِنْهُ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَمَا ضَيَّعَ الْأَبْنَاءُ وَالْبَنَاتُ هَذِهِ الْأَوْقَاتَ وَقَعُوا فِي
أَشْيَاءَ عَجِيبَةٍ وَأَشْيَاءَ غَرِيبَةٍ، فَقَدْ وَجَدْتُ فِيهَا يَشْغُلُ أَبْنَاءُنَا الْيَوْمَ الْأَشْتَغَالَ بِبَعْضِ
قَاذوراتِ الْكُفْرِ، وَاسْتِجْلَابِ لِأَحْوَالِ الْجَاهِلِيَّةِ.

فَوَجَدْنَا الْيَوْمَ بَعْضَ شَبَابِنَا وَبَنَاتِنَا مُنْهَمَكِينَ انْهَمَاكَ عَجِيبًا فِي لُعبَةٍ يُقَالُ لَهَا:
تَشَارِلي، قَدْ يَكُونُ الْأَبَاءُ لَا يَعْرِفُونَهَا، يُحْضِرُونَ فِي تِلْكَ اللَّعبَةِ فِيهَا يَزْعُمُونَ: الْجِنَّ
وَالشَّيَاطِينَ وَالْأَشْبَاحَ، وَيَسْأَلُونَهُمْ عَنِ الْعَيْبِ وَعَنِ الْمُسْتَقْبَلِ، وَقَدْ يَكُونُ هَؤُلَاءِ
الشَّبَابُ مِمَّنْ يَدْخُلُونَ الْمَسَاجِدَ، وَهِيَ لُعبَةٌ مَعْرُوفَةٌ عِنْدَ الشَّبَابِ، يَضْعُونَ قَلَمًا عَلَى

(١) أخرجه الدينوري في المجالسة وجواهر العلم رقم (١٢٨٦)، وانظر أدب الدنيا والدين للهاوردي
(ص: ١١٩).

(٢) البیتان لأحمد شوقي، انظر: الشوقيات (٣/ ١٥٨).

قَلَمَ عَلَى وَرَقَةٍ مَكْتُوبٍ فِيهَا: (نعم) و(لا)، ثم يَدْعُونَ تشارلي أَنْ تَحْضُرَ إِلَيْهِمْ، ثُمَّ يَسْأَلُونَهَا: هَلْ تَفْعَلُ هَذَا الْأَمْرَ أَوْ لَا تَفْعَلُ؟ فَيُحَرِّكُ الْقَلَمَ بِسَبَبِ جاذِبِيَّةِ الْأَرْضِ أَوْ الْهَوَاءِ الَّذِي فِي الْجَوِّ، فيقول: أَفْعَلُ أَوْ لَا تَفْعَلُ، (نعم) أَوْ (لا).

وقد أُصِيبَ كَثِيرٌ مِنَ الْأَبْنَاءِ مِمَّنْ يَلْعَبُونَ هَذِهِ اللَّعْبَةَ بِأَمْرَاضٍ نَفْسِيَّةٍ، وَأَخْطَرُهَا: مَرَضُ الْهَلُوسَةِ، وَيُحْضَرُ لِيُقْرَأَ عَلَيْهِ، فسبحانَ الله! كيفَ يَتَجَنَّبُ الْإِنْسَانُ الْعَافِيَةَ وَيُوقِعُ نَفْسَهُ بِنَفْسِهِ فِي الْبَلِيَّةِ؟!

وهذا الْفِعْلُ كَانَ مَوْجُودًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ قَبْلَ مَبْعَثِ النَّبِيِّ ﷺ وَنَقَرُوهُ فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ، اللهُ -تعالى- حينما قال: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْمِيتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ﴾ [المائدة: ٣] قال بعدها: ﴿وَأَنْ تَسْنَقِيسُوا بِالْأَزْلَمِ ذَلِكُمْ فَسُقُ﴾ [المائدة: ٣].

والأزلامُ هي ثلاثة أعوادٍ يَضَعُهَا الْكَاهِنُ عِنْدَهُ، مَكْتُوبٌ عَلَى كُلِّ عُوْدٍ، الْعُوْدُ الْأَوَّلُ: أَفْعَلُ، الْعُوْدُ الثَّانِي: لَا تَفْعَلُ، الْعُوْدُ الثَّلَاثُ: فَارِغٌ، لَيْسَ عَلَيْهِ شَيْءٌ، فَيَأْتِي الْمَشْرِكُ لِهَذَا الْكَاهِنِ يَقُولُ: أُرِيدُ سَفَرًا، وَأُرِيدُ أَنْ أَسْتَقْسِمَ، فَيُحَرِّكُ الْكَاهِنُ وَيَخْرُجُ عُوْدٌ يَقُولُ: أَفْعَلُ، أَوْ يَقُولُ: لَا تَفْعَلُ. وهي هذه اللَّعْبَةُ تَتَكَرَّرُ الْيَوْمَ عِنْدَ أَبْنَائِنَا الْمُسْلِمِينَ، وَهَذَا مِنْ أخطرِ الْأُمُورِ.

لذا نُخَاطِبُ أَوْلِيَاءَ الْأُمُورِ، وَنُخَاطِبُ الْأَبْنَاءَ عَلَى وَجْهِ الْخُصُوصِ، نَقُولُ: مَنْ وَقَعَ فِي هَذِهِ اللَّعْبَةِ مُعْتَقِدًا بِهَا فَإِنَّهُ عَلَى خَطَرٍ عَظِيمٍ، وَهَذَا الرَّجُلُ الَّذِي يَسْمَحُ بِهَذِهِ اللَّعْبَةِ فِي بَيْتِهِ فَإِنَّهُ يَتَحَمَّلُ وِزْرَهُ وَوِزَرَ مَنْ عَمَلَهَا، فَأَوْصُوا أَبْنَاءَكُمْ وَبَنَاتِكُمْ، وَحَذِّرُوا مِنْ هَذَا الْأَمْرِ، وَإِنْ كَانَتْ أَعْدَادُهُمْ قَلِيلَةً الْيَوْمَ فَإِنْ سَكَنَّا كَثُرَتْ هَذِهِ الْأَعْدَادُ.

اللَّهُمَّ احْفَظْ لَنَا أَبْنَاءَنَا وَبَنَاتِنَا، وَجَنِّبْنَا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ.



(٢٠)

مَنْ لَا يَرْحَمُ لَا يَرْحَمُ

•• k ••

المتأمل في حال الأمة اليوم يجد صوراً تبعث على الأسي والحسرة؛ لما يرى من هذه الدماء المهذرة، والأجساد الآمنة المؤذية، يجد هاهنا قتلاً وترويعاً، وهناك إفساداً وتخريباً، ثم يزعم هؤلاء المخربون المجرمون أنهم يفعلون ذلك باسم الإسلام! تأسياً برسول الإسلام! وتقرُّباً إلى الله بزعمهم! وهم كاذبون.

وحينما تلحظ مثل هذه الصور وتتأملها يضيق صدرك، فإذا سمعت أن هذه الصور تُفعل باسم الإسلام، وباسم التأسى برسول الإسلام؛ تكاد تُجنُّ، وتقول: سبحان الله! كذب هؤلاء، والإسلام ورسوله بريان من هذه الأفعال الشنيعة.

وبالفعل حينما تقرأ في كتاب الله، وتقرأ هدي رسوله **صلى الله عليه وسلم** تجد أن هذا الدين دين رحمة، ورسولنا **صلى الله عليه وسلم** رحمة، ونهجه ورسالته رحمة، قال الله **تَبَارَكَ وَتَعَالَى يُبَيِّنُ لَنَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بُعِثَ رَحْمَةً: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (١٠٧)** [الأنبياء: ١٠٧].

وقال سبحانه: **﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (١٢٨)** [التوبة: ١٢٨].

وأمره **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** بالرحمة، وبيّن له أهميتها، وأنها سبب رئيس في تأليف القلوب؛ فقال: **﴿فِيمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَنَّفَضُوا مِنْ**

حَوْلِكَ فَأَعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وحدثنا رسولنا ﷺ عن نفسه، وبين سيرته الذاتية، كما جاء في سنن أبي داود فقال: «وَاتِمَّا بَعَثَنِي رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ»^(١).

وفي مُصَنَّفِ ابنِ أَبِي شَيْبَةَ قَالَ ﷺ: «إِنَّمَا أَنَا رَحْمَةٌ مُهْدَاةٌ»^(٢).

وقال ﷺ كما جاء في صحيح مسلمٍ من حديثِ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُسَمِّي لَنَا نَفْسَهُ بِأَسْمَاءٍ فَيَقُولُ: «أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَنَا أَحْمَدُ، وَالْمُقَفِّي، وَالْحَاشِرُ، وَنَبِيُّ التَّوْبَةِ، وَنَبِيُّ الرَّحْمَةِ»^(٣).

وقال كما جاء في حديثِ أَبِي هُرَيْرَةَ عِنْدَ مُسْلِمٍ: «إِنِّي لَمْ أَبْعَثْ لِعَانًا وَإِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً»^(٤).

وإِنَّمَا لِنَعَجَبُ حِينَئِذٍ تُنْسَبُ هَذِهِ الْأَفْعَالُ الشَّنِيعَةُ الَّتِي تُسَلِّطُ نَحْوَ الدَّمَاءِ الْمَعْصُومَةِ، أَوْ الْأَجْسَادِ الْمُسْتَأْمَنَةِ؛ فَتُهْدِرُ دَمَ هَوْلَاءِ، وَتُوذِي أَجْسَادَ هَوْلَاءِ، كُلُّ ذَلِكَ بِاسْمِ الْإِسْلَامِ!!

(١) أخرجه أحمد (٤٣٧/٥)، وأبو داود: كتاب السنة، باب في النهي عن سب أصحاب رسول الله ﷺ، رقم (٤٦٥٩)، من حديث حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) مصنف ابن أبي شيبة رقم (٣٢٤٤٢)، وأخرجه أيضا الدارمي في سننه رقم (١٥)، والبيهقي في الشعب رقم (١٣٣٩)، عن أبي صالح مرسلا.

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الفضائل، باب في أسماؤه ﷺ، رقم (٢٣٥٥).

(٤) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب النهي عن لعن الدواب وغيرها، رقم (٢٥٩٩).

تُحَدِّثُنَا عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَمَا جَاءَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ وَغَيْرِهِ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَوْذِيَ إِذَاءً شَدِيدًا مِنْ قَوْمِهِ؛ فَخَرَجَ هَائِمًا ﷺ يَدْعُو الْقَبَائِلَ، فَتَلَقَّتْهُ الْقَبَائِلُ بِالْإِذَاءِ، وَأَعْرَتْ بِهِ سُفَاءَهَا يَضْرِبُونَهُ وَيَسْخَرُونَ مِنْهُ ﷺ فَبَعَثَ اللَّهُ إِلَيْهِ جِبْرِيْلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَبِمَعِيَّتِهِ مَلَكُ الْجِبَالِ، فَتَكَلَّمَ جِبْرِيْلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكُ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ، فَتَكَلَّمَ مَلَكُ الْجِبَالِ بَعْدَ أَنْ سَلَّمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، ذَلِكَ فِيمَا شِئْتَ، إِنْ شِئْتَ أَنْ تُطَبِّقَ عَلَيْهِمُ الْأَخْشِيَيْنِ. فَقَالَ ﷺ الرَّحْمَةُ الْمُهْدَاةُ: «بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا»^(١).

لَمْ يَتَّصِرْ لِنَفْسِهِ ﷺ وَلَمْ يَنْتَقِمْ لِنَفْسِهِ كَمَا يَفْعَلُ الْيَوْمَ مَنْ أُعْطِيَ الْوِلَايَةَ عَلَى رِقَابِ الْمُسْلِمِينَ، وَبِيَدِهِ مَصَالِحُ الْمُسْلِمِينَ، كَمَا يُوقِعُ الْأَذَى عَلَى أَشْخَاصٍ لَا يُعْجِبُونَهُ، وَيَنْتَقِمُ لِنَفْسِهِ وَلِشَخْصِهِ دُونَ رَحْمَةِ!!

وَجَاءَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَرِضَ غُلامٌ يَهُودِيٌّ كَانَ يُحَدِّثُ النَّبِيَّ ﷺ فَسَأَلَ ﷺ عَنْ هَذَا الْغُلامِ الْيَهُودِيِّ أَيْنَ هُوَ؟ قَالُوا: مَرِضٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَخَرَجَ نَبِيُّ الرَّحْمَةِ، مَعَ عَظِيمِ شَأْنِهِ وَقَدَّرَهُ إِلَى بَيْتِ هَذَا الْغُلامِ وَدَخَلَ عَلَيْهِ، ثُمَّ قَعَدَ عِنْدَ رَأْسِهِ يَتَفَقَّدُ حَالَهُ، وَيَسْأَلُ عَنْ شَأْنِهِ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: «أَسْلِمَ» فَيَنْظُرُ الْغُلامُ إِلَى وَالِدِهِ الْيَهُودِيِّ، فَقَالَ لَهُ وَالِدُهُ: أَطَعُ أَبَا الْقَاسِمِ؛ فَأَسْلَمَ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ بَيْتِ هَذَا الْيَهُودِيِّ فَرِحًا مَسْرُورًا، وَقَالَ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ مِنَ النَّارِ»،

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم: آمين والملائكة في السماء، رقم (٣٢٣١)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين، رقم (١٧٩٥).

وفي رواية أبي داود: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ بِي مِنَ النَّارِ»^(١).

فقد كان من رحمته ﷺ أَنَّهُ يَفْرَحُ بِدُخُولِ النَّاسِ الْجَنَّةَ، وَيَحْزَنُ عَلَى بَقَائِهِمْ عَلَى الشَّرِّكَ فَيَدْخُلُونَ النَّارَ، وَكَانَ حَرِيصًا عَلَى هِدَايَتِهِمْ وَنَفْعِهِمْ.

وَإِذَا نَظَرْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يَدْعُو إِلَى الرَّحْمَةِ نَجِدُهُ يَقُولُ كَمَا جَاءَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ: «مَنْ لَا يَرْحَمِ النَّاسَ لَا يَرْحَمَهُ اللَّهُ عَزَّجَلَّ»^(٢)، هُنَاكَ ارْتِبَاطٌ وَثِيقٌ، فَعَلَى قَدْرِ مَا تُرْحَمُ تُرْحَمُ، وَهَكَذَا يَنْبَغِي أَنْ نَرَى الْأُمُورَ، وَهَذِهِ هِيَ قِيَمُ الْإِسْلَامِ، وَقَالَ ﷺ: «ارْحَمُوا تُرْحَمُوا، وَاعْفِرُوا يُعْفَرَ لَكُمْ»^(٣).

وَقَالَ ﷺ كَمَا جَاءَ فِي سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ: «لَا تُنْزِعِ الرَّحْمَةَ إِلَّا مِنْ شَقِيٍّ» فَإِذَا رَأَيْتَ إِنْسَانًا مَعْدُومَ الرَّحْمَةِ؛ اَعْلَمْ أَنَّهُ شَقِيٌّ وَإِنْ ادَّعَى أَنَّهُ تَقِيٌّ، فَالْأَتْقِيَاءُ مَلِيئُونَ بِالرَّحْمَةِ، وَالْأَشْقِيَاءُ هُمُ الَّذِينَ نُزِعَتْ مِنْ قُلُوبِهِمُ الرَّحْمَةُ، قَالَ ﷺ: «ارْحَمُوا أَهْلَ الْأَرْضِ يَرْحَمَكُمُ مَنْ فِي السَّمَاءِ»^(٤).

ثُمَّ ذَكَرَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صُورًا مُتَقَابِلَةً: فَحَدَّثَنَا عَنْ امْرَأَةٍ مُؤْمِسَةٍ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات، رقم (١٣٥٦)، وأبو داود: كتاب الجنائز، باب في عيادة الذمي، رقم (٣٠٩٥).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ﴾، رقم (٧٣٧٦)، ومسلم: كتاب الفضائل، باب رحمته ﷺ الصبيان والعيال، رقم (٢٣١٩)، من حديث جرير بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه أحمد (١٦٥/٢)، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٤) أخرجه أحمد (١٦٠/٢)، وأبو داود: كتاب الأدب، باب في الرحمة، رقم (٤٩٤١)، والترمذي: كتاب البر والصلة، باب ما جاء في رحمة المسلمين، رقم (١٩٢٤)، من حديث عبد الله بن عمرو ابن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

-يعني زانية- عَمَلُهَا شَنِيعٌ فَظِيْعٌ تَأْبَاهُ الْعُقُولُ، لَا تَرْضَى بِهِ الْعُقُولُ فَضْلًا عَنِ الدِّينِ، تَمَّرَ عَلَى بَيْرٍ فَتَرَى كَلْبًا يَلْهَثُ الثَّرَى يَكَادُ يَقْتُلُهُ الْعَطْشُ، قَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «فَنَزَعَتْ خُفَّهَا فَرَبَطْتَهُ بِخَمَارِهَا فَفَنَزَعَتْ لَهُ مَاءً، فَسَقَتِ الْكَلْبَ؛ فَغَفِرَ لَهَا بِذَلِكَ»^(١) رَحْمَةً رَحِمَتْ بِهَا كَلْبًا وَهِيَ تَعْمَلُ وَتَفْعَلُ فِعْلًا شَنِيعًا، قَالَ: «فَغَفِرَ لَهَا بِذَلِكَ».

وفي المقابل يُخْبِرُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنَّ امْرَأَةً: «دَخَلَتِ النَّارَ فِي هِرَّةٍ رَبَطْتَهَا فَلَمْ تُطْعِمَهَا وَلَمْ تَتْرُكْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ»^(٢) يُعْطِينَا صَوْرًا لِلْحَدِّ الْأَدْنَى، رَحْمَةً تُنَزَعُ مِنَ الْقُلُوبِ نُجَاهَ حَيَوَانٍ يَدْخُلُ بِهِ هَذَا الشَّقِيُّ النَّارَ.

وجاء عند الطبراني في مُعْجَمِهِ الْكَبِيرِ: مَرَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى رَجُلٍ قَدْ أَضْجَعَ شَاةً، وَقَدْ وَضَعَ رِجْلَهُ عَلَى صَفْحَةِ الشَّاةِ، وَهُوَ يَحْدُّ سِكِّينَهُ، يَقُولُ الرَّاوي: وَهِيَ تَلْحَظُّ إِلَيْهِ بِبَصَرِهَا، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَفَلَا قَبْلَ هَذَا؟ أَوْ تُرِيدُ أَنْ تُمِيتَهَا مَوْتَانِ؟»^(٣) يَنْتَصِرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِلشَّاةِ.

فماذا يقول هذا المسكين الذي يَنْحَرُ رِقَابَ الْمُسْلِمِينَ أَمَامَ أَبْنَائِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ، وَيَفْعَلُ ذَلِكَ بِاسْمِ الْإِسْلَامِ؟! وَمَاذَا يَفْعَلُ هَذَا الَّذِي يَسْلُخُ الْمُسْلِمَ وَهُوَ حَيٌّ؟! أَوْ يَجْرِقُهُ وَهُوَ حَيٌّ؟! أَوْ يَدْفِنُهُ وَهُوَ حَيٌّ؟! كُلُّ هَذِهِ مَشَاهِدُ نُشَاهِدُهَا الْيَوْمَ، لَمْ نَكُنْ

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب إذا وقع الذباب في شراب أحدكم، رقم (٣٣٢١)،

ومسلم: كتاب السلام، باب فضل ساقى البهائم، رقم (٢٢٤٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب خمس من الدواب فواسق، رقم (٣٣١٨)، ومسلم:

كتاب الآداب، باب تحريم قتل الهرة، رقم (٢٢٤٢)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٣٣٢/١١)، رقم (١١٩١٦)، والحاكم (٤/٢٣١)، من

حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

نُشَاهِدُهَا فِي السَّابِقِ.

وهذه امرأةٌ لَمَّا أُخْبِرَ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ شَأْنِهَا فَقَالُوا: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَلَانَةَ تَصُومُ النَّهَارَ، وَتَقُومُ اللَّيْلَ، وَتَصَدَّقُ، وَتَفْعَلُ، وَتُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا» كُلُّ هَذَا فِي كِفَّةٍ: صِيَامُ النَّهَارِ، قِيَامُ اللَّيْلِ، صَدَقَاتُ، أَعْمَالٌ صَالِحَةٌ، وَفِي الْمُقَابِلِ: تُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا، فَقَالَ ﷺ: «لَا خَيْرَ فِيهَا هِيَ فِي النَّارِ»^(١) لَأَنَّهَا آذَتِ النَّاسَ بِلِسَانِهَا، فَكَيْفَ بِالَّذِي يُؤْذِي النَّاسَ بِيَدِهِ؟!

وَالْيَوْمَ نُشَاهِدُ - حَتَّى عَلَى مُسْتَوَى الْأَفْرَادِ - مَشَاجِرَاتٍ بَيْنَ الشَّبَابِ بِالْأَسْلِحَةِ، لَمْ نَكُنْ نَرَى هَذَا فِي وَاقِعِنَا وَفِي مُجْتَمَعَاتِنَا، إِنَّمَا كُنَّا نَرَى مَنْ يَتَطَارَحُ وَيَتَصَارَعُ وَيَضْرِبُ بِيَدِهِ، أَمَّا الْآنَ فَبَدَأَتْ نُفُوسُ النَّاسِ تَقْسُو وَتُنزَعُ مِنْهَا الرَّحْمَةُ شَيْئًا فَشَيْئًا، حَتَّى بَدَأْنَا نَقْرَأُ كُلَّ يَوْمٍ عَنْ قَتْلِ مُتَعَمِّدٍ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِأَنَّ الرَّحْمَةَ نُزِعَتْ.

وَقَدْ خَرَجَ الصَّحَابَةُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فَابْتَعَدَ عَنْهُمْ قَلِيلًا لِحَاجَتِهِ، فَرَأَوْا طَائِرَ الْحُمْرَةِ تَحْتَهُ فَرَّخَانٍ، فَأَخَذُوا الْفَرَّخَيْنِ يَلْعَبُونَ بِهِمَا، فَأَتَى طَائِرُ الْحُمْرَةِ عَلَى رَأْسِ النَّبِيِّ ﷺ وَفَرَّشَ جَنَاحَيْهِ كَأَنَّهَا تَشْتَكِي؛ فَالْتَمَتَ ﷺ إِلَى مَنْ مَعَهُ وَقَالَ: «مَنْ فَجَّعَ هَذِهِ بَوْلِدَهَا! رُدُّوْا وَلَدَهَا عَلَيْهَا»^(٢).

إِنَّمَا الرَّحْمَةُ الَّتِي تَمَثَّلَتْ فِي رَسُولِ الْإِسْلَامِ ﷺ فَإِنَّ كُنَّا بِحَقِّ نَتَأَسَّى بِهِ، وَنَسِيرُ عَلَى نَهْجِهِ؛ فَلْنُتَزِمْ هَذِهِ الرَّحْمَةَ الْمُمَثَّلَةَ فِي الْوَاقِعِ الَّذِي عَاشَهُ ﷺ.

(١) أخرجه أحمد (٢/٤٤٠)، والبخاري في الأدب المفرد رقم (١١٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أحمد (١/٤٠٤)، وأبو داود: كتاب الجهاد، باب في كراهية حرق العدو بالنار، رقم

(٢٦٧٥)، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وإننا حينما نرى هذا الواقع المؤلم ينبغي أن نتنبه إلى قضيةٍ مهمّةٍ وهي: أنّ هناك مَنْ يَسْتَغِلُّ هذه الأحداث ليُسبِيءَ إلى الإسلام، ويُسبِيءَ إلى رسولِ الإسلام، ويُسبِيءَ إلى القرآنِ والسُنَّةِ، ويقولُ: هؤلاءِ فَعَلُوا؛ لأنَّ دينَهُمُ الإسلامُ، ونحتاجُ إلى إعادةِ تعليمِ الإسلامِ من جديدٍ، ولا بُدَّ أن نَطْرَحَ على الجيلِ الجديدِ قيماً جديدةً، فيأتونَ بدينٍ آخرٍ غيرِ الإسلامِ!

نقولُ: لا حاجةَ لهذه القيمِ، لا نحتاجُ إلى أحدٍ يَسْتَغِلُّ هذه المواقفَ والظُروفَ فيأتينا بقيمٍ غيرِ قيمِ الإسلامِ، قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ: لَا يَضَعُ اللهُ رَحْمَتَهُ إِلَّا عَلَى رَحِيمٍ»، قالوا: يا رَسُولَ اللهِ، كُلُّنَا يَرَحِمُ، قال: «لَيْسَ بِرَحْمَةٍ أَحَدِكُمْ صَاحِبُهُ؛ يَرَحِمُ النَّاسَ كَافَّةً»^(١).

هذه هي القيمُ التي جاءَ بها الإسلامُ: أن مَنْ لا يَرَحِمُ لا يُرَحِمُ، وأن مَنْ لا يَرَحِمُ النَّاسَ كَافَّةً لا يَرَحِمُهُ اللهُ؛ فنحن لا نحتاجُ إلى مَنْ يَأْتِي يُعَلِّمُنَا دِينًا آخَرَ غيرَ دينِ اللهِ الذي نَدِينُ به.

•• k ••

(١) أخرجه أبو يعلى في مسنده رقم (٤٢٥٨)، والبيهقي في الشعب رقم (١٠٥٤٩)، من حديث أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.



(٢١)

وَأَتُوا الزَّكَاةَ

• • k • •

في مثلِ أَيَّامِ شَهْرِ رَمَضَانَ الْمُبَارِكِ مِنْ كُلِّ عَامٍ يَبْرُزُ أَهْلُ السَّخَاءِ، وَتَمْتَدُّ يَدُ الْعَطَاءِ، وَتُخْرَجُ الزَّكَاةُ وَالصَّدَقَاتُ، فَيَبْرُزُ الْمُتَصَدِّقُونَ وَيَتَنَافَسُونَ فِي هَذَا الْمَيْدَانِ، فَأَغْلَبَ النَّاسِ يُخْرِجُونَ زَكَاتَهُمْ فِي شَهْرِ شَعْبَانَ أَوْ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ، الْغَنِيُّ مِنْهُمْ وَالْفَقِيرُ يَجْتَهِدُ عَلَى إِخْرَاجِ زَكَاتِهِ، وَهَؤُلَاءِ جَمِيعًا نَقُولُ لَهُمْ: إِنَّ هَذَا الْعَمَلَ الَّذِي تَقُومُونَ بِهِ وَهَذِهِ الصَّدَقَاتِ، وَهَذَا الْبَدَلِ، وَهَذِهِ الزَّكَاةِ هِيَ مِنْ أَفْضَلِ الْعِبَادَاتِ عِنْدَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

وَإِنِّي لِأَعْجَبُ حِينَمَا يَتَّصِلُ بِي مُتَّصِلٌ وَيَقُولُ: رَأْسُ مَالِي أَلْفٌ وَخَمْسُ مِئَةِ دِينَارٍ كَمْ زَكَاتُهَا؟ فَأَفْرَحُ بِهَذَا الْمُتَصَدِّقِ الَّذِي لَا يَمْلِكُ إِلَّا هَذَا الْمَالَ الْيَسِيرَ، وَلَكِنْ شَغَلَ بَالَهُ بِمَا أَوْجَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنَ الزَّكَاةِ، وَأَقُولُ فِي نَفْسِي: يَا لَيْتَ الْغَنِيِّ الَّذِي لَا يَتَصَدَّقُ وَلَا يُزَكِّي يَحْذُو وَحَذُو هَذَا الْفَقِيرِ الْمُرْكِيِّ.

قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَالْحَدِيثُ عِنْدَ الْحَاكِمِ فِي مُسْتَدْرَكِهِ: ذُكِرَ لِي أَنَّ الْأَعْمَالَ تُبَاهِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَتَقُولُ الصَّدَقَةُ: أَنَا أَفْضَلُكُمْ ^(١).

بَلْ بَيَّنَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ الْمُتَصَدِّقَ لَهُ الْمَنْزِلَةُ الْعَالِيَةُ، فَقَالَ: «الْيَدُ الْعُلْيَا

(١) أخرجه ابن خزيمة في صحيحه رقم (٢٤٣٣)، و الحاكم (٤١٦/١)، والبيهقي في الشعب رقم (٣٠٥٨).

خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى»^(١).

واليدُ العليا هي المُنْفِقَةُ، والسُّفْلَى هي السَّائِلَةُ؛ لذا أُحْمِلُ البَشَائِرَ لِأَوْلِكَ الْمُتَصَدِّقِينَ الْمُزَكِّينَ، وأقولُ: وأنت تُخْرِجُ زَكَاةَ مَالِكَ تَذَكَّرَ مَا أَعَدَّ اللهُ لَكَ مِنَ البَشَائِرِ، قد تكونُ زَكَاةَ مَالِكَ: ثلاثينَ دينارًا، أو خمسَةً وثلاثينَ دينارًا، أو أربعينَ دينارًا، لكنَّها عندَ اللهِ عَظِيمَةٌ، إِذَا قُورِنَتْ بِتلكِ المِائَاتِ مِنَ الأُلُوفِ فِي يدِ ذاكِ الغَنِيِّ الَّذِي لا يُخْرِجُ زَكَاةَ مالِهِ، وقد أَعَدَّ اللهُ بِشَائِرَ كَثِيرَةً لِلْمُتَصَدِّقِينَ، منها:

أولاً: أَنَّ هَذِهِ الصَّدَقَةَ تَصْرِفُ عَنْكَ بِإِذْنِ اللهِ مَصَارِعَ السُّوءِ، وَالآفَاتِ وَالْهَلَكَاتِ، هَكَذَا أَخْبَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَدْ جَاءَ فِي حَدِيثِ أَبِي أَمَامَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عِنْدَ الطَّبْرَانِيِّ فِي مُعْجَمِهِ، قَالَ: «صَنَائِعُ الْمَعْرُوفِ تَقِي مَصَارِعَ السُّوءِ، وَصَدَقَةُ السِّرِّ تُطْفِئُ غَضَبَ الرَّبِّ، وَصِلَّةُ الرَّحِمِ تَزِيدُ فِي الْعُمْرِ»^(٢).

قد يكونُ هناكِ بلاءٌ يَنْزِلُ عَلَيْكَ فَتَتَصَدَّقُ وَأنتِ لا تَعْلَمُ بِهَذَا البِلاءِ؛ فَيُصْرِفُ هَذَا البِلاءُ عَنْكَ أَوْ عَن ذُرِّيَّتِكَ.

ثانيًا: أَنَّ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى هُوَ الَّذِي يَتَقَبَّلُهَا مِنْكَ، وَأَيُّ نَعِيمٍ أَعْظَمُ مِنْ هَذَا النِّعَمِ؟! هَذَا النَّزْرُ الْيَسِيرُ مِنْ مَالِكَ حِينَما تُخْرِجُهُ فَالَّذِي يَتَقَبَّلُهُ هُوَ اللهُ، فَإِذَا تَقَبَّلَهَا ضَاعَتْهَا، قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ فِي سُورَةِ الْحَدِيدِ: ﴿إِنَّ الْمُصَدِّقِينَ وَالْمُصَدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللهُ قَرْضًا حَسَنًا يَضَعُفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ [الحديد: ١٨].

(١) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب لا صدقة إلا عن ظهر غنى، رقم (١٤٢٩)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب بيان أن اليد العليا خير من اليد السفلى، رقم (١٠٣٣)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.
(٢) المعجم الكبير للطبراني (٨/ ٢٦١)، رقم (٨٠١٤).

وجاء في صحيح مسلمٍ من حديث أبي هريرة - رضي الله تعالى عنه - أن النبي ﷺ قال: «مَا تَصَدَّقَ أَحَدٌ بِصَدَقَةٍ مِنْ طَيِّبٍ، وَلَا يَقْبَلُ اللَّهُ إِلَّا الطَّيِّبَ، إِلَّا أَخَذَهَا الرَّحْمَنُ بِيَمِينِهِ وَإِنْ كَانَتْ تَمْرَةً» أي: تمرّة قيمتها أقل من فلسٍ «فَتَرَبُّو حَتَّى تَكُونَ أَعْظَمَ مِنَ الْجَبَلِ، كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فُلُوهُ أَوْ فَصِيلَهُ»^(١).

ثالثاً: أن هذه الصدقات تُطْفِئُ نارَ الخطيئاتِ، فالمعاصي والذنوب التي نَقَعُ فيها هي نارٌ تشتعل، فتأتي هذه الصدقات لتُطْفِئَ هذه النارَ، هكذا أخبر رسول الله ﷺ فقد جاء في صحيح ابن حبانٍ من حديث كعب بن عُجرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يَذْهَبُ الْجَلِيدُ عَلَى الصَّفَا»^(٢).

رابعاً: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَعَدَّ عَلَيْهَا بِالْحَلْفِ، فقد يُخْلِفُ عَلَيْكَ فِي مَالِكَ، أَوْ فِي صِحَّتِكَ، أَوْ فِي وَقْتِكَ، أَوْ فِي ذُرِّيَّتِكَ، أَوْ فِي بَيْتِكَ، أَوْ فِي عِلَاقَتِكَ بِأَهْلِكَ، أَوْ يُخْلِفُ عَلَيْكَ فِي مَكَانٍ لَا تَشْعُرُ بِهِ لَكِنْ تَرَى أَثْرَهُ، مَكَانٍ لَمْ تُفَكِّرْ فِيهِ لَكِنْ تَرَى النَّتِيجَةَ، هكذا قال رسول الله ﷺ فقد جاء في صحيح مسلمٍ من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ الْعِبَادُ فِيهِ إِلَّا مَلَكَانِ يَنْزِلَانِ فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلْفًا، وَيَقُولُ الْآخَرُ: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلْفًا»^(٣).

(١) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب الصدقة من كسب طيب، رقم (١٤١٠)، ومسلم: كتاب

الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب، رقم (١٠١٤).

(٢) صحيح ابن حبان رقم (٥٥٦٧).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب قول الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَانْفَكَى﴾، رقم (١٤٤٢)،

ومسلم: كتاب الزكاة، باب في المنفق والممسك، رقم (١٠١٠).

قال الحسن - رحمه الله تعالى - : مَنْ أَيَقِنَ بِالْحَلْفِ جَادَ بِالْعَطِيَّةِ ^(١) . أي: مَنْ تَحَقَّقَ عِنْدَهُ الْيَقِينُ بِالْحَلْفِ جَادَ بِالْعَطِيَّةِ؛ لِأَنَّهُ كُلَّمَا أُعْطِيَ زَادَ الْحَلْفُ.

خامساً: أَنَّ الصَّدَقَةَ تَفْتَحُ عَلَيْكَ بَابَ التَّيْسِيرِ، وَمَنْ مَنَّا لَا يَسْأَلُ التَّيْسِيرَ فِي أَمْرِهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ اللَّيْلِ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَانْفَرَى ﴿٥﴾﴾ [الليل: ٥] أي: تَصَدَّقَ ﴿وَصَدَّقَ بِالْحَسَنَى ﴿٦﴾ فَسَيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَعْنَى ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحَسَنَى ﴿٩﴾ فَسَيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى ﴿١٠﴾ وَمَا يُعْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى ﴿١١﴾﴾ [الليل: ٥-١١].

سادساً: أَنَّ الصَّدَقَةَ لَا تَنْفَعُكَ فِي الدُّنْيَا فَحَسْبُ، بَلْ تَنْفَعُ الْمَيِّتَ فِي قَبْرِهِ، فَتَذْهَبُ إِلَيْهِ فِي قَبْرِهِ، فَقَدْ جَاءَ عِنْدَ الطَّبْرَانِيِّ فِي مُعْجَمِهِ الْكَبِيرِ مِنْ حَدِيثِ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ الصَّدَقَةَ لَتُطْفِئُ عَلَى أَهْلِ الْقُبُورِ حَرَّهَا، وَإِنَّمَا يَسْتَظِلُّ الْمُؤْمِنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي ظِلِّ صَدَقَتِهِ» ^(٢).

هذه البشائر أَرْفُهَا لِلْمُتَصَدِّقِينَ، أَمَّا الَّذِينَ لَا يَزَالُونَ مُتَرَدِّدِينَ فِي إِخْرَاجِ زَكَاةِ أَمْوَالِهِمْ، وَيَجْرِضُونَ عَلَيْهَا وَيَجْمَعُونَهَا، فَإِذَا نَظَرَ فِي زَكَاةِ مَالِهِ فَإِذَا هِيَ كَثِيرَةٌ عَشْرَةٌ أَلْفِ دِينَارٍ، أَوْ مِئَةُ أَلْفِ دِينَارٍ، تَعَلَّقَتْ هَذِهِ الْقُلُوبُ بِهَذِهِ الْأَمْوَالِ، فَكَمَا زَفَفَتْ تِلْكَ الْبُشْرَى لِلْمُتَصَدِّقِينَ، أُذْكَرُ الَّذِينَ لَا يُزْكَونَ بِقَوْلِ الْحَقِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنْزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كَنْزْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [التوبة: ٣٤، ٣٥].

(١) أخرجه ابن حبان في روضة العقلاء رقم (ص: ٢٤٢). وأخرجه مرفوعاً القضاعي في مسند الشهاب رقم (٣٦٦)، من حديث علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وذكره الفتني في تذكرة الموضوعات (ص: ٦٤).
(٢) المعجم الكبير للطبراني (١٧/٢٨٦، رقم ٧٨٨).

فهذا الذي يَكْنِزُ لا يَكْنِزُ لِنَفْسِهِ، وَإِنَّمَا يَكْنِزُ لِوَارِثِهِ، لا يَسْتَفِيدُ شَيْئًا مِنْ هَذِهِ
 الْمَلَائِكَةِ الَّتِي يَجْمَعُهَا، قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ
 مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخَلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٨٠].

وقال أبو ذرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كما جاء في سُنَنِ التِّرْمِذِيِّ: جِئْتُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ
 جَالِسٌ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ فَلَمَّا رَأَى قَالَ: «هُمُ الْأَخْسَرُونَ وَرَبُّ الْكَعْبَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»،
 قَالَ أَبُو ذَرٍّ: فَهَالَنْي مَا سَمِعْتُ؛ فَظَنَنْتُ أَنِّي أَنْزَلَ فِي شَيْءٍ، فَقُلْتُ: مَنْ هُمْ فِدَاكَ أَبِي
 وَأُمِّي؟ قَالَ: «هُمُ الْأَكْثَرُونَ» أَي: الْأَكْثَرُونَ مَالًا «إِلَّا مَنْ قَالَ هَكَذَا، وَهَكَذَا،
 وَهَكَذَا»، وَأَشَارَ بَيْنَ يَدَيْهِ وَعَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ^(١).

فَالْمُؤْمِنُ التَّقِيُّ إِذَا عَلِمَ أَنَّ هَذِهِ الدُّنْيَا زَائِلَةٌ، وَأَنَّهَا مُنْقَطِعَةٌ، وَأَنَّهُ لَا يَتَنَعَّمُ
 إِلَّا بِمَا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ، أَدَّى زَكَاةَ مَالِهِ، وَأَخْرَجَهَا طَيِّبَةً بِهَا نَفْسُهُ، وَهُوَ يَعْلَمُ وَيُوقِنُ بِمَا
 أَعَدَّ اللَّهُ لَهُ مِنَ الْبَشَائِرِ.

وهذه بُشْرَى أُخْرَى أَزْفُهَا لِلْمُرَابِطِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، الَّذِينَ يُرَابِطُونَ عَلَى الثُّغُورِ،
 سِوَاءَ كَانَتْ هَذِهِ الثُّغُورُ هُنَا فِي بَلَدِنَا، أَوْ هُنَاكَ مَعَ إِخْوَانِهِمْ فِي بِلَادِ الْحَرَمَيْنِ، مِنْ
 أَوْلِيكَ الْجُنْدِ الَّذِينَ يُرَابِطُونَ فِي الثُّغُورِ عَنِ بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ، وَأَعْرَاضِ الْمُسْلِمِينَ،
 وَدِمَاءِ الْمُسْلِمِينَ، وَدِينِ الْمُسْلِمِينَ.

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الزكاة، باب ما جاء عن رسول الله ﷺ في منع الزكاة، رقم (٦١٧)،
 وأخرجه أيضا البخاري: كتاب الأيمان والنذور، باب كيف كانت يمين النبي ﷺ، رقم (٦٦٣٨)،
 ومسلم: كتاب الزكاة، باب تغليظ عقوبة من لا يؤدي الزكاة، رقم (٩٩٠).

قَبْلَ أَيَّامٍ نَسَمِعُ عَنْ أَوْلَيْكَ الْإِخْوَةَ الَّذِينَ كَشَفُوا لَنَا مُؤَامِرَةَ هَؤُلَاءِ الْمُخْرِبِينَ
الْمُفْسِدِينَ الْإِرْهَابِيِّينَ، وَهَؤُلَاءِ لَمْ يُكْشَفُوا إِلَّا بِفَضْلِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَحُدُّهُ، ثُمَّ يَقْطَعُ
هَؤُلَاءِ الْجُنْدَ الَّذِينَ كَانُوا يَقْطِيزُونَ وَنَحْنُ نَائِمُونَ، كَانُوا يَجْرُسُونَ وَنَحْنُ نَغْطُّ فِي نَوْمٍ
عَمِيقٍ.

أُولَئِكَ الَّذِينَ اِكْتَشَفُوا تِلْكَ الشُّحْنََةَ الْهَائِلَةَ مِنَ الْمُخَدَّرَاتِ مِنْ رِجَالِ الْأَمْنِ
الَّتِي كَانَتْ سَتْدَهُبُ إِلَى قُلُوبِ أبنَائِنَا وَجُيُوبِهِمْ وَعُقُولِهِمْ لِتُدْمِرَهَا، إِلَى تِلْكَ الْكُتَابِ
الَّتِي الْآنَ تَنْتَظِرُ لِتُبَدَّلَ مَعَ إِخْوَانِهَا، أَحْمِلْ لَهُمْ بُشْرَى، إِذَا أَخْلَصُوا فِيهَا النِّيَّةَ لِلَّهِ
-سُبْحَانَهُ-.

وَاللَّهُ إِنَّهَا بِشَائِرُ لَا أَدْعُدُ بِهَا الْمَشَاعِرَ، وَلَا أُخْرِجُهَا مِنْ كَيْسِ نَفْسِي، وَإِنَّمَا
نَطَقَ بِهَا الْوَحْيُ عَلَى لِسَانِ النَّبِيِّ ﷺ:

أولاً: جَاءَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ مِنْ حَدِيثِ سَهْلِ بْنِ سَعْدِ السَّاعِدِيِّ، أَنَّ
النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «رِبَاطُ يَوْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا»^(١).

ثانياً: جَاءَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «رِبَاطُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ خَيْرٌ مِنْ
صِيَامِ شَهْرٍ وَقِيَامِهِ، وَإِنْ مَاتَ» أَي: فِي الرِّبَاطِ «جَرَى عَلَيْهِ عَمَلُهُ الَّذِي كَانَ يَعْمَلُهُ،
وَأُجْرِيَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ، وَأَمِنَ الْفِتَانَ»^(٢).

ثالثاً: جَاءَ فِي صَحِيحِ ابْنِ حِبَّانٍ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَقَدْ كَانَ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب فضل رباط يوم في سبيل الله، رقم (٢٨٩٢).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الإمارة، باب فضل الرِّبَاطِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، رقم (١٩١٣)، مِنْ حَدِيثِ

سَلْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

مُرَابِطًا عَلَى أَحَدِ الثُّغُورِ، فَلَمَّا سَمِعُوا صَبِيحَةً قَامُوا نَحْوَ هَذَا الثَّغْرِ، وَقَامَ مَعَهُمْ أَبُو هُرَيْرَةَ فَمَا وَجَدُوا شَيْئًا؛ فَرَجَعُوا إِلَّا أَبُو هُرَيْرَةَ وَقَفَ هُنَاكَ عَلَى الثَّغْرِ وَخَدَّهُ، فَقَالَ لَهُ أَحَدُهُمْ: مَاذَا تَنْتَظِرُ يَا أَبُو هُرَيْرَةَ؟ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَوْقِفٌ سَاعَةٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ خَيْرٌ مِنْ قِيَامِ لَيْلَةِ الْقَدْرِ عِنْدَ الْحَجَرِ الْأَسْوَدِ»^(١).

فَرِبَاطُ يَوْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَلَى ثُغُورِ بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ - كَهَوْلَاءِ الَّذِينَ يُرَابِطُونَ فِي مِيَاهِنَا الْإِقْلِيمِيَّةِ، أَوْ عَلَى السَّوَاخِلِ، أَوْ هُنَا عَلَى الْأَرْضِ، أَوْ فِي الْجَوِّ - خَيْرٌ مِنْ قِيَامِ لَيْلَةِ الْقَدْرِ عِنْدَ الْحَجَرِ الْأَسْوَدِ.

بَلْ جَاءَ عِنْدَ ابْنِ عَسَاكِرٍ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ أَيْضًا، وَالْحَدِيثُ قَالَ عَنْهُ الْأَلْبَانِيُّ: صَحِيحٌ، كَمَا فِي السَّلْسِلَةِ الصَّحِيحَةِ^(٢) قَالَ: «قِيَامُ سَاعَةٍ فِي الصَّفِّ لِلْقِتَالِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ خَيْرٌ مِنْ قِيَامِ سِتِّينَ سَنَةٍ»^(٣).

فَقَطْ يَسْتَحْضِرُ هَذَا الْمُرَابِطُ أَجْرَ عَمَلِهِ وَنِيَّتِهِ، وَيَسْتَحْضِرُ أَنَّهُ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْ أَجْلِ اللَّهِ؛ حِمَايَةً لِبِلَادِ اللَّهِ، وَأَعْرَاضِ عِبَادِ اللَّهِ، يَسْتَحْضِرُ هَذَا فَقَطْ، وَيُنَالُ هَذَا الْأَجْرَ الْعَظِيمَ.

• • k • •

(١) صحيح ابن حبان رقم (٤٦٠٣).

(٢) صححه الألباني في صحيح الجامع رقم (٤٤٢٩).

(٣) تاريخ دمشق لابن عساكر (٢٢/٤٤٤).



(٢٢)

التَّقِيُّ الْخَفِيُّ

•• k ••

تَحَدَّثْنَا فِيمَا مَضَى عَنِ الْمَقْصِدِ الْأَسْمَى فِي الصَّيَامِ، وَهُوَ: تَحْقِيقُ التَّقْوَى، وَتَحَدَّثْنَا أَيْضًا عَنْ صِفَاتِ الْمُتَّقِينَ، وَبَيَّنَّا أَنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَتَعَرَّفَ: هَلِ اسْتِفَادَ مِنَ الصَّيَامِ؛ يَنْظُرُ فِي صِفَاتِ الْمُتَّقِينَ هَلِ هِيَ فِيهِ أَوْ لَا؟
وَالآنَ نُفَرِّدُ الْحَدِيثَ لَصِفَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْ صِفَاتِ الْمُتَّقِينَ لَمْ تَرِدْ عَلَيْنَا فِيمَا مَضَى،
أَلَا وَهِيَ أَنَّ الْأَتْقِيَاءَ أَخْفِيَاءَ.

فَمِنْ أَبْرَزِ مَا يُمَيِّزُ الْأَتْقِيَاءَ: الْإِخْلَاصُ فِي الْعَمَلِ، وَعَدَمُ إِظْهَارِهِ، هُمْ يَعْمَلُونَ وَيَتَقَرَّبُونَ إِلَى اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَكِنَّهُمْ يُخْفُونَ أَعْمَالَهُمْ وَلَا يُظْهِرُونَهَا، فَإِنْ ظَهَرَتْ وَبَانَتْ لِلنَّاسِ عَرَضًا دُونَ قَصْدٍ مِنْهُمْ لَمْ يَضُرَّهُمْ ذَلِكَ، وَلَكِنَّهُمْ لَا يَتَعَمَّدُونَ إِظْهَارَ الْعَمَلِ؛ لِأَنَّ مِنْ أَبْرَزِ صِفَاتِ الْمُتَّقِينَ: أَنْ يَكُونُوا أَخْفِيَاءَ.

فَقَدْ جَاءَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ: خَرَجَ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ -رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ- حِينَهَا تَنَازَعَ النَّاسُ عَلَى الدُّنْيَا فَأَخَذَ إِبِلَهُ وَغَنَمَهُ وَخَرَجَ إِلَى الْبَرِّ، فَأَدْرَكَهُ ابْنُهُ عُمَرُ بْنُ سَعْدٍ، فَلَمَّا وَصَلَ إِلَى وَالِدِهِ قَالَ: يَا أَبِي أَنْزَلْتَ فِي إِبِلِكَ وَغَنَمِكَ وَالنَّاسُ يَتَنَازَعُونَ الْمُلْكَ بَيْنَهُمْ؟ أَي: يَتَنَازَعُونَ عَلَى الْمَنَاصِبِ وَالْكَرَاسِيِّ وَحُظُوظِ الدُّنْيَا. قَالَ: فَضْرَبَ سَعْدٌ عَلَى صَدْرِهِ، وَقَالَ لَهُ: اسْكُتْ؛ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:

«إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْعَبْدَ التَّقِيَّ النَّقِيَّ الْغَنِيَّ الْخَفِيَّ»^(١).

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزهد والرقائق، رقم (٢٩٦٥).

فَمِنْ أَبْرَزِ صِفَاتِ الْأَتْقِيَاءِ: أَمَّهُمْ أَخْفِيَاءٌ، لَا يُحِبُّونَ الْأَشْتِهَارَ، وَلَا يَتَطَلَّعُونَ إِلَى الصَّدَارَةِ أَبَدًا، فَإِنْ حَصَلَتْ عَرَضًا حَمِدُوا اللَّهَ عَلَى ذَلِكَ وَأَخْفَوْا عَمَلَهُمْ.

وهذا ابن مسعود - رضي الله تعالى عنه - يُخْرِجُ مَاشِيًا فَتَخْرُجُ كَوَكْبَةٌ مِنَ النَّاسِ تَسِيرُ بِسَيْرِهِ؛ فَيَلْتَفِتُ إِلَيْهِمْ وَيَقُولُ: أَلَكُمُ حَاجَةٌ؟ قَالُوا: لَا، وَلَكِنَّا أَحْبَبْنَا أَنْ نَمَشِيَ مَعَكَ، قَالَ: ارْجِعُوا؛ فَإِنَّهُ ذَلَّةٌ لِلتَّابِعِ وَفِتْنَةٌ لِلْمَتَّبِعِ^(١).

فهو لَا يَتَطَلَّعُ إِلَى تَكْثِيرِ النَّاسِ، كَهَذِهِ الثَّقَافَةِ الَّتِي انْتَشَرَتْ بَيْنَ النَّاسِ الْيَوْمَ كَمُ يُتَابِعُكَ؟ كَمُ يَدْخُلُ عَلَى حِسَابِكَ؟ كَمُ يُتَابِعُ مَا تَقْرَأُ وَتَكْتُبُ وَتُنْشَرُ؟!

وقد لَحِقَ رَجُلٌ بِابْنِ عُمَرَ وَقَالَ: يَا ابْنَ عُمَرَ، يَا خَيْرَ النَّاسِ وَابْنَ خَيْرِهِمْ، قَالَ: مَا أَنَا بِخَيْرِ النَّاسِ وَلَا بِابْنِ خَيْرِهِمْ، وَلَكِنِّي عَبْدٌ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ أَرْجُو اللَّهَ وَأَخَافُهُ، وَاللَّهِ لَنْ تَزَالُوا بِالرَّجُلِ حَتَّى تُهْلِكُوهُ^(٢).

أي: لَنْ تَزَالُوا بِالثَّنَاءِ وَالْمَدْحِ وَإِعْظَامِ وَإِجْلَالِ الرَّجُلِ حَتَّى تُهْلِكُوهُ.

وقال مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - : كَانَ نَاسٌ بِالْمَدِينَةِ يَعْيشُونَ لَا يَدْرُونَ مِنْ أَيْنَ كَانَ مَعَاشُهُمْ؟ فَلَمَّا مَاتَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - فَقَدُوا مَا كَانُوا يُؤْتُونَ بِهِ بِاللَّيْلِ، كَانَ يَقُومُ عَلَى مِئَةِ أُسْرَةٍ لَمْ يُعْلَمَ بِقِيَامِهِ إِلَّا بَعْدَ وَفَاتِهِ^(٣).

هكذا كان الأتقياءُ يُحِبُّونَ الْخَفَاءَ فِي الْعَمَلِ.

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف رقم (٢٦٨٣٩).

(٢) أخرجه عبد الرزاق في جامع معمر (١١/٢٧٢، رقم ٢٠٥٢٣)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٣٠٧/١).

(٣) أخرجه عبد الله بن أحمد في الزهد (ص: ١٣٧، رقم ٩٢٨)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٣/١٣٦).

نَعَمْ أَمَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِالْعِبَادَةِ، وَأَمَرَ بِالْإِخْلَاصِ فِيهَا، فَنَحْنُ نَقْرَأُ فِي سُورَةِ
الْبَيِّنَةِ: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ خُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ^ع
وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ ﴿٥﴾﴾ [البينة: ٥].

وَنَقْرَأُ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ: ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ
﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣].

وَنَقْرَأُ فِي سُورَةِ الْمَلِكِ: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢].
قال الفضيل بن عياض - رحمه الله تعالى -: ﴿أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أي: أخلصه وأصوبه،
قيل: يا أبا علي، ما أخلصه وأصوبه؟ قال: إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن
صواباً لم يقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل، والخالص: ما كان لله،
والصواب: ما كان على السنة^(١).

صَدَقَ رَبِّي تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ
مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ^ع وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ
أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾﴾ [النساء: ١١٤].

وفي واقعنا اليوم، وبسبب ما حصل للناس من هذه النعم، وهذه التقنيّة
الحديثة أصبح الإنسان يُظهر عمله للناس، ويقول: فعلت كذا، وفعلت كذا، ينشر
عمله للملايين ليُمدح، وليُثنى عليه، فهذا رجلٌ يُصور سيلفي بجانب فقيرٍ مُعْدِمٍ

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في الإخلاص والنية رقم (٢٢)، والثعلبي في تفسير الكشف والبيان
(٩٥ / ٨) وأبو نعيم في حلية الأولياء (٣٥٥ - ٣٥٦)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٩٥ / ٨).

مُسْكِينٍ، وَيَكْتُبُ تَحْتَ الصُّورَةِ: اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ أَنْ وَفَّقْتَنِي لِكِفَالَةِ هَذَا الْفَقِيرِ
الْمُسْكِينِ، ثُمَّ يَنْشُرُهَا بَيْنَ النَّاسِ!

لماذا تَفْعَلُ ذلك، وتقول للنَّاسِ: إِنَّكَ كَفَلْتَ هَذَا الْفَقِيرَ؟! فَاللهُ **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**
يُرِيدُ مِنْكَ عَمَلًا خَالِصًا لَهُ وَحْدَهُ.

وهذا آخِرُ يَطْلُبُ مِنْ غَيْرِهِ أَنْ يُصَوِّرَهُ وَهُوَ يَنْحَنِي يُقَبِّلُ يَدَ وَالِدَتِهِ، وَيَقُولُ:
الْبِرُّ هَكَذَا وَإِلَّا فَلَآ، وَيَنْشُرُ ذَلِكَ بَيْنَ النَّاسِ.

وهذا ليس بعملِ الأتقياءِ الأَخْفِيَاءِ.

وثالثٌ يُصَوِّرُ يَدَيْهِ وَقَدْ حَمَلَتِ الْمُصْحَفَ وَيَنْشُرُهَا، وَقَدْ كَتَبَ تَحْتَهَا: بَدَأْتُ
الآنَ أَقْرَأُ مِنْ وَرْدِي.

فلماذا تُخْبِرُ النَّاسَ بِعَمَلِكَ؟!

وقَدْ حَذَرَ اللهُ **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** مِنَ الرِّيَاءِ وَإِبْرَازِ الْعَمَلِ مِنْ أَجْلِ النَّاسِ، فَقَالَ
سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي سُورَةِ هُودٍ: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ
فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا
صَنَعُوا فِيهَا وَبَدِّلُوا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [هود: ١٥-١٦].

وقال **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** فِي سُورَةِ الْإِسْرَاءِ: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ﴾ [الإسراء: ١٨].

أَي: يَرِيدُ ثَنَاءً مِنْ هُنَا، وَمَدْحًا مِنْ هُنَاكَ، وَهَذَا يُشِيرُ إِلَيْهِ بِالْبِنَانِ، وَهَذَا يَقُولُ: نَعَمْ
الرَّجُلُ هَذَا، وَهَذَا يَقُولُ: وَاللَّهِ هَذَا مُحْسِنٌ، يَلْتَفِتُ إِلَى نَظَرِ الْمَخْلُوقِ وَيَغْفُلُ عَنِ نَظَرِ
الْخَالِقِ - سُبْحَانَهُ - قَالَ: ﴿عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ

يَصَلِّيَهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا ﴿١٨﴾﴾ [الإسراء: ١٨].

وجاء في سنن أبي داود قال رسول الله ﷺ: «مَنْ تَعَلَّمَ عِلْمًا مِمَّا يُتَنَعَى بِهِ وَجْهَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ لَا يَتَعَلَّمُهُ إِلَّا لِيُصِيبَ بِهِ عَرَضًا مِنَ الدُّنْيَا؛ لَمْ يَجِدْ عَرَفَ الْجَنَّةَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١).

أي: لم يجد ریح الجنة؛ وذلك لأن هذا القلب انصرف إلى عرض من عرض الدنيا.

وقال أبو سعيد -رضي الله تعالى عنه- والحديث عند ابن ماجه في سننه: كُنَّا نَتَدَارَسُ وَتَتَذَكَّرُ الْمَسِيحَ الدَّجَالَ، فَخَرَجَ عَلَيْنَا النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَا هُوَ أَخَوْفُ عَلَيْكُمْ عِنْدِي مِنَ الْمَسِيحِ الدَّجَالِ؟» قُلْنَا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «الشَّرْكُ الْخَفِيُّ، أَنْ يَقُومَ الرَّجُلُ يُصَلِّيَ فَيَزِينُ صَلَاتَهُ لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ»^(٢).

هو قام يصلي لكنه حرص على أن يزين صلاته وقراءته من أجل الناس؛ لكي يقولوا: قارئ، ما أجمل صوته! وما أحسن صلاته! وهذا شرك خفي خطير؛ لذا قال أبو الدرداء -رضي الله تعالى عنه-: استعبدوا بالله من خشوع النفاق. قيل له: وما خشوع النفاق؟ قال: أن يرى الجسد خاشعاً والقلب ليس بخاشع^(٣).

ولأن هذا الأمر في غاية الخطورة، وفي غاية الخفاء، صار من صفة الأتقياء أنهم يحبون الخفاء.

(١) أخرجه أحمد (٢/٣٣٨)، وأبو داود: كتاب العلم، باب في طلب العلم لغير الله تعالى، رقم (٣٦٦٤)،

وابن ماجه: المقدمة، باب الانتفاع بالعلم والعمل به، رقم (٢٥٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أحمد (٣/٣٠)، وابن ماجه: كتاب الزهد، باب الرياء والسمعة، رقم (٤٢٠٤).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف رقم (٣٦٨٦١)، وأحمد في الزهد (ص: ١١٧، رقم ٧٦٢)،

والبيهقي في الشعب رقم (٦٥٦٧).

أَمَّا كَيْفِيَّةُ النِّجَاةِ مِنْ هَذَا الشَّرِكِ الحَفِيِّ، فَهِيَ حِينَمَا أَلْجَأُ إِلَى اللَّهِ -سُبْحَانَهُ- فَقَدْ جَاءَ فِي مُسْنَدِ أَحْمَدَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ وَهُوَ يَخْطُبُ فِي الصَّحَابَةِ -رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ-: «**أَيُّهَا النَّاسُ! اتَّقُوا هَذَا الشَّرِكَ فَهُوَ أَخْفَى مِنْ دَيْبِ النَّمْلِ**»، فَقَالَ لَهُ مَنْ شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقُولَ: وَكَيْفَ تَتَّقِيهِ وَهُوَ أَخْفَى مِنْ دَيْبِ النَّمْلِ؟ قَالَ: «**قُولُوا: اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ نُشْرِكَ بِكَ شَيْئًا نَعْلَمُهُ، وَنَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لَا نَعْلَمُهُ**»^(١).

هَكَذَا هُمُ الْآتِقِيَاءُ، وَهَا هِيَ صِفَتُهُمُ الْبَارِزَةُ أَتَمُّ اتَّقِيَاءِ أَخْفِيَاءِ، أَسْرُوا الْعَمَلَ وَلَمْ يُظْهِرُوهُ، فَإِنْ ظَهَرَ مِنْهُمْ شَيْءٌ ظَهَرَ عَرَضًا مَا أَرَادُوا بِهِ إِلَّا وَجْهَ اللَّهِ. وَمِمَّا يَنْبَغِي التَّنْبِيهُ إِلَيْهِ: أَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ نُحْسِنَ الظَّنَّ بِكُلِّ أَحَدٍ، وَلَا نُسِيءَ الظَّنَّ بِأَحَدٍ، فَإِذَا رَأَيْنَا صُورَةً مِمَّا ذَكَرْتُ ظَهَرَتْ لَنَا فَلَا نَقُولُ: هَذَا لَيْسَ بِمُخْلِصٍ، نَعَمْ قَدْ نَرَى صُورًا مِنْ هَذِهِ الصُّورِ الَّتِي ذَكَرْتُهَا، لَكِنْ يَنْبَغِي أَلَّا نَنْهَمَ أَحَدًا بَعْدَ الْإِخْلَاصِ؛ فَعَلِمُ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ.

وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نَسْتَغْلِبَ بِشَيْءٍ فَلْنَسْتَغْلِبْ بِقُلُوبِنَا وَنُفُوسِنَا؛ لِأَنَّهَا مَوْضِعُ نَظَرِ الرَّبِّ -سُبْحَانَهُ- فَقَدْ جَاءَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَادِكُمْ وَلَا إِلَى صُورِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ**»^(٢).

فَهَذِهِ الْقُلُوبُ مَوْضِعُ نَظَرِ الرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فَلَا نَجْعَلُ فِيهَا أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ.

(١) أخرجه أحمد (٤/٤٠٣)، من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة، باب تحريم ظلم المسلم وخذله، رقم (٢٥٦٤)، من حديث

أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وكم هو جميل قول ابن القيم - رحمه الله تعالى - الذي قال فيه: وعلى قدر نيّة العبد - أي: إخلاصه - وهمته ومُرادِهِ ورَغْبَتِهِ في ذلك يكونُ توفيقُهُ - سبحانه - وإِعانتُهُ^(١).

فالتوفيقُ مُرتَبَطٌ بِصِلاحِ النِّيَّةِ والمُرادِ، وحتى هذا الكلامُ الذي نَقولُهُ إذا لم يَكُنْ اللهُ فلا يُؤثِّرُ.

قيل لحمّدونَ بنِ أحمدَ: ما بالُ كلامِ السَّلَفِ أنْفَعُ مِن كَلامِنَا؟ فقال: لأنّهم تَكَلَّمُوا لِعِزِّ الإِسْلامِ ونِجاةِ النُّفوسِ، ورضا الرَّحْمَنِ، ونحنُ نَتَكَلَّمُ لِعِزِّ النُّفوسِ، وطلبِ الدُّنيا، ورضا الخَلْقِ^(٢).

هذا هو الفارقُ، فما كان اللهُ فَأَمْرُهُ يَرْتَفِعُ وَذِكْرُهُ يَرْتَفِعُ، وَفِعْلُهُ يُؤثِّرُ، وما كان لغيرِ اللهِ فليس له أثرٌ في أرضِ الواقعِ.

•• k ••

(١) الفوائد لابن القيم (ص: ٩٧).

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١٠ / ٢٣١)، والبيهقي في الشعب رقم (١٧٠١).



(٢٣)

أخوف ما أخاف عليكم

•• k ••

إِنَّ مِنْ أَعْظَمِ مَنِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَيْنَا أَنْ بَعَثَ فِيْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَهُوَ أَعْظَمُ النِّعَمِ، وَأَعْظَمُ الْمُنِّ؛ إِذْ يَقُولُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

أرسله الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِأُمَّتِهِ فَكَانَ حَرِيصًا عَلَيْهَا، فَهُوَ أَحْرَصُ عَلَيْنَا مِنْ أَنْفُسِنَا، وَمِنْ آبَائِنَا وَأُمَّهَاتِنَا، كَمَا قَالَ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

فَمَا تَرَكَ أَمْرًا يُقَرِّبُنَا إِلَى الْجَنَّةِ إِلَّا وَبَيْنَهُ، وَمَا تَرَكَ أَمْرًا يُقَرِّبُ إِلَى النَّارِ إِلَّا وَبَيْنَهُ، قَالَ ﷺ كَمَا جَاءَ عِنْدَ الْحَاكِمِ فِي مُسْتَدْرَكِهِ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَيْسَ مِنْ عَمَلٍ يُقَرِّبُ إِلَى الْجَنَّةِ إِلَّا قَدْ أَمَرْتُكُمْ بِهِ، وَلَا عَمَلٍ يُقَرِّبُ إِلَى النَّارِ إِلَّا قَدْ نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ»^(١).

ولقد خاف علينا ﷺ أشياء متعددة بينها لنا في سنته، وهي كثيرة جدًا، نذكر

بعضها:

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف رقم (٣٥٤٧٣)، والحاكم في المستدرک (٤/٢)، والبيهقي في الشعب (٩٨٩١).

أولاً: الانغماس في الدنيا، أي: التنافس على الدنيا، والافتتال عليها، فقد جاء في حديث عمرو بن عوفٍ الأنصاري رضي الله عنه عند البخاري في صحيحه: أن أبا عبيدة - رضي الله تعالى عنه - قدم بهالٍ من البحرين - وقد جعل الله تبارك وتعالى البحرين بلدَ عطاءٍ من ذلك الوقت - إلى النبي ﷺ فسمع الأنصارُ بهذا المالِ القادمِ فجاؤوا يُصلُّون مع النبي ﷺ في صلاةِ الفجرِ، فلما فرغ ﷺ من صلاته بدأوا يتعرَّضون له وهو ينظرُ إليهم ويتبسَّم ﷺ ثم قال: «أظنُّكم قد سمعتم أن أبا عبيدة قد جاء بهالٍ من البحرين؟ قالوا: نعم، قال: فأبشروا وأملوا ما يسرُّكم؛ فوالله لا الفقرَ أخشى عليكم» وهذا الشاهدُ «ولكن أخشى عليكم أن تبسطَ عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم»^(١).

إنَّ الانغماسَ في الدنيا يُهلكُ الإنسانَ والمُجتمعاتِ، وما نرى من عُقوقٍ إلا بسببِ الدنيا، وما نرى من قتلٍ وسفكٍ للدِّماءِ إلا بسببِ الاقتتالِ على الدنيا، وما نرى من كذبٍ وشهادةٍ زورٍ وغيبةٍ ونميمةٍ إلا من أجلِ الدنيا؛ لذا قال الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ [فاطر: ٥].

وقال رسولُ الله ﷺ: «وَمَنْ كَانَتْ الدُّنْيَا هَمَّهُ» أي: المحرِّكُ له الدنيا، إن أحبَّ فمن أجلِ الدنيا، وإن تكلمَ فمن أجلِ الدنيا، وإن أبغضَ فمن أجلِ الدنيا،

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها، رقم (٦٤٢٥)، ومسلم: كتاب الزهد والرقائق، رقم (٢٩٦١).

وإن قاتلَ فَمِنَ أَجْلِ الدُّنْيَا، وإن أعطى أو أخذَ أو منَعَ فَمِنَ أَجْلِ الدُّنْيَا، قَالَ: «جَعَلَ اللهُ فِقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا قُدِّرَ لَهُ»^(١).

لذا جاءَ في وَصِيَّةِ لُقْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يُوصِي ابنَهُ يَقُولُ: يَا بُنَيَّ إِنَّ الدُّنْيَا بَحْرٌ عمِيقٌ غَرِقَ فِيهِ نَاسٌ كَثِيرٌ، فليَكُنْ سَفِينَتَكَ فِيهِ تَقْوَى اللهُ، وَحَشْوُهَا الإِيْمَانُ بِاللَّهِ، وَشِرَاعُهَا التَّوَكُّلُ عَلَى اللهِ، وَمَجَادِفُهَا التَّسْبِيحُ وَالتَّهْلِيلُ^(٢).

وهذا ممَّا خَافَهُ عَلَيْنَا النَّبِيُّ ﷺ خَاف عَلَيْنَا الدُّنْيَا فَحَدَّرَنَا مِنْهَا، فَلَا تَجَزَعْ عَلَى فَوَاتِ الدُّنْيَا، وَلَكِنْ اجزَعْ عَلَى فَوَاتِ الدِّينِ.

ثانيًا: الانغماسُ في الشَّهَوَاتِ، شَهَوَاتِ البُطُونِ، وَشَهَوَاتِ الفُرُوجِ، فَقَدْ حَدَّرَ ﷺ مِنْ ذَلِكَ وَقَالَ: «إِنَّ مِمَّا أَخْشَى عَلَيْكُمْ شَهَوَاتِ الغَيِّ فِي بُطُونِكُمْ، وَفُرُوجِكُمْ، وَمُضَلَّاتِ الهَوَى»^(٣).

وبالفعلِ أَكْثَرُ مَا يُدْمِرُ المُجْتَمَعَاتِ، وَالمُؤَسَّسَاتِ، وَالأفْرَادَ هُوَ: الانغماسُ في شَهَوَاتِ البُطُونِ وَالفُرُوجِ، فَلَا يَلْتَفِتُ الإِنْسَانُ إِلَى حَلَالٍ أَوْ حَرَامٍ، فَقَدْ جَاءَ فِي مُسْنَدِ أَحْمَدَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لَيَأْتِينَ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لَا يُبَالِي المَرْءُ بِمَا أَخَذَ المَالُ: أَمِنْ حَلَالٍ أَمْ مِنْ حَرَامٍ؟»^(٤).

(١) أخرجه الترمذي: كتاب صفة القيامة، رقم (٢٤٦٥)، من حديث أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه ابن المبارك في الزهد (١/ ١٩٠)، رقم (٥٣٧)، وأحمد في الزهد (ص: ٨٦، رقم ٥٣٢)، وابن أبي الدنيا في الزهد رقم (١٧٩).

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ٤٢٠)، من حديث أبي برزة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه أحمد (٢/ ٤٣٥)، والبخاري: كتاب البيوع، باب قول الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً﴾، رقم (٢٠٨٣)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

أي: همُّه الأكبرُ أن يَكسِبَ هذا المالَ، يُقالُ له: هذا ربًّا لا يجوزُ، وهذه سرقةٌ لا تجوزُ، وهذه شهادةٌ زورٍ لا تجوزُ، فيُقَالُ لِثَلِّ هذا: لا تُدخِلْ على نفسك وأولادِكَ حرامًا؛ فإنَّ النبيَّ ﷺ قال: «كُلُّ جَسَدٍ نَبَتَ مِنْ سُحْتٍ فَالنَّارُ أَوْلَى بِهِ»^(١).

فالذي يُدخِلُ على أبنائه مالا حرامًا من ربًّا، أو سرقةً، أو زورٍ، أو باطلٍ، أو من أكلِ أموالِ النَّاسِ بالباطلِ؛ إنَّما يُنمِّي هذه الأجسادَ لِتَحترِقَ في النَّارِ؛ لذا قال رسولُ الله ﷺ: «مَنْ وَقَاهُ اللهُ شَرًّا مَا بَيْنَ حُيَيْهِ، وَشَرًّا مَا بَيْنَ فَرْجَيْهِ؛ دَخَلَ الْجَنَّةَ»^(٢).

ورسالةٌ إلى الذين يأكلون أموال النَّاسِ بالباطلِ: قال اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ آلِيَتَمَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾^(١٠) [النساء: ١٠].

قال ابنُ مسعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: قال النبيُّ ﷺ: «اسْتَحْيُوا مِنَ اللهِ حَقَّ الْحَيَاءِ»، قال: قلنا يا رسولَ اللهِ، إنَّا نَسْتحي والحمدُ لله، قال: «لَيْسَ ذَلِكَ، وَإِنَّمَا الْاسْتِحْيَاءُ مِنَ اللهِ حَقَّ الْحَيَاءِ: أَنْ تَحْفَظَ الرَّأْسَ وَمَا وَعَى، وَالْبَطْنَ وَمَا حَوَى، وَلْتَذْكَرِ الْمَوْتَ وَالْبَلَى، وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ تَرَكَ زِينَةَ الدُّنْيَا؛ فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدْ اسْتَحْيَا مِنَ اللهِ حَقَّ الْحَيَاءِ»^(٣).

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٣١/١)، والحاكم في المستدرک (١٢٧/٤)، والبيهقي في الشعب (٥٣٧٥)، من حديث أبي بكر الصديق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه الترمذي: كتاب الزهد، باب ما جاء في حفظ اللسان، رقم (٢٤٠٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه أحمد (٣٨٧/١)، والترمذي: كتاب صفة القيامة، رقم (٢٤٥٨).

ثالثاً: خاف علينا كلُّ مُنافِقٍ عَلِيمِ اللِّسَانِ، فالْمُنافِقُونَ شَرُّ خَلْقِ اللَّهِ، وما تَأَذَّتِ الْمُجْتَمَعَاتُ وَلَا هُدِّمَتْ إِلَّا بِفِعْلِ الْمُنَافِقِينَ؛ لَذَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كما جاء في مُسْنَدِ أَحْمَدَ: «إِنَّ أَخَوْفَ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي: كُلُّ مُنَافِقٍ عَلِيمِ اللِّسَانِ»^(١).

فهو يَأْتِيكَ بِلسانٍ وَمِنْ ورائِكَ بِلسانٍ، وفي وَجْهِكَ بِوَجْهِهِ وَخَلْفَ ظَهْرِكَ بِوَجْهِهِ آخَرَ، وَيُصَافِحُكَ بِيدٍ وَيَطْعُنُكَ بِالْأُخْرَى في ظَهْرِكَ، وفي مَجْلِسِكَ له وَجْهٌ وله رَأْيٌ، وخارجَ مَجْلِسِكَ يَكِيدُ لَكَ، وَيُشِيرُ على أعدائِكَ ضِدَّكَ.

هكذا قال الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾^(٨) يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخَدِّعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١﴾^(٩) [البقرة: ٨-٩]، والآياتُ معروفةٌ في سُورَةِ البقرة.

وقال الحقُّ -سبحانهُ-: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾^(١٠) وَإِذَا تَوَلَّى سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ^{١١} وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ﴿٢٥﴾^(١٢) [البقرة: ٢٠٤-٢٠٥].

فالْمُنَافِقُ أَخَوْفٌ ما خافَهُ النَّبِيُّ ﷺ علينا، فهو معكَ إِذا كُنْتَ قَوِيًّا، إِذا ضَعُفْتَ كان معَ عَدُوِّكَ، تراه على المَوْجَةِ الأَعْلَى، وهذا قالَهُ الحقُّ -سبحانهُ- في سُورَةِ النِّسَاءِ: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ بِكُمُ﴾ [النساء: ١٤١] أَي: الْمُنَافِقِينَ ﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعَكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ^{١٣} فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ^{١٤} وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾^(١٤١) [النساء: ١٤١].

(١) أخرجه أحمد (١/٢٢)، من حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقال رسول الله ﷺ: «مَثَلُ الْمُنَافِقِ كَمَثَلِ الشَّاةِ الْعَائِرَةِ بَيْنَ الْغَنَمَيْنِ؛ تَعِيرُ إِلَى هَذِهِ مَرَّةً وَإِلَى هَذِهِ مَرَّةً»^(١).

وكثيرٌ هي الأشياءُ التي خافها النبي ﷺ علينا.

• • k • •

(١) أخرجه مسلم: كتاب صفات المنافقين، رقم (٢٧٨٤)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.



(٢٤)

صِلَةُ الرَّحِمِ

•• k ••

أَمَرَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِصِلَةِ الرَّحِمِ فَقَالَ: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا^ط وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ^ث إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾﴾ [النساء: ٣٦].

وَامْتَدَحَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الْوَاصِلِينَ لِأَرْحَامِهِمْ، الْمُتَقَرِّبِينَ إِلَىٰ أَقَارِبِهِمْ فَقَالَ: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ^٤ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿٣١﴾﴾ [الرعد: ٢١].

وَفِي الْمَقَابِلِ ذَمَّ الْقَاطِعِينَ لِأَرْحَامِهِمْ، الصَّارِمِينَ لِحِبَالِ الْوُدِّ بَيْنَهُمْ فَقَالَ: ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ^٥ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ^٦ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٢٥﴾﴾ [الرعد: ٢٥].

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ -: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْخَلْقَ حَتَّىٰ إِذَا فَرَّغَ مِنْهُمْ قَامَتِ الرَّحِمُ فَقَالَتْ: هَذَا مَقَامُ الْعَائِدِ مِنَ الْقَطِيعَةِ، قَالَ: نَعَمْ، أَمَا تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ مَنْ وَصَلَكِ، وَأَنْ أَقْطَعَ مَنْ قَطَعَكِ؟ قَالَتْ: بَلَىٰ، قَالَ: فَذَلِكَ لَكَ»، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اقْرَأُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقْطَعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٣٢﴾﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ

فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾
[محمد: ٢٢-٢٤] (١).

وحيثما نتحدث عن صلة الرّحم فإننا نخاطبُ هذا الواصلَ لرحمِهِ الذي يبرُّ هذه الرّحمَ، يَرجو ثوابَ ذلك وثمارَ هذا العملِ، وقد عَلِمَ أَنَّ هذا الدِّينَ العظيمَ رَبَّ ثَمَارًا وثمرًا لهذا الذي يَصِلُ رَحْمَهُ.

وأعظمُ الأرحامِ: الوالدانِ والإخوةُ والأخواتُ، والأبناءُ والبناتُ، والأعمامُ والعَمَّاتُ، والأخوالُ والخالاتُ، هذا الذي يَصِلُ رَحْمَهُ لِيَنْظُرَ ماذا قَالَ رسولُ الله ﷺ حتى تَشْرِبَ هذه العُنُقُ فَرَحًا وَفَخْرًا أَنَّ اللهَ هداهُ لهذه العِبَادَةِ، وَيَمْتَلِئَ صدرُهُ فَرَحًا وَغِبْطَةً أَنَّ اللهَ - سبحانه - رَبَّ له هذا الأجرَ.

قال ﷺ كما جاء في سُنَنِ التِّرْمِذِيِّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «تَعَلَّمُوا مِنْ أَنْسَابِكُمْ مَا تَصِلُونَ بِهِ أَرْحَامَكُمْ، فَإِنَّ صِلَةَ الرَّحِمِ مَحَبَّةٌ فِي الْأَهْلِ، مَثْرَاءٌ فِي الْمَالِ، مَنَسَاءٌ فِي الْأَثَرِ» (٢).

أي: أَنَّ الأُسْرَةَ التي يَكْثُرُ فيها الوَصْلُ يَكْثُرُ فيها الحُبُّ، وَتَنْمُو فيها الأَمْوَالُ، وَتُطالُ فيها الأَعْمَارُ؛ فابْحَثْ في شَجَرَةِ أُسْرَتِكَ عن ابنِ عَمِّكَ وابنِ عَمَّتِكَ وما لهما مِنَ الأَوْلَادِ، وَخَالَتِكَ وما لهما مِنَ الأَوْلَادِ والبناتِ وَصِلْ هذه الأرحامَ، وَتَعَلَّمْ مِنْ أَنْسَابِكَ لا لِتَفْخَرَ بِهِمْ، وَإِنَّمَا لِتَصِلَ هذه الرّحمَ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب من وصل وصله الله، رقم (٥٩٨٧)، ومسلم: كتاب البر والصلة، باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها، رقم (٢٥٥٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.
(٢) أخرجه أحمد (٣٧٤/٢)، والترمذي: كتاب البر والصلة، باب ما جاء في تعليم النسب، رقم (١٩٧٩).

وفي حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عند البيهقي في شعب الإيمان قال رسول الله ﷺ:
«صِلَةُ الرَّحِمِ وَحُسْنُ الْخُلُقِ يَعْزِمُنَ الدِّيَارَ وَيَزِدُنِ فِي الْأَعْمَارِ» ^(١).

بل إن من الثمار ثمرة لا تخطر لنا على بال، ذكرها النبي ﷺ وكم نحن في حاجة لهذه الثمرة، فقد جاء في سنن الترمذي من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال:
«أَتَى رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي أَصَبْتُ ذَنْبًا عَظِيمًا فَهَلْ لِي مِنْ تَوْبَةٍ؟» فقال له رسول الله ﷺ **«هَلْ لَكَ مِنْ أُمَّ؟»** هو يسأل عن التوبة ورسول الله ﷺ يسأل عن الأم **«قال: لا، قال: «هَلْ لَكَ مِنْ خَالَةٍ؟»** قال: نعم، قال: **«فَرِّهَا»** ^(٢).

فصلة الرحم سبب رئيس في مغفرة الذنوب، فالذنوب العظيمة تمحوها عبادة صلة الرحم.

وأيضاً من ثمار ذلك: وهذا من أعجب أحاديث النبي ﷺ في هذا الباب، أنك أيها الواصل يأتيك أجرك معجلاً في الدنيا، مع ما يدخر لك في الآخرة، فقد جاء في حديث أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند ابن حبان في صحيحه أن النبي ﷺ قال:
«إِنَّ أَعْجَلَ الطَّاعَةِ ثَوَابًا صِلَةُ الرَّحِمِ» وكان أجور هذه الطاعات تتسابق إليك **«حَتَّىٰ إِنَّ أَهْلَ الْبَيْتِ لَيَكُونُوا فَجْرَةً»** أي: عندهم ذنوب ظاهرة، وفجور ظاهر، ومعاص بينة **«فَتَنَّمُوا أَمْوَالَهُمْ، وَيَكْثُرُ عَدَدُهُمْ إِذَا تَوَاصَلُوا، وَمَا تَوَاصَلَ أَهْلُ بَيْتٍ فَيَحْتَاجُونَ أَبَدًا»** ^(٣).

(١) شعب الإيمان رقم (٧٥٩٩).

(٢) أخرجه الترمذي: كتاب البر والصلة، باب ما جاء في بر الخالة، رقم (١٩٠٤/١ م) [طبعة بشار].

(٣) صحيح ابن حبان رقم (٤٤٠).

بَقِيَتْ واحدةٌ وهي عَظِيمَةٌ، وهي أَنْ نَعْلَمَ أَنَّ الْوَاصِلَ بَيْنَهُ لَنَا نَبِيُّنا ﷺ فَقَالَ:
«لَيْسَ الْوَاصِلُ بِالْمُكَافِي» أَي: الَّذِي إِذَا وَصَلُوهُ وَصَلَهُمْ، وَإِذَا أَعْطَوْهُ أَعْطَاهُمْ،
 وَإِذَا مَنَحُوهُ مَنَحَهُمْ، وَإِذَا قَطَعُوهُ مَا التَفَّتْ إِلَيْهِمْ وَقَطَعَهُمْ، فَهَذَا لَيْسَ بِالْوَاصِلِ
«وَلَكِنَّ الْوَاصِلَ الَّذِي إِذَا قُطِعَتْ رَحْمَةُ وَصَلَهَا»^(١).

يَبْحَثُ الرَّحِمَ الْقَاطِعَةَ لَهُ لِيَصِلَهَا وَيَتَقَرَّبَ إِلَى اللَّهِ بِهَذِهِ الْعِبَادَةِ، هَذَا هُوَ
 الْوَاصِلُ الَّذِي يَنَالُ هَذَا الْأَجْرَ الْعَظِيمَ.

وَإِذَا كُنَّا قَدْ عَلِمْنَا بَعْضَ ثَمَارِ صَلَاةِ الرَّحِمِ يَبْقَى أَنْ نَكُونَ وَاقِعِيَيْنَ وَنَعْلَمَ أَنَّ
 مِنْ بَيْنِنَا مَنْ هُوَ قَاطِعٌ لِرَحِمِهِ، وَتَمَّ عَلَيْهِ السَّنَةُ تَلَوَّ السَّنَةَ وَهُوَ قَاطِعٌ لِأَخِيهِ أَوْ لِأُخْتِهِ،
 أَوْ لِأُمِّهِ وَأَبِيهِ، فَمِنْ الْوَاجِبِ عَلَيْنَا: أَنْ نَذْكُرَهُ أَنْ لِقَاطِعِ الرَّحِمِ ضَرَرًا كَبِيرًا يَلْحَقُهُ
 فِي الدُّنْيَا قَبْلَ الْآخِرَةِ، وَإِذَا فَرِحْنَا بِمَعْرِفَةِ ثَمَارِ صَلَاةِ الرَّحِمِ فَلَا بُدَّ أَنْ نَعْرِفَ مَا هُوَ
 ضَرَرُ قَاطِعَةِ الرَّحِمِ.

قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي سُورَةِ مُحَمَّدٍ: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي
 الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ ﴿٢٣﴾ ﴾
 [محمد: ٢٢-٢٣].

فَقَاطِعُ رَحِمِهِ مَلْعُونٌ بِلَعْنَةِ اللَّهِ، مَطْمُوسٌ عَلَى سَمْعِهِ وَبَصَرِهِ عَنْ رُؤْيَاةِ الْحَقِّ،
 فَتَرَاهُ قَدْ يَكُونُ مُصَلِّيًّا لَكِنَّهُ لَا يُوقَفُ، وَصَائِمًا لَكِنَّهُ لَا يَهْتَدِي بِسَبَبِ أَنَّهُ قَاطِعٌ هَذِهِ
 الرَّحِمِ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب ليس الواصل بالمكافي، رقم (٥٩٩١)، من حديث عبد
 الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

كما أن قاطعَ الرَّحِمِ لا يُقْبَلُ منه عملٌ، فقد جاءَ في مُسْنَدِ أَحْمَدَ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ- أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَعْمَالَ بَنِي آدَمَ تُعْرَضُ كُلُّ حَمِيسٍ لَيْلَةَ الْجُمُعَةِ، فَلَا يُقْبَلُ عَمَلُ قَاطِعِ رَحِمٍ»^(١).

أي: تُعْرَضُ الأَعْمَالُ عَلَى اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فَإِذَا ارْتَفَعَ عَمَلٌ سُئِلَ عَنْ حَالِهِ فَإِنْ كَانَ صَاحِبُهُ قَاطِعَ رَحِمٍ لا يُقْبَلُ مِنْهُ عَمَلٌ، وَيَتَرْتَّبُ عَلَى ذَلِكَ أَنَّهُ لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ، فَقَدْ جَاءَ فِي حَدِيثِ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عِنْدَ الإِمَامِ مُسْلِمٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَاطِعُ رَحِمٍ»^(٢).

وكما أن ثوابَ صِلَةِ الرَّحِمِ يُعَجَّلُ فِي الدُّنْيَا كَذَلِكَ ضَرَرُ قَطِيعَةِ الرَّحِمِ يُعَجَّلُ فِي الدُّنْيَا، جَاءَ فِي كِتَابِ الأَدَبِ المُفْرَدِ لِلْبُخَارِيِّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي بَكْرَةَ -رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ- أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَا مِنْ ذَنْبٍ أُخْرَى أَنْ يُعَجَّلَ اللهُ لِصَاحِبِهِ العُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا مَعَ مَا يُدْخِرُ لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ قَطِيعَةِ الرَّحِمِ وَالبَغْيِ»^(٣).

لذا فلنحرص على أن نكون لأرحامنا واصلين ولأقاربنا مُتَّقَرِّبينَ.

•• k ••

(١) مسند أحمد (٢/ ٤٨٤).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب إثم القاطع، رقم (٥٩٨٤)، ومسلم: كتاب البر والصلة، باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها، رقم (٢٥٥٦).

(٣) الأدب المفرد رقم (٦٧)، وأخرجه أيضا أحمد (٣٦/٥)، وأبو داود: كتاب الأدب، باب في النهي عن البغي، رقم (٤٩٠٢)، والترمذي: كتاب صفة القيامة، رقم (٢٥١١)، وابن ماجه: كتاب الزهد، باب البغي، رقم (٤٢١١).

K

K

(٢٥)

ثقافة الاستهبال

•• K ••

اتَّفَقَتْ كلمةُ العُقلاءِ على ذمِّ سوءِ الخُلُقِ، وأنَّه عمَلٌ مرذولٌ، ومَسَلِكٌ دَنِيٌّ، وكذا جاءتِ الشريعةُ الغرَّاءُ بدمِّ سوءِ الخُلُقِ والتَّنْفِيرِ منه، فجاءَ في صحيحِ ابنِ حَبَّانَ مِن حديثِ أبي ثعلبةِ الحُشَنِيِّ -رضي اللهُ تعالى عنه- أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «وإنَّ أبغَضَكُم إليَّ وأبعَدَكُم مِنِّي في الآخرةِ: أسوأكُم أخلاقًا المتشدِّقونَ المتفِيهقونَ الثرثارونَ»^(١).

وقال الأحنفُ بنُ قيسٍ -رحمه اللهُ تعالى-: ألا أخبركُم بأدوأِ الداءِ؟ قالوا: بلى، قال: الخُلُقُ الدَنِيُّ، واللِّسانُ البَدِيُّ^(٢).

وسوءُ الخُلُقِ سببٌ رئيسٌ في دمارِ الأممِ، وهو سببٌ رئيسٌ في انهيارِ الحضاراتِ، وصدَقَ شوقي -رحمه اللهُ تعالى- حينما قال:

وإذا أُصيبَ القومُ في أخلاقِهِم فاقمِ عليهم مأتماً وعويلاً^(٣)

وإنَّ من أبرزِ مظاهرِ سوءِ الخُلُقِ اليومَ: ظاهرةُ الاستهبالِ -السَّفاهةِ والحماقَةِ- وثقافةُ الاستهبالِ جديدةٌ على المُجتمَعِ، برزتْ لنا مع بُروزِ هذه التَّقنيةِ التي

(١) أخرجه أحمد (٤/١٩٣)، وابن حبان في صحيحه رقم (٥٥٥٧).

(٢) أخرجه البيهقي في الشعب رقم (٧٦٧١)، وانظر أدب الدنيا والدين للهاوردي (ص: ٢٤٢).

(٣) الشوقيات (١/١٨٣).

في أيدي الناس، فمواقع التواصل الاجتماعي أبرزت لنا أخلاق الناس الحقيقية، فقد أظهرت لنا هذه المواقع سفاهة وحماسة من أناس لم نتوقع أنهم سفهاء حمقى.

جاء في كتاب أخبار الحمقى والمغفلين لابن الجوزي - رحمه الله تعالى - أنه قيل لعيسى ابن مريم **عليه السلام**: يا روح الله إنك تُحبي الموتى، قال: نعم، بإذن الله، قيل: وتبرئ الأكمه، قال: نعم، بإذن الله، قيل له: فما دواء الحماسة؟ قال: هذا الذي أعيناني ^(١).

وَصَدَقَ مَنْ قَالَ:

لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءٌ يَسْتَطْبُّ بِهِ إِلَّا الْحَمَاقَةَ أَعْيَتْ مَنْ يُدَاوِيهَا ^(٢)

فماذا نسمي هذا الرجل الذي يخرج أمام الناس يرفص إلا أنه سفيه وأحمق، وماذا نسمي هذا الذي يصور نفسه وهو يقلد أصوات البهائم إلا أنه سفيه وأحمق، وماذا نسمي هذا الذي يلبس لباساً لا يلبسه الرجال، ولا يلبسه الأدميون إلا أنه سفيه وأحمق.

وفوق ذلك يُبرز هذا الحمق وهذه السفاهة وهذا الاستهبال، حتى صار للاستهبال مشاهير مع كل أسف، لكنهم جاؤوا في زمن السنوات الخداعات، فقد جاء هؤلاء الحمقى في زمن فتحت لهم المجالس، ومكنوا من صدور المجالس، وامتدت لهم يد التكريم، وفتحت لهم القنوات، واستقبلتهم البرامج على أنهم

(١) أخبار الحمقى والمغفلين لابن الجوزي (ص: ٢٤).

(٢) ذكره ابن عبد البر في العقد الفريد (٢/ ٢٢٦)، والماوردي في أدب الدنيا والدين (ص: ٢٨)، غير

مشاهيرُ الحماقة والسفاهة، وكم هو مؤلمٌ حينما ترى أنه يقع في هذا المُستقع: العطاء والقادة وأبناء القادة وأصحاب القرار، حينما يظهرُونَ وهم يُجارُونَ هذا التَّيار! إنَّه الحُمق، ولم تَبْرُزْ هذه الظواهرُ إلا بسببِ ثلاثة أشياء:

السببُ الأوَّلُ: غيابُ مفهومِ المروءة التي كان يَعْرِفُها الآباءُ والأجدادُ، وَيَعْرِفُها السابقون من سلفِ الأُمَّة، التي قيل فيها:

إِذَا قَلَّ مَاءُ الْوَجْهِ قَلَّ حَيَاؤُهُ وَلَا خَيْرَ فِي وَجْهِ إِذَا قَلَّ مَأْوُهُ^(١)

وقال بعضُ العارفين: خَلَقَ اللهُ الملائكةَ عُقُولاً بلا شهوةٍ، وخالقَ البهائمِ شهوةً بلا عُقولٍ، وخالقَ ابنَ آدمَ وَرَكَّبَ فيه العَقْلَ والشَّهوةَ، فَمَنْ غَلَبَ عَقْلُهُ شهوتهُ التَّحَقَّ بالملائكةِ، وَمَنْ غَلَبَتْ شَهْوَتُهُ عَقْلَهُ التَّحَقَّ بالبهائمِ.

ووالله إنَّكَ لَترى بعضَ الصُّورِ وتقول: هذا ليس بآدمي، فهذا رجلٌ قد ائْبَصَّ شاربُهُ وذَقْنُهُ وهو يَرْقُصُ ويتمايلُ في الشوارعِ! أين هذا عن مروءةِ آبائنا وأجدادنا الذين كان ينجل أحدهم أن يأكل في الطريق، أو أن يضحك فيستمع لضحكِهِ، بل كانوا يروُونَ ذلك من العيبِ وقلة المروءة.

نعم غاب مفهومُ المروءة الذي حينما سُئِلَ عنه الأحنفُ بنُ قيسٍ قيل: يا أحنفُ، ما المروءة؟ قال: أن تَسْتَحِيَّ أن تَعْمَلَ في السِّرِّ ما يُسْتَحْيَى منه في العلانية^(٢).

(١) ذكره المبرد في الفاضل (ص: ٤٣)، غير منسوب، ونسبه الماوردي في أدب الدنيا والدين (ص: ٢٤٧) لصالح بن عبد القدوس.

(٢) أخرجه أبو طاهر المخلص في المخلصيات رقم (٣٠٣٨)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٣٧/٢٤).

نعم، والمروءة كما قال بعض العارفين: الفرق بين العقل والمروءة أن العقل يأمرُك بالإنفع، والمروءة تأمرُك بالأرفع.

ولا يُمكنُ أن تتحصّل على المروءة إلا إذا اجتهدت عليها وأنت صغير؛ لذا أوجّه حديثي لأبنائي الشباب أقول: إذا لم تغرز خُلق المروءة في نفسك الآن فإنه من العسير أن تُحصّلها وأنت كبير، فقد قيل: إن المروءة إذا لم تُحصّل في وقت النشأة فإن تحصيلها عند الكهولة أمرٌ عسير.

السبب الثاني: قلة الحياء، كما تقدّم قبل قليل:

إِذَا قَلَّ مَاءُ الْوَجْهِ قَلَّ حَيَاؤُهُ وَلَا خَيْرَ فِي وَجْهِ قَلِّ مَأْوُهُ

قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّجَلَّ حَيِّي سِتِيرٌ مُحِبُّ الْحَيَاءِ وَالسُّتْرِ»^(١).

والحياءُ نعمةٌ من الله تبارك وتعالى فلا يُخدعَنَّك أصحابُ تلك الثقافات الهابطة ويقولون: الحياءُ ضعفٌ، بل الحياءُ رفعةٌ وقوّةٌ ويُحبُّها الله، وهي شعبةٌ من شعب الإيمان، كما قال رسول الله ﷺ قال: «الْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ»^(٢).

قال إياسُ بنُ قُرّة: كنتُ جالساً عند عمَرَ بنِ عبد العزيز فذكر له الحياءُ فقالوا: الحياءُ من الدين، قال: لا، بل الدينُ كلُّه حياءٌ^(٣).

(١) أخرجه أحمد (٢٢٤/٤)، وأبو داود: كتاب الحمام، باب النهي عن التعري، رقم (٤٠١٢)، والنسائي: كتاب الغسل، باب الاستتار عند الاغتسال، رقم (٤٠٦)، من حديث يعلى بن أمية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب أمور الإيمان، رقم (٩)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها، رقم (٣٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في مكارم الأخلاق رقم (٨٧)، وأبو نعيم في الحلية (٣/١٢٥)، والبيهقي في الشعب رقم (٧٣١٣).

وَصَدَقَ - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى - فَإِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ لِكُلِّ دِينٍ خُلُقًا، وَخُلُقُ الْإِسْلَامِ الْحَيَاءُ»^(١).

والحياء إذا نُزِعَ تَأَثَّرَ الْإِيْمَانُ؛ لِأَنَّهَا مُقْتَرَنَانِ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَالْحَدِيثُ عِنْدَ الْبَيْهَقِيِّ فِي شُعْبِ الْإِيْمَانِ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ: «إِنَّ الْحَيَاءَ وَالْإِيْمَانَ اقْتَرَنَا فِإِذَا رُفِعَ أَحَدُهُمَا رُفِعَ الْآخَرُ»^(٢).

فحينما ترى هذه الصُّورَ التي تَأْتِينَا مِنْ تَصَرُّفَاتِ بَعْضِ أَوْلَادِ الْمُسْلِمِينَ فِي بِلَادِ الْغَرْبِ: إِمَّا أَنْ تُصِيبَكَ الْحَسْرَةُ، وَإِمَّا أَنْ يُصِيبَكَ الْأَلَمُ، فَقَدْ فَتَحَ أَجْدَادُنَا شَرْقَ أَسِيَا كُلَّهَا لَا بَسِيفٍ وَبِنَدَقِيَّةٍ، بَلْ فَتَحُوهَا بِالْخُلُقِ الْحَسَنِ، وَأَبْنَاؤُنَا الْيَوْمَ يُنْفَرُونَ مِنَ الْإِسْلَامِ بِالْخُلُقِ السَّيِّئِ؛ لِذَا قَالَ الْأَوَّلُ:

يُزِينُ الْغَرِيبُ إِذَا مَا اغْتَرَبَ ثَلَاثٌ فَمِنْهُنَّ حُسْنُ الْأَدَبِ
وَتَانِيَةٌ حُسْنُ أَخْلَاقِهِ وَثَالِثَةٌ اجْتِنَابُ الرَّيْبِ^(٣)

السبب الثالث: الغفلة عن محاسن الأخلاق، حُسْنُ الْخُلُقِ الَّذِي قَالَ فِيهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنَّهُ مَقْصِدُ رَيْسٍ فِي بَعْثِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَقَدْ قَالَ: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ»^(٤).

- (١) أخرجه ابن ماجه: كتاب، باب، رقم (٤١٨١، ٤١٨٢)، من حديث أنس، وابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.
(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد رقم (١٣١٣)، والحاكم في المستدرک (٢٢/١)، والبيهقي في الشعب رقم (٧٣٣١).
(٣) انظر: الرسالة القشيرية (٤٤٧/٢)، نفع الطيب للمقري التلمساني (٣٥٥/٢).
(٤) أخرجه أحمد (٣٨١/٢)، والبخاري في الأدب المفرد رقم (٢٧٣)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وقال كما جاء عند الترمذي من حديث أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَا شَيْءٌ أَثْقَلُ فِي مِيزَانِ الْمُؤْمِنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ خُلِقَ حَسَنًا، وَإِنَّ اللَّهَ لَيُبْغِضُ الْفَاحِشَ الْبَدِيءَ»^(١).

فيا أيها الشاب، العاقل، يا مَنْ أكرمك الله بهذا الدين العظيم: هل تقبل لنفسك بعد هذا أَنْ تُصَوَّرَ نَفْسَكَ، وتُبْرَزَ نَفْسَكَ على أَنَّكَ أَحْمَقُ سَفِيهٌ لِتُضْحِكَ النَّاسَ؟! أو لِيَكْثُرَ مُتَابِعُوكَ؟! أو لِتَبَاهِيَ بهذا الحُمَقِ والسَّفَهَةِ!؟

قال ابن القيم - رحمه الله تعالى - في كتابه الرَّائِعِ مَدَارِجِ السَّالِكِينَ: وأدب المرء عنوان سعادته وفلاحه، وقلة أدبه عنوان شقاوته وبواره، فما استجلب خير الدنيا والآخرة بمثل الأدب، ولا استجلب حرمانها بمثل قلة الأدب^(٢).

حَسُنُ الْأَدَبِ هُوَ أَجْمَلُ ثِيَابٍ وَأَجْمَلُ نَسَبٍ؛ لَذَا قِيلَ:

كُنْ ابْنَ مَنْ شِئْتَ وَاکْتَسِبْ أَدَبًا يُغْنِيكَ مُحَمَّدُهُ عَنِ النَّسَبِ
إِنَّ الْجَمَالَ لَيْسَ بِأَثْوَابٍ تُزِينُنَا إِنَّ الْجَمَالَ جَمَالُ الْعِلْمِ وَالْأَدَبِ^(٣)

•• k ••

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الأدب، باب في حسن الخلق، رقم (٤٧٩٩)، والترمذي: كتاب البر والصلة، باب ما جاء في حسن الخلق، رقم (٢٠٠٢).

(٢) مدارج السالكين (٢/٣٦٨).

(٣) البيتان ينسبان لعلي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، انظر: ديوانه (ص: ١٦) جمع عبد العزيز الكرم. والبيت الأول نسبه في معجم الأدباء (٦/٢٧١٦)، والوافي بالوفيات (٢٦/٤١)، وبغية الوعاة (٢/٣٠٠) لأبي ربيعة النحوي.



(٢٦)

عُتْقَاءُ مِنَ النَّارِ فِي غَيْرِ رَمَضَانَ

• • k • •

مِنَ الْأَجُورِ الَّتِي كَانَتْ تَتَطَلَّعُ لَهَا نَفُوسُ الصَّائِمِينَ، وَيُلْهَجُ بِالذُّعَاءِ بِهَا لِسَانُهُمْ: الْعِتْقُ مِنَ النَّارِ، هَكَذَا كَانَتْ تَرْتَفِعُ الْأَيْدِي وَتُلْهَجُ الْأَلْسُنُ تَقُولُ: اللَّهُمَّ أَعْتِقْ رِقَابَنَا وَرِقَابَ وَالِدِينَا مِنَ النَّارِ؛ لِأَنَّهُمْ قَرَأُوا فِي حَدِيثِ النَّبِيِّ ﷺ «إِنَّ لِلَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عُتْقَاءً فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ»، يَعْنِي فِي رَمَضَانَ^(١).

وَقَرَأُوا كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عِنْدَ ابْنِ مَاجَةَ فِي سُنَنِهِ: «إِنَّ لِلَّهِ عِنْدَ كُلِّ فِطْرِ عُتْقَاءً، وَذَلِكَ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ»^(٢).

وَالْعِتْقُ مِنَ النَّارِ مَعْنَاهُ أَنْ يُزْحَرَ الْإِنْسَانُ عَنِ النَّارِ، كَمَا قَالَ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أَجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾^(١٨٥) [آل عمران: ١٨٥].

وهناك أسبابٌ وسُبلٌ مَنْ أَخَذَ بِهَا أُعْتِقَ مِنَ النَّارِ سِوَاءً فِي شَهْرِ رَمَضَانَ أَوْ غَيْرِ شَهْرِ رَمَضَانَ، مِنْهَا:

(١) أخرجه أحمد (٢/٢٥٤)، من حديث أبي هريرة أو أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وانظر أطرف المسند لابن حجر (٧/٢٠٣).

(٢) أخرجه ابن ماجه: كتاب الصيام، باب ما جاء في فضل شهر رمضان، رقم (١٦٤٣).

السبب الأول: تحقيق التوحيد الخالص الذي قال الله فيه سبحانه: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَأَعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴾ (٢) **أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ** ﴿٤﴾ [الزمر: ٢-٣] وجاء في صحيح البخاري من حديث معاذ - رضي الله تعالى عنه - أن النبي ﷺ قال: «**مَا مِنْ أَحَدٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ مُخْلِصًا مِنْ قَلْبِهِ، أَوْ صِدْقًا مِنْ قَلْبِهِ إِلَّا حَرَّمَهُ اللَّهُ عَلَى النَّارِ**»^(١).

السبيل الثاني: العناية بالصلاة؛ أي: العناية بوقتها ووضوئها ورُكوعها وسُجودها، والعناية بها في جماعة سبب في أن تُحرّم على النار، قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ صَلَّى اللَّهُ أَرْبَعِينَ يَوْمًا فِي جَمَاعَةٍ يُدْرِكُ التَّكْبِيرَةَ الْأُولَى كُتِبَ لَهُ بَرَاءَتَانِ: بَرَاءَةٌ مِنَ النَّارِ، وَبَرَاءَةٌ مِنَ النَّفَاقِ**»^(٢).

بل قال ﷺ: «**مَنْ حَافِظٌ عَلَى الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ عَلَى وُضُوئِهَا، وَمَوَاقِيتِهَا، وَرُكُوعِهَا، وَسُجُودِهَا، يَرَاهَا حَقًّا لِلَّهِ عَلَيْهِ حُرْمٌ عَلَى النَّارِ**»^(٣).

السبيل الثالث: مَنْ بَكَى مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ، أَوْ حَرَسَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؛ فقد جاء في حديث ابن عباسٍ عند الترمذي أن النبي ﷺ قال: «**عَيْنَانِ لَا تَمْسُهُمَا النَّارُ: عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ، وَعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ**»^(٤).

(١) أخرجه البخاري: كتاب العلم، باب من خص بالعلم قوما دون قوم، رقم (١٢٨)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعا، رقم (٣٢)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أحمد (٣/١٥٥)، والترمذي: كتاب الصلاة، باب ما جاء في فضل التكبيرة الأولى، رقم (٢٤١)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه أحمد (٤/٢٦٧)، من حديث حنظلة الأسيدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه الترمذي: كتاب فضائل الجهاد، باب ما جاء في فضل الحرس في سبيل الله، رقم (١٦٣٩).

السَّبِيلُ الرَّابِعُ: المَشْيُ إِلَى صَلَاةِ الْجُمُعَةِ؛ فَقَدْ جَاءَ مِنْ حَدِيثِ يَزِيدَ بْنِ أَبِي مَرْيَمَ قَالَ: لِحَقْنِي عَبَايَةَ بْنَ رِفَاعَةَ بْنِ رَافِعٍ وَأَنَا مَاشٍ إِلَى الْجُمُعَةِ فَقَالَ: أَبْشُرْ فَإِنَّ خُطَاكَ هَذِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، سَمِعْتُ أَبَا عَبَسٍ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ اغْبَرَّتْ قَدَمَاهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ حَرَّمَهُمَا اللَّهُ عَلَى النَّارِ» رواه الترمذي^(١).

السَّبِيلُ الْخَامِسُ: السَّاحَةُ وَاللِّينُ فِي الْمُعَامَلَةِ، أَي: أَنْ يَكُونَ الرَّجُلُ سَمَحًا فِي بَيْتِهِ وَخَارِجَهُ، وَإِذَا بَاعَ أَوْ اشْتَرَى، وَإِذَا قَضَى أَوْ اقْتَضَى، سَمَحًا فِي مَسْجِدِهِ وَفِي مَعْمَلِهِ؛ فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ، كَمَا جَاءَ فِي مُسْنَدِ أَحْمَدَ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ: «حَرَّمَ عَلَى النَّارِ كُلُّ هَيْئٍ لَيْسَ سَهْلٍ قَرِيبٍ مِنَ النَّاسِ»^(٢).

السَّبِيلُ السَّادِسُ: وَهُوَ أَنْ تَذُبَّ عَن عِرْضِ إِخْوَانِكَ إِذَا غَابُوا، فَلَا تَسْمَحَ لِأَحَدٍ أَنْ يَخْدِشَ هَذِهِ الْأَعْرَاضَ؛ فَقَدْ جَاءَ فِي مُسْنَدِ أَحْمَدَ مِنْ حَدِيثِ أَسْمَاءَ بِنْتِ يَزِيدَ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ ذَبَّ عَن لَحْمِ أَخِيهِ بِالْغَيْبَةِ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُعْتَقَهُ مِنَ النَّارِ»^(٣).

السَّبِيلُ السَّابِعُ: ذِكْرُ عَظِيمٍ، أَجْرُهُ عَظِيمٌ، هُوَ سَبَبٌ لِلْعِتْقِ مِنَ النَّيرانِ، إِلَّا أَنَّ الْآخِذِينَ بِهِ قَلِيلٌ وَالذَّاكِرِينَ لَهُ أَقْلٌ مِنْ ذَلِكَ؛ فَقَدْ جَاءَ فِي مُسْتَدْرَكِ الْحَاكِمِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ- أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ قَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أُشْهِدُكَ وَأُشْهِدُ مَلَائِكَتَكَ، وَحَمَلَةَ عَرْشِكَ، وَأُشْهِدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ:

(١) أخرجه الترمذي: كتاب فضائل الجهاد، باب ما جاء في فضل من اغبرت قدماه في سبيل الله،

رقم (١٦٣٢)، وأخرجه بنحوه البخاري: كتاب الجمعة، باب المشي إلى الجمعة، رقم (٩٠٧).

(٢) مسند أحمد (١/٤١٥).

(٣) مسند أحمد (٦/٤٦١).

أَنَّكَ أَنْتَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ وَحَدَّكَ لَا شَرِيكَ لَكَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُكَ وَرَسُولُكَ، مَنْ قَالَهَا مَرَّةً أَعْتَقَ اللَّهُ ثَلَاثَةَ مَرَّاتٍ مِنَ النَّارِ، وَمَنْ قَالَهَا مَرَّتَيْنِ أَعْتَقَ اللَّهُ ثُلُثَيْهِ مِنَ النَّارِ، وَمَنْ قَالَهَا ثَلَاثًا أَعْتَقَ اللَّهُ كُلَّهُ مِنَ النَّارِ»^(١).

هذه كُلُّهَا سُبُلٌ تُؤَدِّي إِلَى هَذَا الْأَجْرِ الْعَظِيمِ وَهُوَ: الْعِتْقُ مِنَ النَّارِ؛ فَحَرِيٌّ بِالْمُؤْمِنِ إِذَا لَمْ يَأْخُذْ بِهَذَا الطَّرِيقِ، أَوْ فَاتَهُ ذَاكَ الطَّرِيقُ فَلْيَعْلَمْ أَنَّ فَضْلَ اللَّهِ وَاسِعٌ، وَمَا عَلَيْهِ إِلَّا أَنْ يُبْقِيَ عَلَى سَاعِدِهِ مُشْمَرًا لِلطَّاعَةِ وَالْعِبَادَةِ.

•• k ••

(١) أخرجه البزار في مسنده (٦/٤٩٤، رقم ٢٥٣١)، والطبراني في المعجم الكبير (٦/٢٢٠، رقم ٦٠٦٢)، والحاكم في المستدرک (١/٥٢٣)، من حديث أبي هريرة عن سلمان الفارسي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مرفوعاً.



(٢٧)

أسباب موت الدول

•• k ••

تأمّلتُ في قولِ الحقِّ **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** في سورة الأعرافِ: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً﴾ [الأعراف: ٣٤]، ثم تساءلتُ هل لهذه الأمم - وهو ما يُعبّرُ عنه في عصرنا بالدول - أعمارٌ تنتهي؟ وهل لها أطوارٌ تنتقلُ من خلالها من طورٍ إلى آخر؟

فوجدتُ ابنَ خلدونَ - رحمه الله تعالى - يذكرُ في مُقدّمته: أنَّ الدولَ حالها كحالِ البشرِ، لها ولادةٌ وحياةٌ وأمدٌ ثم تموتُ^(١)، وقد قالَ الحقُّ **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرِيْبَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ﴾ [٤] **مَا نَسِيقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَعْرِضُونَ** [٥] [الحجر: ٤-٥].

فما من دولةٍ إلا ولها تاريخٌ ولادةٍ، ثم تنمو فتقوى ثم تضعفُ وتشيخُ ثم تموتُ، ولكنَّ السؤالَ هل لهذا الموتِ أسبابٌ؟

الجوابُ: نعم، واللهُ جعلَ التاريخَ بين أيدينا، فكلمها وقعتْ أُمَّةٌ في سببٍ من هذه الأسبابِ أماتها اللهُ ثم أحياناً أخرى، قالَ اللهُ **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

(١) انظر: مقدمة ابن خلدون [المطبوع مع تاريخ ابن خلدون] (ص: ٢١٣).

إِنَّهَا سُنَّةُ التَّدَاوُعِ كَمَا قَالَ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١].

وكما قيل:

فِيَوْمٍ عَلَيْنَا، وَيَوْمٍ لَنَا وَيَوْمٍ نَسَاءُ وَيَوْمٍ نَسْرٌ^(١)

هكذا هي الدول، وهكذا حال الأمم.

وأسباب موت الدول وذهابها متعددة، أذكر منها:

السبب الأول: الاستكبار والغرور وما ينتج عنه من استبدادٍ وتسلطٍ مؤذنين بموت الدول، وحينما نقرأ في كتاب الله **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** نجد أن الله ذكر لنا عدداً من الأمم لما استكبرت ماتت وذهبت ولم يبق إلا أثرها بعد أن كانت عينا بارزة.

فها هو فرعون.. قال الحق **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** عنه حينما استكبر وطغى وتجبّر وتمرد:

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَهْمَنُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأظنُّهُ مِنَ الْكٰذِبِينَ﴾ [القصص: ٣٨].

وقال سبحانه: ﴿وَأَسْتَكْبَرَهُ وَهُوَ وَجُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ

إِنَّمَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٣٩].

(١) البيت للنمر بن تولى، انظر: الكتاب لسبويه (١/٨٦)، وشرح الكافية الشافية لابن مالك (١/٣٤٦).

التيجة، قال: ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَحُثُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَاَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ [٤٠] [القصص: ٤٠].

وذكر الحق سبحانه وتعالى في مواضع من كتابه أيضاً عدداً من الأمم، عددها بأسمائها ثم قال: ﴿وَقُرُونًا وَفِرْعَوْنَ وَهَمَانَ﴾ ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا في الأرض وما كانوا سيقين ﴿٣٩﴾ فكلاً أخذنا بذنبيه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴿٤٠﴾ [العنكبوت: ٤٠-٤١].

وقد جاء عند أحمد في مسنده وغيره، من حديث صهيب - رضي الله تعالى عنه - أن النبي ﷺ غداة رجع من غزوة حنين - ونحن نعلم ما حصل في غزوة حنين من الإعجاب بالنفس - قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ﴾ [التوبة: ٢٥] حصل هذا الإعجاب في نفوس الصحابة - رضي الله تعالى عنهم - فأدبهم الله تبارك وتعالى وهم في طريق عودتهم.

فقد قص عليهم رسول الله ﷺ قصة نبي قال: «كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ نَبِيٌّ مِنْ الْأَنْبِيَاءِ آتَاهُ اللَّهُ قُوَّةً فِي جَيْشِهِ» في عددهم وقوتهم؛ فنظر في هذه الجيوش التي تحت يده وهو نبيٌّ «فَقَالَ فِي نَفْسِهِ: مَنْ يَقُومُ لَهُؤْلَاءِ؟ مَنْ يُكَافِي هَؤْلَاءِ؟» أي: مَنْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَتَغَلَّبَ عَلَى هَؤْلَاءِ؟ أصابه شيءٌ من العجب «فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ: أَنْ اخْتَرْ لِقَوْمِكَ إِحْدَى ثَلَاثٍ» نزلت العقوبة مباشرة «إِنَّمَا أَنْ يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ، أَوْ الْجُوعَ، أَوْ الْمَوْتَ، فَاسْتَشَارَ قَوْمَهُ فَقَالُوا: أَنْتَ نَبِيُّ اللَّهِ نَكِلُ الْأَمْرَ إِلَيْكَ، فَاخْتَرْنَا

فَفَرَعِ إِلَى الصَّلَاةِ» وكانوا إذا فَرَعُوا فَرَعُوا إِلَى الصَّلَاةِ «فَقَالَ: يَا رَبِّ، أَمَا أَنْ يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ فَلَا، أَوْ الْجُوعَ فَلَا، وَلَكِنَّ الْمَوْتَ» قَالَ ﷺ: «فَسَلِّطَ عَلَيْهِمُ الْمَوْتَ فَمَاتَ مِنْهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا»^(١).

هذا بسبب أنه حَدَّثَ نَفْسَهُ فَقَطْ، فَإِذَا وَجَدْتَ اسْتِكْبَارًا وَغُرُورًا وَعُجْبًا وَاسْتِبْدَادًا وَتَسَلُّطًا؛ فَاعْلَمْ أَنَّ هَذَا مُؤْذِنٌ بِمَوْتِ تِلْكَ الدَّوْلَةِ.

السَّبَبُ الثَّانِي: سُوءُ اخْتِيَارِ الْأَعْوَانِ، فَحِينَمَا يُسَاءُ فِي اخْتِيَارِ الْأَعْوَانِ الَّذِينَ يُمَكِّنُونَ مِنْ مَفَاصِلِ الدَّوْلَةِ، وَيُمَكِّنُونَ مِنْ مَوَاقِعِ صُنْعِ الْقَرَارِ فَهَذَا مُؤْذِنٌ بِذَهَابِ الدَّوْلَةِ، قَالَ الْحَقُّ **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** وَهُوَ يُبَيِّنُ لَنَا مَعَايِيرَ اخْتِيَارِ الْكِفَاءَاتِ قَالَ: ﴿إِن خَيْرٌ مَنِ اسْتَجَرْتَ الْقَوِيَّ الْأَمِينُ﴾ ﴿٣٦﴾ [القصص: ٢٦] فلا بُدَّ أَنْ يَكُونَ قَوِيًّا وَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ أَمِينًا وَإِلَّا فَلَا.

وقال رسولُ اللهِ ﷺ كما جاءَ في سُنَنِ النَّسَائِيِّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «مَا مِنْ وَاكِ إِلَّا وَلَهُ بَطَانَتَانِ: بَطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَاهُ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَبَطَانَةٌ لَا تَأْلُوهُ خَبَالًا، فَمَنْ وُقِيَ شَرَّهَا فَقَدْ وُقِيَ، وَهُوَ مِنَ النَّبِيِّ تَغْلِبُ عَلَيْهِ مِنْهَا»^(٢) أي: هُوَ مَصْبُوغٌ وَمُتَأَثِّرٌ بِالْبَطَانَةِ الْغَالِبَةِ، وَهَذَا حَقٌّ قَالَهُ النَّبِيُّ ﷺ بِالْوَحْيِ.

وقد وَجَّهَ أَحَدُ الْقَادَةِ الدُّهَاهِ سُؤَالَ إِلَى أَبِي مُسْلِمٍ الْخُرَاسَانِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنْ سَبَبِ مَوْتِ دَوْلَةِ بَنِي أُمَيَّةٍ - وَهُوَ الْخَيْرُ بِمَوْتِهَا؛ لِأَنَّهُ كَانَ أَحَدَ أَسْبَابِ مَوْتِ دَوْلَةِ

(١) أخرجه أحمد (٤/٣٣٣)، والترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة البروج، رقم (٣٣٤٠)،

من حديث صهيب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أحمد (٢/٢٣٧)، والنسائي: كتاب البيعة، باب بطانة الإمام، رقم (٤٢٠١).

بني أمية وقيام دولة بني العباس - فقال أبو مسلم: ماتت تلك الدولة؛ لأنهم أبعدوا أولياءهم؛ ثقة بهم، وأذنوا أعداءهم؛ تأليفاً لهم؛ فلم يصير العدو صديقاً بالذنوب، وصار الصديق بالإبعاد عدواً^(١).

هذا ما قاله أبو مسلم، وهو أحد الدهاة الذين كان لهم المعول الأقوى في موت دولة بني أمية.

السبب الثالث: التمرّد على شرع الله، إذا رأيت دولة تتمرّد على شرع الله فاعلم أنّها ستموت، ربّما تُعمر بسبب ما أُوتيت من خيرٍ في عدلها ثم ستموت، لكنها إذا حاربت شرع الله ولم تكن عادلةً فالموت منها قريب، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [النحل: ١١٢].

وتكلم الحق سبحانه وتعالى عن سبأ فقال: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾﴾ [سبأ: ١٥].

وقال سبحانه: ﴿فَاعْرُضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أَكْلِ خَمْطٍ وَأَثَلٍ وَمَشَىٰ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَزِي إِلَّا الْكَافِرَ ﴿١٧﴾﴾ [سبأ: ١٦-١٧].

(١) انظر: البصائر والذخائر لأبي حيان التوحيدي (٥/١٣٢)، نشر الدر في المحاضرات لأبي سعد الآبي (٥/٤٩).

السَّبْبُ الرَّابِعُ: البَطْرُ فِي المَعِيشَةِ، وَالتَّرَفُ؛ فَتُفْتَحُ الحَزَائِنُ مِنْ مِلايينِ الدَّنَانِيرِ
 عَلَى الإنْفَاقِ عَلَى التَّرَفِ وَالبَطْرِ، وَتُغْلَقُ عَنِ تَنْمِيَةِ الإنسانِ وَمَا يَحْتَاجُهُ، وَمَا يَنْمُو
 بِهِ، قَالَ الحَقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرِيْبٍ بِطَرْتِ مَعِيشَتِهَا ۗ فَنِلْكَ
 مَسَكِنَهُمْ لَمْ تَسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيْلًا ۗ وَكُنَّا نَحْنُ الوَرِثِيْنَ ﴾ [٥٨] [الفصص: ٥٨]،
 وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْبَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيْهَا فَفَسَقُوا فِيْهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ
 فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيْرًا ﴾ [١٦] [الإسراء: ١٦].

وَسَلامٌ عَلَى عُمَرَ بْنِ عَبْدِ العَزِيْزِ رَحِمَهُ اللهُ، ذَلِكَ القَائِدِ الَّذِي كَانَ يُجَارِبُ مَظَاهِرَ
 التَّرَفِ وَالبَطْرِ، بَدَأَ مِنْ دَاخِلِ بَيْتِهِ، فَقَدْ بَلَغَهُ أَنَّ أَحَدَ أبنائِهِ اتَّخَذَ خَاتِمًا بِأَلْفِ دِرْهَمٍ؛
 فَكَتَبَ لَهُ كِتَابًا قَالَ: إِذَا أَتَاكَ كِتَابِي هَذَا فِيعِ الحَاتِمِ، وَأَشْبِعْ بِهِ أَلْفَ بَطْنٍ، وَاتَّخِذْ خَاتِمًا
 بِدِرْهَمَيْنِ، وَاجْعَلْ لَهُ فَصًّا حَدِيْدًا صِيْنِيًّا، وَاكْتُبْ عَلَيْهِ: رَحِمَ اللهُ أَمْرًا عَرَفَ قَدْرَ
 نَفْسِهِ^(١).

إِنَّهُ يُجَارِبُ مَظَاهِرَ التَّرَفِ وَالبَطْرِ لِتَبَقَى الدَّوْلَةُ؛ فَكَلَّمَا كَثُرَ التَّرَفُ وَالبَطْرُ
 وَعَلَا الفُجَّارُ خَرِبَتِ الدِّيَارُ.

وَجَاءَ فِي كِتَابِ الجَوَابِ الكَافِي لِابْنِ قِيَمِ الجَوْزِيَّةِ - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى - قَالَ عُمَرُ
 بِنُ الحَطَّابِ - رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ -: تُوشِكُ الدِّيَارُ أَنْ تُخْرَبَ وَهِيَ عَامِرَةٌ، قِيلَ:
 كَيْفَ تُخْرَبُ وَهِيَ عَامِرَةٌ؟ قَالَ: إِذَا عَلَا فُجَّارُهَا أَبْرَارُهَا، وَسَادَ القَبِيْلَةَ مُنَافِقُوهَا،
 فَإِذَا حَصَلَ هَذَا حَصَلَتِ الاِتِّكَاسَةُ لِلدَّوْلَةِ فَهَاتَتْ^(٢).

• • k • •

(١) ذَكَرَهُ ابْنُ القِيَمِ فِي مَدَارِجِ السَّالِكِيْنَ (٢/٣١٦).

(٢) الجَوَابِ الكَافِي لِابْنِ القِيَمِ (ص: ٤٩).



(٢٨)

أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى

• • k • •

في زمنٍ تكاثرت فيه الفتنُ حتى أحاطت بنا المنكراتُ والضَّلالاتُ من كُلِّ جانبٍ؛ في بيوتنا، وفي خلواتنا، أصبحت هذه المنكراتُ قريبةً مِنَّا، تتسلَّلُ بين أيدينا وأمام ناظرينا؛ فكان لزامًا علينا جميعًا أن نتحدَّثَ عن استِشعارِ رقابةِ المولى **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** وأن نذكَّرَ بها؛ لذا سيكون حديثنا في ظلالِ قولِ الحقِّ -سبحانه-:

﴿أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾ [العلق: ١٤].

فهذا المقصَّرُ في طاعته، الذي أشغَلَتْهُ دُنْيَاهُ عن آخِرَتِهِ: ﴿أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾ [العلق: ١٤].

وهذا الذي جَمَلَ ظاهِرُهُ وغَفَلَ عن باطنِهِ؛ فزَيَّنَ عَمَلَهُ للمَخْلُوقِ وغَفَلَ عن الخالِقِ: ﴿أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾ [العلق: ١٤].

وهذا الذي اغْتَرَّ بِقُوَّتِهِ وسُلْطَانِهِ وجَبْرُوتِهِ؛ فتَسَلَّطَ على أموالِ المسلمين وحُقُوقِهِم: ﴿أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾ [العلق: ١٤].

وهذا الذي أغلَقَ بابَ دارِهِ على نَفْسِهِ ففَعَلَ المنكَرَاتِ وتَلَدَّذَ بها: ﴿أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾ [العلق: ١٤].

قال الحقُّ -سبحانه-: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ (٢١٧) الَّذِي يَرِدُكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقْلِبُكَ فِي السُّجُودِ (٢١٩) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٢٢٠) [الشعراء: ٢١٧-٢٢٠] أي: يراك

فِي بَيْتِكَ، وَفِي طَرِيقِكَ، وَفِي عَمَلِكَ، وَأَنْتَ فِي النَّاسِ، وَفِي خَلْقِكَ، وَفِي بَيْعِكَ
وَشِرَائِكَ، وَفِي رَأْيِكَ فِي جَمِيعِ شَأْنِكَ.

قال السَّعْدِيُّ - رحمه الله تعالى -: الرَّقِيبُ وَالشَّهِيدُ اسْمَانِ مُتْرَادِفَانِ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ
وَكَلاهُمَا يُدُلُّ عَلَى إِحَاطَةِ سَمْعِ اللَّهِ بِالْمَسْمُوعَاتِ، وَإِحَاطَةِ بَصَرِهِ بِالْمُبْصَرَاتِ،
وَعِلْمِهِ بِجَمِيعِ الْمَعْلُومَاتِ الْجَلِيَّةِ وَالْحَقِيقَةِ، وَهُوَ الرَّقِيبُ عَلَى مَا دَارَ فِي الْخَوَاطِرِ
وَتَحَرَّكَتْ بِهِ اللَّوَاخِظُ^(١).

والمُرَاقِبَةُ هِيَ: دَوَامُ عِلْمِكَ أَنَّ اللَّهَ يَرَاكَ فِي جَمِيعِ أَمْرِكَ، وَهِيَ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَ
عَيْنَيْكَ قَوْلَ الْحَقِّ - سُبْحَانَهُ -: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا
لَدَيْهِمْ يَكْفُورُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [الزخرف: ٨٠]، وَقَوْلَ الْحَقِّ - سُبْحَانَهُ -: ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا
لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق: ١٨]، وَقَوْلَ الْحَقِّ - سُبْحَانَهُ -: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا
تُخْفِي الصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾ [غافر: ١٩]، وَقَوْلَ الْحَقِّ - سُبْحَانَهُ -: ﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ
﴿٧﴾﴾ [البلد: ٧]، وَقَوْلَ الْحَقِّ - سُبْحَانَهُ -: ﴿أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾﴾ [العلق: ١٤].

وقد جاء في حديث ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «صَلِّ صَلَاةَ مُودَعٍ
كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ كُنْتَ لَا تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»^(٢).

وَدَخَلَ رَجُلٌ أَحَدَ الْبَسَاتِينِ وَقَدْ عَلَتْ أَشْجَارُ ذَاكَ الْبُسْتَانِ، وَتَرَيَنْتَ أَغْصَانَهُ
بِالزُّهُورِ وَالْوُرُودِ وَالرِّيَّاحِينَ، فِي لَيْلَةٍ قَمَرَاءَ تَسَلَّلَتْ أَضْوَاءُ النُّجُومِ فِي هَذَا الْبُسْتَانِ
فَجَعَلَتْهُ جَنَّةً فِي الْأَرْضِ، فَإِذَا بِهِ يَلْتَقِي بِامْرَأَةٍ وَيُرَاوِدُهَا عَنْ نَفْسِهَا فَتَمَنَعُ وَتَرْفُضُ،

(١) تفسير أسماء الله الحسنى للسعدي (ص: ٢٠٧).

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط رقم (٤٤٢٧)، والبيهقي في الزهد الكبير رقم (٥٢٨).

وهو يختار لها أجمل الألفاظ وأحسن الأشعار في هذه الأجواء، ويقول لها: لا يرانا إلا هذه الكواكب، فتقول له بلسان الواثقة بنظر الحق - سبحانه -: فأين مَكُونُكِهَا؟^(١)

فإذا حَدَّثَتْكَ نَفْسُكَ بِمَعْصِيَةٍ وَقَالَتْ لَكَ: لا يراك أحد؛ فقل لها: فأين الله؟! الله!

وجاء حميد الطويل لسليمان بن علي وقال: عِظْنِي، قال: لئن كُنْتَ إِذَا عَصَيْتَ اللَّهَ خَالِيًا، فَإِنْ كُنْتَ تَظُنُّ وَأَنْتَ تَفْعَلُ الْمَعْصِيَةَ أَنَّ اللَّهَ يِرَاكَ فَقَدْ اجْتَرَأْتَ عَلَى أَمْرٍ عَظِيمٍ، وَإِنْ كُنْتَ تَظُنُّ أَنَّ اللَّهَ لا يِرَاكَ فَقَدْ كَفَرْتَ^(٢).

لذا لَمَّا جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوْصِنِي، قَالَ: «أَوْصِيكَ أَنْ تَسْتَحِيَّ مِنَ اللَّهِ كَمَا تَسْتَحِيَّ مِنَ الرَّجُلِ الصَّالِحِ فِي قَوْمِكَ»^(٣).

وقال ابن عمر - رضي الله تعالى عنهما -: لا يَجِدُ عَبْدٌ صَرِيحَ الْإِيْمَانِ حَتَّى يَعْلَمَ بِأَنَّ اللَّهَ - تَعَالَى - يِرَاهُ فَلا يَعْمَلُ سِرًّا يَفْتَضِحُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

أي: لا يَكْفِي أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ يِرَاكَ، بَلْ لا يَعْمَلُ سِرًّا يَفْتَضِحُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، قَالَ الْحَقُّ - سَبْحَانَهُ -: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ

(١) انظر: اعتلال القلوب للخراطي رقم (٨٣)، وشعب الإيمان للبيهقي رقم (٨٥٢)، وذم الهوى لابن الجوزي (ص: ٢٧٢).

(٢) ذكره الغزالي في الإحياء (٤/٣٩٨).

(٣) أخرجه أحمد في الزهد رقم (٢٤٨)، والطبراني في المعجم الكبير (٦/٩٦، رقم ٥٥٣٩)، من حديث سعيد بن يزيد الأزدي، مختلف في صحبته.

يُبَيِّنُونَ مَا لَا يُرَضَّى مِنَ الْقَوْلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ [النساء: ١٠٨]

إِذَا مَا خَلَوْتَ الدَّهْرَ يَوْمًا فَلَا تَقُلْ خَلَوْتُ وَلَكِنْ قُلْ عَلَيَّ رَقِيبٌ

وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ يَغْفُلُ سَاعَةً وَلَا أَنَّ مَا تُخْفِي عَلَيْهِ يَغِيبُ^(١)

وقد جاء أن السري بن دينار نزل في سفره دربا مأهولا فيه أناس وفيه امرأة حسناء تفننت في فتنه الرجال فقيل لها: إن السري بن دينار نزل في درب كذا وكذا، قالت: لأفنته؛ فترينت فوق زيتتها، وتجملت فوق جمالها، وجاءته وقد تغنجت فوق دلالها، فقالت للسري: هل لك في فراشٍ وطىٍّ وعيشٍ رخيٍّ؟ فقال لها وهو يستشعر رقابة الحق - سبحانه - وكأنه ينظر إلى الجنة والنار:

وَكَمْ ذِي مَعَاصٍ نَالَ مِنْهُنَّ لَذَّةً مَاتَ فَخَلَّاهَا فَذَاقَ الدَّوَاهِي

تَصَرَّمُ لَذَاتُ الْمَعَاصِي وَتَنْقُضِي وَتَبْقَى تَبَعَاتُ الْمَعَاصِي كَمَا هِيَ^(٢)

أي: أن لذة المعصية تذهب بعد لحظاتٍ وتبقى التبعات، وألم وتعب الطاعة يذهب ويبقى الأجر.

وهذا شاب جعل الله في قلبه الإيمان والصلاح رن هاتفه في ساعة متأخرة من الليل؛ فإذا بصوت امرأة تتحدث معه وتعرض نفسها عليه، وتقول: رأيتُ فيك كذا وكذا، رأيتُ صورتك، رأيتك، أحببتك، وتأتي بهذا الكلام المنكر الخبيث،

(١) اختلف في قائلها، فنسبها البعض إلى أبي نواس، انظر: تاريخ دمشق لابن عساكر (١٣/٤٥٥)، وديوان أبي نواس (ص: ٢٠١)، وهما أيضا في ديوان أبي العتاهية (ص: ٣٤)، ونسبها في الحماسة البصرية (٤٧/٢) للحسن بن عمرو الإباضي، وقال: وتروى لأبي محمد التيمي.

(٢) انظر: ذم الهوى لابن الجوزي (ص: ٢٣٤-٢٣٥).

فإذا به يُنطقه الحق سبحانه يقول لها: ولكني أخاف، قالت له: رجُلٌ وتُخافُ؟! قال: ﴿إِنِّي أَخَافُ إِنَّ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (١٥) مَن يُصِرَّ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ، وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾ [الأنعام: ١٥-١٦]، قالت: أنا آسفةٌ أخطأتُ في الرقم.

نعم، الذي يستشعرُ رقابةَ الله إذا وجدَ المنكراتِ بينَ يديه لا بُدَّ أن يقول: إني أخاف، تُؤمِّنُ على مالِ المسلمين لا بُدَّ أن تخاف، تُؤمِّنُ على أعراضِ المسلماتِ لا بُدَّ أن تخاف، تتهيأُ لك فُرصةُ الوقوعِ في الذَّنْبِ حيث لا يراك النَّاسُ أبداً لا بُدَّ أن تقول: إني أخاف؛ لأنك تستشعرُ رقابةَ الحقِّ - سبحانه - : ﴿إِنِّي أَخَافُ إِنَّ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (١٥) [الأنعام: ١٥].

جاء الإمام السُّلَمِيُّ - إمامٌ من أئمَّةِ المسلمين - يَسْتَأْذِنُ والدتهُ في الحجِّ، قال: جئتُ أَسْتَأْذِنُكَ في أداءِ الحجِّ، فقالت هذه الأُمُّ المُرِيَّةُ: إذا توجَّهتَ إلى بيتِ الله الحرامِ فلا يكتبنَّ عليك حافظاك شيئاً تستحي منه غداً^(١).

فاستشعارُ مقامِ المراقبةِ لا بُدَّ أن نُحْيِيه في نفوسنا وضمائرنا، ونجعلهُ حاضراً بين أعيننا، نعم هذه الجوارحُ والأركانُ تُريدُ أن تتلذَّذَ بهذه الشهواتِ، وتأخذَ حظَّها من هذه المنكراتِ، فإذا لبَّينا رَغباتِ هذه الجوارحِ، وتخطَّينا الحدودَ؛ فإنَّها ستَنقَلِبُ علينا يومَ القيامةِ شهوداً.

قال الحقُّ سبحانه وتعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَشْهَدُ

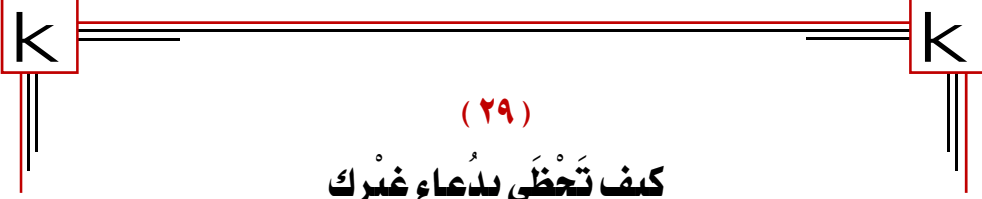
أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (٦٥) [يس: ٦٥].

(١) انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (١٧/٢٤٩).

وقال - سبحانه - : ﴿ حَقَّ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا لِيُجْلِدُوهُمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [فصلت: ٢٠-٢١].

فحريٌّ بالمؤمن أن يستشعرَ نظرَ الرَّبِّ **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** وأن يعيشَ على الدَّوامِ وهو يَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** لا يَخْفَى عليه شيءٌ من أمرِهِ.

• • k • •



(٢٩)

كَيْفَ تَحْظَى بِدُعَاءِ غَيْرِكَ

•• k ••

مَرَّ مَعْرُوفٌ الْكَرَّخِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - عَلَى رَجُلٍ يَبِيعُ الْمَاءَ وَهُوَ يَدْعُو وَيَقُولُ: رَحِمَ اللَّهُ مَنْ يَشْرَبُ؛ فَتَقَدَّمَ إِلَيْهِ مَعْرُوفٌ فَشَرِبَ مِنْهُ، فَقَالُوا: يَا مَعْرُوفُ، أَلَمْ تَكُ صَائِمًا؟ قَالَ: بَلَى، قَالُوا: فَلِمَ شَرِبْتَ؟ قَالَ: رَجَاءً أَنْ يَكُونَ مُجَابَ الدَّعْوَةِ فَيُسْتَجَابَ لَهُ ^(١).

فَكَانُوا يَتَعَرَّضُونَ لِدَعَوَاتِ الصَّالِحِينَ؛ لَعَلَّهُمْ أَنْ يَنْتَفِعُوا بِدَعْوَةِ صَالِحٍ مِنْ رَجُلٍ صَالِحٍ.

وَذَكَرَ ابْنُ حَجَرٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - فِي فَتْحِ الْبَارِي عَنْ أَبِي دَاوُدَ: أَنَّهُ كَانَ فِي سَفِينَةٍ قُبَالَةَ الشَّطِّ فَسَمِعَ رَجُلًا عَلَى الشَّطِّ عَطَسَ وَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ، فَمَا كَانَ مِنْ أَبِي دَاوُدَ إِلَّا أَنْ اسْتَأْجَرَ قَارِبًا صَغِيرًا بِدَرَاهِمٍ وَجَاءَ إِلَى الشَّطِّ إِلَى هَذَا الْعَاطِسِ فَقَالَ لَهُ: يَرْحَمُكَ اللَّهُ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى السَّفِينَةِ، فَقَالُوا: مَا حَمَلَكَ يَا أبا دَاوُدَ عَلَى مَا صَنَعْتَ؟ قَالَ: رَجَاءً أَنْ يَكُونَ مُجَابَ الدَّعْوَةِ فَيُسْتَجِيبَ اللَّهُ لَهُ، فَلَمَّا تَحَرَّكَتِ السَّفِينَةُ وَهَجَمَ اللَّيْلُ وَهَجَعَ رُكَّابُ السَّفِينَةِ؛ إِذَا بِهِمْ يَسْمَعُونَ هَاتِفًا فِي السَّمَاءِ يَقُولُ: يَا أَهْلَ السَّفِينَةِ، إِنَّ أبا دَاوُدَ اشْتَرَى الْجَنَّةَ مِنَ اللَّهِ بِدَرَاهِمٍ ^(٢).

(١) انظر: الرسالة القشيرية (ص: ٤٤)، ووفيات الأعيان لابن خلكان (٥/ ٢٣٢-٢٣٣).

(٢) فتح الباري (١٠/ ٦١٠-٦١١).

وفي صحيح ابن حبان وفي غيره: قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «لَمَّا رَأَيْتُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ طَيْبَ النَّفْسِ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ادْعُ لِي، قَالَ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِعَائِشَةَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهَا وَمَا تَأَخَّرَ، وَمَا أَسْرَتْ وَمَا أَعْلَنْتُ» قال الراوي: «فَضَحِكْتُ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا حَتَّى سَقَطَ رَأْسُهَا فِي حِجْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنَ الضَّحِكِ، فَقَالَ لَهَا النَّبِيُّ ﷺ: أَيْسُرُكَ دُعَائِي؟ قَالَتْ: وَمَا لِي لَا يَسُرُّنِي دُعَاؤُكَ؟!»^(١).

وقال أنس -رضي الله تعالى عنه-: انطلقت بي أمي إلى رسول الله ﷺ وأنا غلامٌ فقالت: يا رسول الله، خويذمك أنس؛ فادع الله له، قال: «اللَّهُمَّ اكْثِرْ مَالَهُ وَوَلَدَهُ، وَأَطِلْ عُمُرَهُ، وَاغْفِرْ ذَنْبَهُ». قال أنس: فاستجاب الله له^(٢).

وإذا كان رسول الله ﷺ قضي وذهب، فكيف يستجيبُ الله -تعالى- له دعاءه؟
فيما؟ وكيف نتعرض لدعواته؟

الجواب: نجد في السنة أعمالاً يسيرةً من أتى بها أصابته دعوة النبي ﷺ بيد أن الآخذ بهذه الأعمال قليل، والمستمسك بها قليل، نذكر بعض التماذج، وكل ذلك في دعواته ﷺ بالرحمة لأعمال مخصوصة وصفات مخصوصة:

النموذج الأول: جاء عند أبي داود من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن النبي ﷺ قال: «رَحِمَ اللَّهُ امْرَأً صَلَّى قَبْلَ الْعَصْرِ أَرْبَعًا»^(٣) فهذا الذي يُحافظ على أربع ركعات بعد الأذان قبل الإقامة، إذا دخل المسجد صلى أربع ركعات قبل العصر،

(١) صحيح ابن حبان رقم (٧١١١).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الدعوات، باب دعوة النبي ﷺ لخادمه بطول العمر، رقم (٦٣٤٤)، ومسلم: كتاب المساجد، باب جواز الجماعة في النافلة، رقم (٦٦٠).

(٣) أخرجه أحمد (١١٧/٢)، وأبو داود: كتاب الصلاة، باب الصلاة قبل العصر، رقم (١٢٧١).

تُصِيْبُهُ هَذِهِ الدَّعْوَةُ، وَتُصِيْبُهُ هَذِهِ الرَّحْمَةُ، سِوَاءَ كَانِ ﷺ يَدْعُو لَهُ بِالرَّحْمَةِ أَوْ يُجْبِرُ عَنْهُ أَنَّهُ مَرْحُومٌ.

النَّمُودَجُ الثَّانِي: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَالْحَدِيثُ عِنْدَ الْبُخَارِيِّ وَأَحْمَدَ وَغَيْرِهِمَا، مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «رَحِمَ اللَّهُ الْمُحَلِّقِينَ» أَي: فِي الْعُمْرَةِ أَوْ فِي الْحَجِّ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَالْمُقَصِّرِينَ، قَالَ: «رَحِمَ اللَّهُ الْمُحَلِّقِينَ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَالْمُقَصِّرِينَ، قَالَ: «رَحِمَ اللَّهُ الْمُحَلِّقِينَ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَالْمُقَصِّرِينَ، قَالَ: «وَالْمُقَصِّرِينَ»^(١) فَدَعَا بِالرَّحْمَةِ ثَلَاثًا لِمَنْ حَلَقَ رَأْسَهُ فِي حَجٍّ أَوْ عُمْرَةٍ؛ فَمَنْ جَاءَ إِلَى الْحَجِّ أَوْ الْعُمْرَةِ فَلَا يُقَوِّتُ هَذِهِ الْفُرْصَةَ.

النَّمُودَجُ الثَّلَاثُ: جَاءَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ- قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ، فَتَعَجَّلْ كُلُّ نَبِيٍّ دَعْوَتَهُ، وَاخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٢) أَي: تَعَجَّلْ كُلُّ نَبِيٍّ دَعْوَتَهُ إِلَّا النَّبِيَّ ﷺ جَعَلَ هَذِهِ الدَّعْوَةَ الْمُسْتَجَابَةَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ شَفَاعَةً لِلْأُمَّةِ، يَشْفَعُ لَهُمْ فِي مَوَاضِعَ مُتَعَدِّدَةٍ: يَشْفَعُ لَهُمْ فِي أَرْضِ الْمَحْشَرِ فَيُعَجَّلُ لَهُمْ فِي الْحِسَابِ، وَيَشْفَعُ لِلنَّاسِ فَيُخَفِّفُ عَلَيْهِمُ الْعَذَابَ، وَيَشْفَعُ لِلنَّاسِ فَيُخْرِجُهُمْ مِنَ النَّارِ، وَيَشْفَعُ لِلنَّاسِ فَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ، وَيَشْفَعُ لِلنَّاسِ فَيَرْفَعُ دَرَجَاتِهِمْ فِي الْجَنَّةِ.

(١) أخرجه أحمد (٧٩/٢)، والبخاري: كتاب الحج، باب الحلق والتقصير عند الإحلال، رقم

(١٧٢٧)، ومسلم: كتاب الحج، باب تفضيل الحلق على التقصير، رقم (١٣٠١)، من حديث

ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الدعوات، باب لكل نبي دعوة مستجابة، رقم (٦٣٠٤)، ومسلم:

كتاب الإيمان، باب اختباء النبي ﷺ دعوة الشفاعة لأُمَّته، رقم (١٩٩).

فإذا أردنا أن تُصَيِّبَنَا وَتَشْمَلَنَا شَفَاعَةُ النَّبِيِّ ﷺ فَعَلَيْنَا بَعْمَلٍ يَسِيرٍ، وَوَاللَّهُ
 إِنَّ الْعَامِلِينَ بِهِ قَلِيلٌ، فَقَدْ جَاءَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ مِنْ حَدِيثِ جَابِرٍ -رَضِيَ اللَّهُ
 تَعَالَى عَنْهُ- أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ النَّدَاءَ: اللَّهُمَّ رَبَّ
 هَذِهِ الدَّعْوَةِ التَّامَّةِ وَالصَّلَاةِ الْقَائِمَةِ، آتِ مُحَمَّدًا الْوَسِيلَةَ وَالْفَضِيلَةَ، وَابْعَثْهُ مَقَامًا
 مَحْمُودًا الَّذِي وَعَدْتَهُ؛ حَلَّتْ لَهُ شَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١).

فقط يُرَدُّ هذا الدعاء اليسير، ومع ذلك فإننا نتقاعس وتضعف الهمة عن
 ترديد دعاء يسير يكون سبباً في شفاعته النبي ﷺ في يوم القيامة.

النموذج الرابع: دعا النبي ﷺ بالرحمة لذلك الرجل، قال: «رَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا
 قَامَ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَّى وَأَيْقَظَ امْرَأَتَهُ؛ فَإِنْ أَبَتْ نَضَحَ فِي وَجْهِهَا الْمَاءَ، وَرَحِمَ اللَّهُ امْرَأَةً
 قَامَتْ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَّتْ وَأَيْقَظَتْ زَوْجَهَا؛ فَإِنْ أَبَى نَضَحَتْ فِي وَجْهِ الْمَاءِ»^(٢).

هذا الذي يقوم ويوقظ أهله ليصلي ركعتين أو أكثر تُصيِّبه دعوة النبي ﷺ
 بالرحمة.

النموذج الخامس: جاء في صحيح البخاري من حديث جابر -رضي الله
 تعالى عنه- أن النبي ﷺ قال: «رَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا سَمَحًا إِذَا بَاعَ وَاشْتَرَى وَاقْتَضَى»^(٣)
 هو سَمَحٌ فِي كُلِّ حَالِهِ، هَذَا مَرَحُومٌ تُصيِّبه دعوة النبي ﷺ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب الدعاء عند النداء، رقم (٦١٤).

(٢) أخرجه أحمد (٢/٢٥٠)، وأبو داود: كتاب الصلاة، باب قيام الليل، رقم (١٣٠٨)، والنسائي:
 كتاب قيام الليل وتطوع النهار، باب الترغيب في قيام الليل، رقم (١٦١٠)، وابن ماجه: كتاب
 إقامة الصلاة والسنة فيها، باب ما جاء فيمن أيقظ أهله من الليل، رقم (١٣٣٦)، من حديث
 أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري: كتاب البيوع، باب السهولة والسماحة في البيع، رقم (٢٠٧٦).

النموذج السادس: ذاك الذي لا يقول إلا خيراً، ويسكت عن الشر؛ فقد جاء في كتاب الزهد لابن المبارك من حديث خالد بن أبي عمران، أن النبي ﷺ قال: «رَحِمَ اللهُ عَبْدًا قَالَ خَيْرًا فَعَنِمَ، أَوْ سَكَتَ عَن سُوءٍ فَسَلِمَ»^(١).

النموذج السابع: الرفق على من تحت يدك، جاء في صحيح مسلم من حديث عائشة - رضي الله تعالى عنها - قال رسول الله ﷺ: «اللَّهُمَّ مَنْ وَليَ مِنْ أُمَّتِي شَيْئًا فَشَقَّ عَلَيْهِمْ فَاشْتَقُّ عَلَيْهِ، وَمَنْ وَليَ مِنْ أُمَّتِي شَيْئًا فَارْفُقْ بِهِ»^(٢).

ودعوة النبي ﷺ مستجابة، فكلما كنت رفيقاً بمن تحت يديك رفق الله تبارك وتعالى بك، ومن منّا في غنى عن رفق الله تبارك وتعالى به؟!

النموذج الثامن: جاء عند أبي داود، من حديث صخر الغامدي رضي الله عنه: دعا النبي ﷺ لأهل البكور بالبركة، فقال: «اللَّهُمَّ بَارِكْ لِأُمَّتِي فِي بُكُورِهَا»، وصخر رجل تاجر، وكان لا يبعث تجارته إلا في أول النهار؛ فأثرى وكثر ماله^(٣).

أمّا اليوم فالأمة أبعد ما تكون عن البكور، فقد فوتت هذا الوقت المبارك الذي دعا النبي ﷺ لأهله بالبركة.

النموذج التاسع: ما جاء عند الترمذي أن النبي ﷺ بين ودعا لمن تحلل من

(١) الزهد لابن المبارك (١/١٢٨، رقم ٣٨٠).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل، رقم (١٨٢٨).

(٣) أخرجه أحمد (٣/٤١٧)، وأبو داود: كتاب الجهاد، باب في الابتكار في السفر، رقم (٢٦٠٦)، والترمذي: كتاب البيوع، باب ما جاء في التبكير بالتجارة، رقم (١٢١٢)، وابن ماجه: كتاب التجارات، باب ما يرجى من البركة في البكور، رقم (٢٢٣٦).

ظَلَمَ الآخِرِينَ بِالرَّحْمَةِ، قَالَ: «رَحِمَ اللهُ عَبْدًا كَانَتْ لِأَخِيهِ عِنْدَهُ مَظْلَمَةٌ مِنْ: عَرَضٍ أَوْ مَالٍ فَجَاءَهُ؛ فَاسْتَحَلَّهُ»^(١).

فَإِذَا كَانَ قَدْ وَقَعَ مِنْكَ ظُلْمٌ عَلَى الآخِرِينَ فَاهْتَمَّ وَتَحَلَّلَ مِنْهُمْ تُصَبِّحُ دَعْوَةَ النَّبِيِّ ﷺ بِالرَّحْمَةِ.

وَمِنَ الدَّعَوَاتِ الَّتِي يُبَغْيُ أَنْ تَتَعَرَّضَ إِلَيْهَا: دَعَوَاتُ الْمَلَائِكَةِ، فَالْمَلَائِكَةُ خَلَقُوا مَعْصُومِينَ مِنَ الْخَطَا، كَمَا قَالَ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم: ٦] وَهُمْ خَلَقُوا عَظِيمٌ عِنْدَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَدُعَاؤُهُمْ مُجَابٌّ، وَهَذَا الدُّعَاءُ كَثِيرٌ أَذْكَرُ مِنْهُ بَعْضُ النَّمَازِجِ:

النَّمُودَجُ الْأَوَّلُ: هَلْ تَعَلَّمْتَ أَنَّكَ إِذَا جِئْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فِي اللَّيْلِ وَبِتَّ طَاهِرًا مُتَوَضِّئًا؛ فَإِنَّكَ لَا تَنْقَلِبُ يَمَنَةً وَيَسْرَةً إِلَّا وَالْمَلَكُ يَقُولُ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِعَبْدِكَ فُلَانًا، فَقَدْ جَاءَ عِنْدَ الطَّبْرَانِيِّ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «طَهَّرُوا أَجْسَادَكُمْ طَهَّرَكُمُ اللهُ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ عَبْدٌ يَبِيتُ طَاهِرًا إِلَّا بَاتَ مَعَهُ مَلَكٌ فِي شِعَارِهِ لَا يَنْقَلِبُ سَاعَةً مِنَ اللَّيْلِ إِلَّا قَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِعَبْدِكَ فَإِنَّهُ بَاتَ طَاهِرًا»^(٢).

هَذَا وَأَنْتَ نَائِمٌ لَسْتَ فِي عَمَلٍ تَدْعُو لَكَ مَلَائِكَةُ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ.

النَّمُودَجُ الثَّانِي: جَعَلَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِأَهْلِ الصَّفِّ الْأَوَّلِ وَالصُّفُوفِ الْأُولَى الْمُتَقَدِّمَةِ فَضِيلَةَ دُعَاءِ الْمَلَائِكَةِ لَهُمْ؛ فَقَدْ جَاءَ فِي سُنَنِ ابْنِ مَاجَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ:

(١) أخرجه الترمذي: كتاب صفة القيامة، باب ما جاء في شأن الحساب والقصاص، رقم (٢٤١٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه رقم (١٠٥١)، والطبراني في المعجم الكبير (١٢/٤٤٦)، رقم (١٣٦٢٠).

«إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى الصَّفِّ الْأَوَّلِ»^(١).

وصلاة الله ثناؤه على عبده، وصلاة الملائكة دعاء له.

وقد يفوتك الصف الأول، فلا يفوتك صلاة الصفوف، حتى لو كنت في الصف الأخير فإن النبي ﷺ يقول: «إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى الَّذِينَ يَصَلُّونَ الصُّفُوفَ»^(٢).

فلا تقف في مكانك كأنك قد ربطت فيه، بل كلما وجدت فرجة تقدم إليها، وسد الصف؛ حتى يصلي عليك الله تبارك وتعالى وتُصلي عليك الملائكة.

النموذج الثالث: جاء في حديث عليّ -رضي الله تعالى عنه- عند الحاكم في مستدركه قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ رَجُلٍ يَعُودُ مَرِيضًا مُمَسِيًّا إِلَّا خَرَجَ مَعَهُ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَسْتَغْفِرُونَ لَهُ حَتَّى يُصْبِحَ وَكَانَ لَهُ خَرِيفٌ فِي الْجَنَّةِ، وَمَنْ آتَاهُ مُصْبِحًا خَرَجَ مَعَهُ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَسْتَغْفِرُونَ لَهُ حَتَّى يُمِيزَ وَكَانَ لَهُ خَرِيفٌ فِي الْجَنَّةِ»^(٣)، أي: إذا عُدت مريضاً سواءً في بيته، أو في مُستشفاه، أو في مكتبه؛ خَرَجَ

(١) أخرجه أحمد (٤/٢٨٥)، وابن ماجه: كتاب إقامة الصلاة، باب فضل الصف المقدم، رقم

(٩٩٧)، من حديث البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أحمد (٦/٦٧)، وابن ماجه: كتاب إقامة الصلاة، باب إقامة الصفوف، رقم (٩٩٥)،

من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٣) أخرجه أحمد (١/١٢٠-١٢١)، وأبو داود: كتاب الجنائز، باب في فضل العيادة على وضوء،

رقم (٣٠٩٨)، والترمذي: كتاب الجنائز، باب ما جاء في عيادة المريض، رقم (٩٦٩)، وابن

ماجه: كتاب الجنائز، باب ما جاء في ثواب من عاد مريضاً، رقم (١٤٤٢)، والحاكم في المستدرک

(١/٣٤١).

معك سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ، كُلُّهُمْ يَقُولُونَ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِعَبْدِكَ» وليست واحدة، وإنما يدعون لك من حين خُرُوجِكَ إلى أن تُمِيتِي، أو إلى أن تُصَبِّحَ.

النموذج الرابع: وهو أشبه ما يكون بالهدية لأساتذتنا ومعلمينا ومشايخنا الذين يُعَلِّمُونَنَا الخَيْرَ، وكان لهم فَضْلٌ عَلَيْنَا فِي تَعْلِيمِنَا وَتَدْرِيسِنَا: إِنَّ الْمَلَائِكَةَ نُصَلِّي عَلَى مُعَلِّمِ النَّاسِ الخَيْرِ؛ فَقَدْ جَاءَ عِنْدَ التِّرْمِذِيِّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي أَمَامَةَ -رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ- أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ وَأَهْلَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِينَ حَتَّى النَّمْلَةَ فِي جُحْرِهَا وَحَتَّى الْحُوتَ لَيُصَلُّونَ عَلَى مُعَلِّمِ النَّاسِ الخَيْرِ»^(١) أَي: فليُبَشِّرِ المَدْرَسَ فِي مَدْرَسَتِهِ أَوْ فِي جَامِعَتِهِ، وَالشَّيْخَ فِي مَسْجِدِهِ وَمُجْرَابِهِ وَعَلَى مَنْبَرِهِ، وَمُعَلِّمِ الْقُرْآنِ؛ فَإِنَّهُمْ إِذَا احْتَسَبُوا الأَجْرَ مِنَ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ يُقَيِّضُ لَهُمْ هَذَا الخَلْقَ مِنَ مَلَائِكَةِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ.

إِنَّهُ اسْتِثْمَارُ الذِّكْرِ أَنْ تَتَعَرَّضَ لَدَعْوَاتِ الصَّالِحِينَ، فَلَا تُفَوِّتْ عَلَى نَفْسِكَ هَذِهِ العِبَادَةَ.



(١) أخرجه الترمذي: كتاب العلم، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة، رقم (٢٦٨٥).



(٣٠)

اليَوْمُ الْحَقُّ

•• k ••

قال الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ (٣٨) ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ أَخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَتَابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ بَلَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا ﴿٤٠﴾ [النبا: ٣٨-٤٠].

واليَوْمُ الْحَقُّ هو اليومُ الآخِرُ، وهو اليومُ الذي تَجَمُّعُ فيه الخلائقُ، وهو أحدُ أسماءِ يومِ القيامةِ، وهو أحدُ أصولِ الإيمانِ التي لا يَصِحُّ إيمانُ العبدِ إلَّا به. واليومُ الآخِرُ غَفَلَ عنه كثيرٌ من النَّاسِ حتى اسْتَحْكَمَتْ هذه العَفْلَةُ في حياةِ النَّاسِ، وتناسوا ذلك اليومَ، وغفلوا عنه غَفْلَةً شديدةً، حتى قال الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِعَائِنِنَا بِمُحَدِّثِينَ﴾ (٥١) [الأعراف: ٥١].

وقال رسولُ الله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ-: «يُؤْتَى بِالْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُقَالُ لَهُ» أي: يقولُ له الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى «أَلَمْ أَجْعَلْ لَكَ سَمْعًا وَبَصَرًا وَوَلَدًا، وَسَخَّرْتُ لَكَ الْأَنْعَامَ وَالْحَرْثَ، وَجَعَلْتُكَ تَرَأْسًا وَتَرْبَعًا فَكُنْتَ تَظُنُّ أَنَّكَ مُلَاقِي يَوْمِكَ هَذَا؟ فَيَقُولُ: لَا، فَيَقُولُ: الْيَوْمَ أَنْسَاكَ كَمَا نَسَيْتَنِي» (١).

(١) أخرجه الترمذي: كتاب صفة القيامة، رقم (٢٤٢٨)، من حديث أبي هريرة وأبي سعيد الخدري رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

إِنَّهَا خَسَارَةٌ الْعُظْمَى، وَالْمُصِيبَةُ الْعُظْمَى حِينَمَا يَغْفُلُ الْعَبْدُ عَنْ هَذَا الْيَوْمِ، أَوْ يَنْسَاهُ، أَوْ يَتَنَاسَاهُ؛ إِنَّهَا الْخَسَارَةُ الَّتِي لَيْسَ بَعْدَهَا خَسَارَةٌ.

قَالَ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي سُورَةِ الزُّمَرِ: ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُمْ مِّنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادَهُ، يَعْجَبُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الزمر: ١٥-١٦].

وَقَالَ -سُبْحَانَهُ- فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَحْسِرُنَا عَلَى مَا فَزَعْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهُمْ وَلِلدَّارِ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَنْقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنعام: ٣١-٣٢].

فِعِبَادَةُ الْإِيمَانِ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَاسْتِحْضَارِهِ عِبَادَةٌ عَظِيمَةٌ.

وَحَدِيثُنَا عَنِ الْيَوْمِ الْآخِرِ لَهُ أَسْبَابٌ، مِنْهَا:

السَّبَبُ الْأَوَّلُ: اللامبالاة التي يعيشها الناس اليوم، فالإنسان اليوم يقع في الحرام بالقول والفعل ولا يبالي، وصدق رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حيث قال: «لَيَأْتِيَنَّ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لَا يُبَالِي الْمَرْءُ بِمَا أَخَذَ الْمَالَ: أَمِنْ حَلَالٍ أَمْ مِنْ حَرَامٍ؟»^(١) فهو يعبُّ الحرام ولا يلتفت إلى يومٍ قادمٍ، وإلى لقاءٍ قادمٍ، سمَّاهُ اللهُ: الْيَوْمَ الْحَقَّ، بَلِ الْمُهْمُ عِنْدَهُ أَنْ يُحْصَلَ ثَرَاءٌ، وَيَكْسِبَ مَالًا، وَلَا يَلْتَفِتُ إِلَى الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ.

السَّبَبُ الثَّانِي: أننا نعيش في زمنٍ قَسَتْ فِيهِ الْقُلُوبُ وَتَحَجَّرَتْ، بَلِ هِيَ أَشَدُّ

(١) أخرجه البخاري: كتاب البيوع، باب قول الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الذَّبَابُ فَأَمْنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً﴾، رقم (٢٠٨٣)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

من الحجارة، قَسَتِ القُلُوبُ على الآباءِ والأُمَّهاتِ، وعلى الإخوةِ والأخواتِ، فَوَقَعَ النَّاسُ في الظُّلْمِ الظَّاهِرِ، قَسَتِ القُلُوبُ وهي ترى الآهاتِ والحسراتِ والنكباتِ تُبْتَلَى بها الأُمَّةُ وهي تُغْنِي وترُقُصُ، قَالَ الحَقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [البقرة: ٧٤].

السَّبَبُ الثَّلَاثُ: كثرةُ الفتنِ وزيادةُ البلاءِ، فَإِنَّ الرَّمَنَ إِذَا كَثُرَتْ فِيهِ الفِتَنُ ذَهَلَ النَّاسُ عن اليومِ الآخِرِ، وفكروا كيف يُجْرُونَ من فِتْنَتِهِمْ، وغفلوا عن الآخرة؛ لذا قَالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ والحديثُ عندَ مُسلمٍ في صحيحِهِ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تَذْهَبُ الدُّنْيَا حَتَّى يَمُرَّ الرَّجُلُ عَلَى القَبْرِ فَيَتَمَرَّغُ عَلَيْهِ، وَيَقُولُ: يَا لَيْتَنِي كُنْتُ صَاحِبَ هَذَا القَبْرِ، وَلَيْسَ بِهِ الدِّينُ إِلَّا البَلَاءُ»^(١) فإذا لم يَكُنْ للعبْدِ في البلاءِ والفِتَنِ ناهٍ من اللَّهِ غَفَلَ عن الآخرة.

السَّبَبُ الرَّابِعُ: تَذَكُّرُةٌ لِلظَّالِمِ وَتَسْلِيَةٌ لِلْمَظْلُومِ؛ لِيَتَّبِعَ الظَّالِمُ أَنَّهُ مِمَّا تَجَبَّرَ وَطَغَى وَتَمَرَّدَ وَاعْتَرَّ بِسُلْطَانِهِ وَقُوَّتِهِ وَمَالِهِ أَنَّهَا أَيَّامٌ وَتَنْتَهِي، ثُمَّ يَقِفُ بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وهي سلوى للمظلوم الذي أخذَ حَقَّهُ وَأُوذِيَ وَاعْتَدِيَ عَلَيْهِ، يُقَالُ لَهُ: اصْبِرْ، فَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهُ غَفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ^٥ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾﴾ [إبراهيم: ٤٢].

(١) أخرجه مسلم: كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل، رقم (١٥٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأخرجه بنحوه البخاري: كتاب الفتن، باب لا تقوم الساعة حتى يغبط أهل القبور، رقم (٧١١٥).

واليوم الآخر له أسماء عديدة في كتاب الله، فهو: يومٌ عظيمٌ يقوم فيه الناسُ لربِّ العالمين، يومٌ يقفُ فيه العبادُ بين يدي الله ليس فيه جلوسٌ، سمَّاهُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: يوماً عظيماً، فقال في سورة المطففين: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾﴾ [المطففين: ٤-٦].

قرأها النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما جاء من حديث ابنِ عُمَرَ عند البخاري قال: «يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾﴾ [المطففين: ٦] حتى يغيب أحدهم في رشحه إلى أنصافٍ أدنيه»^(١) أي: قائمون بين يدي الحق - سبحانه - ينتظرون الحساب وعرقهم ورشحهم يتصبَّب حتى يغرقوا في ذلك العرق إلا من رحم الله من الصالحين، فهو يومٌ عظيمٌ.

وسمَّاهُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: يومَ الحسرة، حينما تَبْلُغُ الحسرةُ بالعبد الظالم لنفسه أو غيره، حينما يرى حسناته وسيئاته، وحينما يرى موازينه، وحينما يرى من ظلمَ يَتَتَبَّرُ القصاص، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ ﴿٣٩﴾ سَمَاءُ يَوْمَ الْحَسْرَةِ ﴿٤٠﴾ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ [مريم: ٣٩] وقال تعالى: ﴿وَأَتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ مِّن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [الزمر: ٥٥-٥٦] أي: الذي كان يسخر في الدنيا ويقول: دعوكم من هذا الكلام؛ يتحسّر في ذلك اليوم العظيم.

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، رقم (٤٩٣٨)، ومسلم: كتاب الجنة، باب في صفة يوم القيامة، رقم (٢٨٦٢).

وسمى الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى هذا اليومَ: يومَ التَّلَاقِ، فقال تعالى: ﴿لِنُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ
 يَوْمَ هُمْ بَرْزُورٌ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾
 [غافر: ١٦].

قال ابن عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا كما جاء في تفسير ابن كثيرٍ: يَلْتَقِي آدَمُ وَآخِرُ وَلَدِهِ (١).
 وقال قتادةٌ رحمه الله: يَلْتَقِي أَهْلُ السَّمَاءِ وَأَهْلُ الْأَرْضِ. وقال: يَلْتَقِي الْخَالِقُ
 وَالْحَلْقُ (٢).

وقال ميمون بن مهران رحمه الله: يَلْتَقِي الظَّالِمُ وَالْمَظْلُومُ؛ فلا تَحْزَنُ أَيُّهَا
 الْمَظْلُومُ، ولا تَغْتَرَّ أَيُّهَا الظَّالِمُ؛ فهناك يومٌ سَمَّاهُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى في كتابه: يومَ التَّلَاقِ (٣).
 وبعضُ النَّاسِ ظَلَمَةٌ لَكِنْ لَا يَظْهَرُ ظُلْمُهُ، وَإِنَّمَا هُوَ كَالْحُقْفَاشِ يَعْمَلُ فِي الظَّلَامِ،
 وَيَعْمَلُ مِنْ تَحْتِ الطَّائِلَةِ؛ يَظْلِمُ هَذَا، وَيَتَسَبَّبُ فِي قَطْعِ رِزْقِ هَذَا، وَيَشِي عَلَى هَذَا،
 وَيَغْتَابُ هَذَا، هُوَ فِي الظَّاهِرِ لَا يَبْدُو عَلَيْهِ شَيْءٌ، لَكِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى سَيَفْضَحُهُ فِي يَوْمِ
 سَمَّاهُ: ﴿يَوْمَ بُدِيَ السَّرَائِرُ ﴿٩﴾﴾ [الطارق: ٩] أي: الذي أَظْهَرَ لَكَ وَجْهًا مُنْبَسِطًا مُجَبَّبًا وَهُوَ
 يُخْفِي وَجْهًا آخَرَ حَاقِدًا ظَالِمًا مُتْرَبِّصًا، فَاللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى سَيَبْلِي تِلْكَ السَّرَائِرَ.

وَإِذَا تَسَاءَلْنَا بَعْدَ هَذَا كُلِّهِ: مَا الْعَمَلُ، كَانَ الْجَوَابُ: أَوَّلًا: لَا بُدَّ أَنْ نَعْمَلَ، وَأَنْ
 تَكُونَ هَذِهِ الْمَعْلُومَاتُ مِنْهَا جَعَمَلٍ لِلْعَبْدِ، وَإِلَّا فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا لَمْ يَعْمَلْ حَصَلَتْ لَهُ
 الْخَسَارَةُ.

(١) تفسير ابن كثير (٧/ ١٣٥).

(٢) أخرجه الطبري في التفسير (٢٠/ ٢٩٦).

(٣) انظر: تفسير الكشاف والبيان للثعلبي (٨/ ٢٧٠)، تفسير ابن كثير (٧/ ١٣٥).

وإذا كُنْتَ تَرْجُو النَّجَاةَ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ، قَدْ قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى -:
فَمَنْ رَجَى شَيْئًا اسْتَلْزَمَ رَجَاؤُهُ ثَلَاثَةَ أُمُورٍ: مَحَبَّةَ مَا يَرْجُو، وَالْخَوْفَ مِنْ فَوْتِهِ،
وَالسَّعْيَ قَدْرَ الْإِمْكَانِ عَلَى تَحْصِيلِهِ^(١).

فَمَنْ أَرَادَ النَّجَاةَ، وَمَنْ رَجَى النَّجَاةَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَقَالُ لَهُ: إِنَّ الْأَمْرَ لَيْسَ
بِالْأَمَانِيِّ، قَالَ اللَّهُ **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي سُورَةِ النَّسَاءِ: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ
الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَى بِهِ، وَلَا يُجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾** (١٢٣)
**وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ
وَلَا يُظَلَّمُونَ نَقِيرًا﴾** (١٢٤) [النساء: ١٢٣-١٢٤].

وَجَاءَ فِي سُنَنِ التِّرْمِذِيِّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ خَافَ أَدْبِجَ، وَمَنْ أَدْبِجَ بَلَغَ
الْمَنْزِلَ، أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ غَالِيَةٌ، أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ الْجَنَّةُ»^(٢).

فَمَنْ خَافَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا بُدَّ أَنْ يُدْبِجَ، وَهُوَ السَّيْرُ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَعَدَمُ
التَّوَقُّفِ لِقُطَاعِ الطَّرِيقِ الَّذِينَ يَقْطَعُونَ الطَّرِيقَ عَنْكَ وَأَنْتَ تَسِيرُ إِلَى اللَّهِ، وَمَنْ سَارَ
بَلَغَ الْمَنْزِلَ.

ثُمَّ ثَانِيًا: أَلَا نَعْتَرَّ بِأَعْمَالِنَا، فَلَا نَقُولُ كَمَا يَقُولُ أَحَدُهُمْ: النَّجَاةُ مَضْمُونَةٌ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ وَالْجَنَّةُ كَذَلِكَ، فَبَعْضُ النَّاسِ يَقُولُ: الْجَنَّةُ مَضْمُونَةٌ، أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَرْزُقَنَا
الْفِرْدَوْسَ الْأَعْلَى. وَهَذَا غُرُورٌ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ حَدِيثِ عُمَانَ: «مَنْ تَوَضَّأَ
مِثْلَ وُضُوئِي هَذَا؛ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»^(٣)، وَلَا تَعْتَرُوا، مَا يَغْتَرُّ الْإِنْسَانُ بِعَمَلِهِ.

(١) الجواب الكافي لابن القيم (ص: ٣٩).

(٢) أخرجه الترمذي: كتاب صفة القيامة، رقم (٢٤٥٠)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء والصلاة عقبه، رقم (٢٢٩).

وانظر إلى أعظم العباد بعد الأنبياء الخلفاء الراشدين: أبي بكر وعمر وعثمان وعليّ - رضي الله تعالى عنهم جميعاً - كيف كان الخوف يتملك نفوسهم مع ما قدموا من أعمال، ومع تزكية النبي ﷺ لهم، بل تزكية الله تبارك وتعالى لهم إلا أنهم كانوا يخافون يوم القيامة.

فهذا أبو بكر - رضي الله تعالى عنه - والأثر في مصنف ابن أبي شيبة، يرى طيراً يطير ثم يقع على شجرة يأكل من الثمر، فيقول أبو بكر المبشّر بالجنة، الذي ذكر ونوه عنه في القرآن في قول الحق - سبحانه -: ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى (١٧) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى (١٨) ﴾ [الليل: ١٧-١٨] (١) صاحب النبي ﷺ في الغار، يقول: طوبى لك يا طير، والله لو ددت أني كنت مثلك تقع على الشجرة، وتأكل من الثمرة، ثم تطير وليس عليك حساب ولا عذاب (٢). يتمنى أن يكون طيراً.

ويقول أيضاً: والله إنني لو ددت أني كنت شجرة إلى جانب الطريق فمر بي جهل فأخذني فأدخلني فاه، ثم لاكني، ثم ازدردني ثم أخرجني بعراً ولم أكن بشراً (٣).

وهذا عمر رضي الله عنه يقول وهو في سكرات الموت، والصحابة معه على رأسه يذكرونه بفضلهم، وبتزكية النبي ﷺ له، يقول: والله لو أن لي مثل ما طلعت عليه

(١) أخرجه الطبري في التفسير (٤٧٩/٢٤)، والطبراني في المعجم الكبير (٩٩/١٣)، رقم (٢٣٧)، عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما. وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٥٣٨/٨) لابن مردويه، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف رقم (٣٥٥٧٣)، والبيهقي في الشعب رقم (٧٦٨).

(٣) انظر التخريج السابق.

الشَّمْسُ أَوْ غَرَبَتْ لَأَفْتَدَيْتُ بِهِ مِنْ هَوْلِ الْمَطْلَعِ^(١).

وهذا عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول كما جاء في كتاب الجواب الكافي لابن القيم، يقفُ عند القبرِ ويكي حتى تبتلَّ لحيتُهُ، ويقول: والله لو كُنْتُ بين الجنة والنارِ لا أدري إلى أيّتهما يُؤمِّرُ بي لتمنيتُ أن أكونَ رمادًا قبلَ أن أعلمَ إلى أيّتهما أصيرُ^(٢).

وهذا عليّ -رضي الله تعالى عنه- يقول كما جاء في كتاب غذاء الألبابِ للسفاريّ رَحِمَهُ اللَّهُ: يا دُنْيَا أَيْ تَعَرَّفْتِ؟ أَمْ لِي تَشَوَّفْتِ؟ غُرِّي غَيْرِي؛ فَقَدْ بَسَّتْكَ ثَلَاثًا لَا رَجْعَةَ لِي فِيكَ، عُمُرُكَ قَصِيرٌ، وَعَيْشُكَ حَقِيرٌ، وَخَطْرُكَ كَبِيرٌ، آهٍ مِنْ قِلَّةِ الزَّادِ، وَبُعْدِ السَّفَرِ، وَوَحْشَةِ الطَّرِيقِ^(٣).

نعم كانوا يعملون لهذا اليوم العظيم دون أن يغتروا بما قدّموا من عملٍ، بل يسألون الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنْ يَغْفِرَ عَنْهُمْ وَيَغْفِرَ لَهُمْ.

إِذَا: هذا هو اليوم الحقُّ، فلا بُدَّ أَنْ يَعْمَلَ لَهُ الْعَبْدُ بِقُوَّةٍ وَبِحَقٍّ، ثُمَّ لَا يَغْتَرَّ بِعَمَلِهِ.

• • k • •

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف رقم (٣٥٦٣٥)، وابن حبان في صحيحه رقم (٦٨٩١)، والبيهقي في الشعب رقم (٤٥٣٠).

(٢) الجواب الكافي لابن القيم (ص: ٤١). وأخرجه أحمد في الزهد رقم (٦٨٦)، وأبو نعيم في الحلية (٦٠/١).

(٣) غذاء الألباب للسفاريّ (٢/٥٥٥)، وانظر: صفة الصفوة لابن الجوزي (١/١١٨).



(٣١)

يُقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ

• • k • •

قال الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي كِتَابِهِ الْكَرِيمِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**
أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ
وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ
فَأَسْتَبْشِرُوا بِيَعِيكُمْ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ ۗ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ [التوبة: ١١١].

شَعِيرَةٌ عَظِيمَةٌ تَلِكُ هِيَ شَعِيرَةُ الْجِهَادِ، وَمَهْمَا بُدِّلَ وَبُدِّلَ فِي تَشْوِيهِ صُورَتِهَا
 وَحَرْفِهَا عَنْ حَقِيقَتِهَا تَبْقَى هِيَ الْعِبَادَةُ الْأَبْرَزَ فِي هَذَا الدِّينِ، وَالشَّعِيرَةُ الْأَعْلَى فِيهِ.
 وَمَهْمَا حَاوَلَ أَعْدَاءُ الدِّينِ أَنْ يَحْرِفُوا هَذِهِ الْعِبَادَةَ عَنْ حَقِيقَتِهَا؛ سَتَبْقَى بَاقِيَةٌ
 بَبَقَاءِ الدُّنْيَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، كَيْفَ لَا وَالنَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي
 يُقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»^(١).

وهذا ما نراه ماثلاً في حياتنا اليوم، فمهما شوّهت صورة الجهاد تبقى ناصعة
 في مواضع أخرى، على أيدي من أراد سبيل الله **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** وأراد الجنة.
 وغاية الجهاد ومقصده الأعلى هو إعلاء كلمة الله **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** الذي قال في
 كتابه الكريم: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ۗ فَإِنْ أُنْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى
 الظَّالِمِينَ ﴿١٩٣﴾ [البقرة: ١٩٣].

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب نزول عيسى ابن مريم حاكماً، رقم (١٥٦)، من حديث جابر.

جاء أعرابيُّ إلى النبيِّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - فقال: يا رسولَ اللهِ، الرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِلْمَغْنَمِ، وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِيُذَكَّرَ، وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِيُرَى مَكَانَهُ، مَنْ فِي سَبِيلِ اللهِ؟ فقال: «مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ»^(١).

وإنَّا لَنَسْتَذْكُرُ حَدِيثَ النَّبِيِّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - الَّذِي وَسَّعَ دَائِرَةَ الْفَضْلِ، وَوَسَّعَ دَائِرَةَ الشُّهَدَاءِ حِينَما قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ قَاتَلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قَاتَلَ دُونَ دِينِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قَاتَلَ دُونَ دَمِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قَاتَلَ دُونَ أَهْلِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ»^(٢).

وإنَّا لَنَحْسِبُ أَنَّ إِخْوَانَنَا الَّذِينَ قَضَوْا فِي الْأَيَّامِ الْمَاضِيَةِ مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الْبِلَادِ وَمِنْ غَيْرِهَا، إِنَّمَا قَاتَلُوا لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا، وَقَاتَلُوا حِمَايَةً لِأَهْلِهِمْ وَأَعْرَاضِهِمْ وَبِلَادِهِمْ؛ فَنَحْسِبُهُمْ عِنْدَ اللهِ مِنَ الشُّهَدَاءِ، الْفَائِزِينَ، وَلَهُمْ شَأْنٌ عَظِيمٌ، كَيْفَ لَا وَاللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْواتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾^(٣١١) فَرِحِينَ ﴿وَنَحْنُ فِي حُزْنٍ﴾ ﴿بِمَا آتَيْنَهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ مِنَ اللهِ وَفَضْلِهِ وَأَنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٧١﴾ [آل عمران: ١٧٠-١٧١].

(١) أخرجه البخاري: كتاب فرض الخمس، باب من قاتل للمغنم، رقم (٣١٢٦)، ومسلم: كتاب الإمارة، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله، رقم (١٩٠٤)، من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه النسائي: كتاب تحريم الدم، باب من قاتل دون أهله، رقم (٤٠٩٤)، من حديث سعيد بن زيد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ. وأخرجه بنحوه أحمد (١/ ١٩٠)، وأبو داود: كتاب السنة، باب في قتال اللصوص، رقم (٤٧٧٢)، والترمذي: كتاب الديات، باب ما جاء فيمن قتل دون ماله، رقم (١٤٢١)، وابن ماجه: كتاب الحدود، باب من قتل دون ماله فهو شهيد، رقم (٢٥٨٠).

وقد صورَ لنا رسولُ الله ﷺ أرواحهم الطاهرة إذا خرجت من أجسادهم كيف تكون، فقال كما جاء في صحيح مسلم: «أرواحهم في جوف طيرٍ خضرٍ لها قناديلٌ معلقةٌ بالعرش، تسرح من الجنة حيث شاءت، ثم تعود إلى تلك القناديل، فاطلع إليهم ربهم اطلاعة قال: هل تشتهون شيئاً؟ قالوا: وأي شيءٍ نشتهي ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا؟ قال: هل تشتهون شيئاً؟ قالوا: وأي شيءٍ نشتهي ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا؟ فلما رأوا أنهم لن يتركوا حتى يسألوا؛ قالوا: نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نُقتل في سبيلك مرةً أخرى»^(١).

إنها هذه العبادة العظيمة التي تقدم لها أناس، وآخرون كثر ينتظرونها، وهم أولئك المرابطون الآن على ثغور الداخل، أو على ثغور الخارج، المرابطون في جو السماء، أو في البحر، أو في البر، كل أولئك ممن قال الحق - سبحانه - فيهم: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَلُوا تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

لا تهزهم هذه المواقف، وإنما ترفع من قدرهم وشأنهم ومعنوياتهم، كيف لا وهم يقرؤون من حديث رسول الله ﷺ ما يشجع على الرباط، وعلى البقاء على الثغور، وأن يتمنى الإنسان أن يكون معهم، فقد قال رسول الله ﷺ: «رباط يومٍ وليلةٍ خيرٌ من صيام شهرٍ وقيامه وإن مات» أي: مات في هذا الرباط «جرى عليه عمله الذي كان يعملُهُ، وأجرى عليه رزقه وأمن الفتان»^(٢).

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإمارة، باب بيان أن أرواح الشهداء في الجنة، رقم (١٨٨٧)، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الإمارة، باب فضل الرباط في سبيل الله عَزَّ وَجَلَّ، رقم (١٩١٣)، من حديث سلمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

بل قال رسول الله ﷺ كما جاء من حديث ابن عباسٍ عند الترمذي: «عَيْنَانِ لَا تَمْسُهُمَا النَّارُ: عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ، وَعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»^(١).

فهنيئاً لكم أيها المرابطون، الحراسُ لدينكم وأوطانكم وأموالكم وأهلكم، فقد بشركم رسول الله ﷺ كما جاء في صحيح ابن حبان، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِبُشْرَى عَظِيمَةٍ قَالَ: «مَوْقِفُ سَاعَةٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ خَيْرٌ مِنْ قِيَامِ لَيْلَةِ الْقَدْرِ عِنْدَ الْحَجَرِ الْأَسْوَدِ»^(٢).

فأيُّ فضلٍ يَنْتَظِرُ هؤلاءِ الحراسِ مِمَّنْ يَبْقَى عَلَى الثُّغُورِ فِي بَلَدِنَا هُنَا أَوْ فِي غَيْرِهَا إِذَا اقْتَضَتِ الْحَاجَةُ؟!

والأُمَّةُ بِأَسْرِهَا فِي حَاجَةٍ إِلَى النَّصْرِ، وَإِنَّ مِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ النَّصْرِ: الْعَوْدَةُ الْحَقِيقِيَّةُ إِلَى الدِّينِ؛ فَقَدْ أَخْبَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّهَا سَتَكُونُ فِتْنَةٌ»، قالوا: يا رسول الله، فكيف لنا، وكيف نصنع؟ قال: «تَرْجِعُونَ إِلَى أَمْرِكُمُ الْأَوَّلِ»^(٣) أي: تَرْجِعُونَ إِلَى دِينِكُمْ.

وجاء في سنن أبي داود قال: «حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ»^(٤).

فإنَّ مِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ النَّصْرِ وَالتَّمْكِينِ وَالتَّأْيِيدِ نُصْرَةَ الدِّينِ، وَالْعَوْدَةَ إِلَى الدِّينِ عَوْدَةً حَقِيقِيَّةً جَمَاعِيَّةً، فَاللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ: ﴿يَتَأَيَّدُ الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ نَصَرُوا اللَّهَ

(١) أخرجه الترمذي: كتاب فضائل الجهاد، باب ما جاء في فضل الحرس في سبيل الله، رقم (١٦٣٩).

(٢) صحيح ابن حبان رقم (٤٦٠٣).

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٣/٢٤٩، رقم ٣٣٠٧)، من حديث أبي واقد الليثي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه أبو داود: كتاب البيوع، باب في النهي عن العينة، رقم (٣٤٦٢)، من حديث ابن عمر

يَنْصُرَكُمْ وَيُنَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ [محمد:٧] ، ويقول: ﴿وَلْيَنْصُرِبِ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾ [الحج:٤٠] .

قال الإمام الرّاشدُ والخليفةُ الطّاهرُ عليُّ بنُ أبي طالبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: ما نَزَلَ بِلاءٌ إلا بذنْبٍ، وما رُفِعَ إلا بتَوْبَةٍ^(١) .

وقال الإمام مالِكُ -رحمه اللهُ تعالى-: لَنْ يَصْلِحَ حَالُ آخِرِ هَذِهِ الْأُمَّةِ إِلَّا بِمَا صَلَحَ بِهِ أَوْلَئِهَا^(٢) .

•• k ••

(١) ذكره ابن القيم في الجواب الكافي (ص:٧٤) .

(٢) انظر: مسند الموطأ للجوهري (ص:٥٨٤)، والشفاء للقاضي عياض (٢/٨٨)، وإغاثة اللهفان لابن القيم (١/٣٦٣) .



(٣٢)

كأجر الحاج

•• k ••

جاء في كتاب الزهد للبيهقي عن مالك بن دينار - رحمه الله تعالى - أن عيسى عليه السلام كان يقول: إن هذا الليل والنهار خزانان فانظروا ما تضعون فيها^(١).

خزانه لليل وخزانه للنهار، يصع الخلق فيها ما يشاؤون، ثم ستفتح هذه الخزائن في يوم القيامة وينظر العبد إلى ما قدم وما وضع في هذه الخزائن، كما قال الحق سبحانه وتعالى في سورة الحشر: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفُوا اللَّهُ وَلْتُنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِعَدِ وَأَتَقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحشر: ١٨].

ولا شك أن خير ما يقدم ويوضع في هذه الخزائن العمل الصالح، الذي يفرح به يوم القيامة؛ لذا أرشدنا النبي صلى الله عليه وسلم إلى المبادرة إلى الأعمال الصالحة والعبد في حال رخاء، فلا يعلم ما يعرض له في الغد من فتن وغيرها؛ لذا قال رسول الله ﷺ: «بادرُوا بالأعمالِ فتنًا كقطع الليلِ المظلمِ، يُصبحُ الرجلُ مؤمنًا ويُمسي كافرًا، ويُمسي مؤمنًا ويصبحُ كافرًا يبيعُ دينه بعرضٍ من الدنيا»^(٢).

فاليوم تستطيع أن تقدم من الصالحات وأنت في حال رخائك وصحتك وغناك وفراغك، ولا تدري ما يحصل لك في الغد، قد يُحال بينك وبين الصلاة،

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في الزهد رقم (٤٢٣)، والبيهقي في الزهد الكبير رقم (٧٨٠).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب الحث على المبادرة بالأعمال قبل تظاهر الفتن، رقم (١١٨)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

أو يُحَالُ بينك وبين الصَّيَامِ، أو يُحَالُ بينك وبين الصَّدَقَاتِ وَالْإِحْسَانِ، أو يُحَالُ بينك وبين بَرِّ وَالِدَيْكَ.

وَأَيَّامُ الْعَشْرِ هِيَ أَفْضَلُ الْأَيَّامِ وَأَحَبُّهَا إِلَى اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَإِنَّ الْعَمَلَ الَّذِي يَقَعُ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ هُوَ عِنْدَ اللَّهِ أَحَبُّ الْأَعْمَالِ، وَأَزْكَاهَا، وَأَعْظَمُهَا أَجْرًا؛ لَذَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ-: «مَا مِنْ عَمَلٍ أَرْكَى عِنْدَ اللَّهِ عَزَّجَلَّ وَلَا أَعْظَمَ أَجْرًا مِنْ حَيْرٍ يَعْمَلُهُ فِي عَشْرِ الْأَضْحَى»، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَلَا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟ قَالَ: «وَلَا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ إِلَّا رَجُلٌ خَرَجَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ، فَلَمْ يَرْجِعْ مِنْ ذَلِكَ بِشَيْءٍ»^(١).

فَأَيُّ عَمَلٍ يَقَعُ فِي هَذِهِ الْعَشْرِ هُوَ عِنْدَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَرْكَى وَأَعْظَمَ أَجْرًا، فَإِنْ كَانَ مِنْ جَهْدٍ وَعَطَاءٍ وَبَذْلِ فَاجْعَلْهُ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ.

وَقَدْ شَرَعَ اللَّهُ لَنَا فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ الْأَضْحِيَّةِ، وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «مَنْ وَجَدَ سَعَةً» أَي: قُدْرَةً مَالِيَّةً، «لِأَنَّهُ يُضْحِي وَلَمْ يُضَحَّ فَلَا يُخْضِرُ مُصَلَّانًا»^(٢)، وَهِيَ سُنَّةٌ عَلَى التَّأَكِيدِ كَمَا قَالَ أَكْثَرُ أَهْلِ الْعِلْمِ.

كَذَلِكَ فِي هَذِهِ الْعَشْرِ: يَوْمٌ عَرَفَةٌ، فَاجْعَلْ فِي نَيْتِكَ صِيَامَهُ؛ فَاللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يُعْطِي الْعَبْدَ عَلَى نَيْتِهِ قَدْرَ عَمَلِهِ؛ لَذَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «صِيَامُ يَوْمِ عَرَفَةَ إِنِّي أَحْتَسِبُ عِنْدَ

(١) أَخْرَجَهُ الدَّارِمِيُّ رَقْمَ (١٨١٥)، مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. وَأَخْرَجَهُ بِنُحُوهِ الْبُخَارِيُّ:

كِتَابُ الْعِيدِينَ، بَابُ فَضْلِ الْعَمَلِ فِي أَيَّامِ التَّشْرِيقِ، رَقْمَ (٩٦٩).

(٢) أَخْرَجَهُ الْحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ (٣٨٩/٢)، مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وَأَخْرَجَهُ بِنُحُوهِ أَحْمَدُ:

(٢/٣٢١)، وَابْنُ مَاجَةَ: كِتَابُ الْأَضْحَى، بَابُ الْأَضْحَى وَاجِبَةٌ هِيَ أَمْ لَا؟، رَقْمَ (٣١٢٣).

اللَّهُ أَنْ يُكْفَرَ السَّنَةَ الَّتِي قَبْلَهُ، وَالسَّنَةَ الَّتِي بَعْدَهُ»^(١).

وقال أيضًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الحديث الصحيح عند البخاري: «مَنْ صَامَ يَوْمًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بَعَدَ اللَّهُ وَجْهَهُ عَنِ النَّارِ سَبْعِينَ خَرِيفًا»^(٢).

كذلك في هذه الأيام تَقَعُ العبادة العُظْمَى، وهي عبادة الحَجِّ التي قال فيها رسولُ الله ﷺ: «مَنْ حَجَّ هَذَا الْبَيْتَ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ؛ رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ»^(٣).

فأَيُّ أَجْرٍ أَعْظَمُ مِنْ هَذَا الْأَجْرِ؟! يَذْهَبُ خَمْسَةَ أَيَّامٍ، أَوْ عَشْرَةَ أَيَّامٍ ثُمَّ يَعُودُ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ مِنَ الْخَطَايَا، صَفْحَةً بِيضَاءَ يَضَعُ بَعْدَ ذَلِكَ فِيهَا مَا يَشَاءُ.

وهي عبادة عظيمة لكنها لا تَتَيَسَّرُ لِمَجْمِيعِ الْخَلْقِ، وَلَا يَحْضُرُهَا إِلَّا النَّزْرُ الْيَسِيرُ، وَلَكِنَّ الرَّحْمَنَ الرَّحِيمَ اللَّطِيفَ الْوَدُودَ -سُبْحَانَهُ- جَعَلَ لَنَا مِنَ الْأَعْمَالِ مَا أَجْرُهَا يَعْدِلُ أَجْرَ الْحَاجِّ؛ لِذَا إِنْ عَجَزْتَ عَنِ الْحَجِّ فَلَا تَعْجِزْ عَنِ هَذِهِ الْأَعْمَالِ الْيَسِيرَةِ، فَأَجْرُهَا كَأَجْرِ الْحَاجِّ، وَلَا تَحْتَاجُ مِنْكَ بَدَلًا وَلَا أَمْوَالًا وَلَا تَعْرَبًا عَنِ الْأَهْلِ وَالْأَوْطَانِ، وَلَا إِجَازَةً مِنَ الْعَمَلِ، وَلَا عَرَفًا وَلَا تَعَبًا، وَلِنَشْرَعُ فِي بَيَانِ هَذِهِ الْأَعْمَالِ:

(١) أخرجه مسلم: كتاب الصيام، باب استحباب صيام ثلاثة أيام من كل شهر، رقم (١١٦٢)، من حديث أبي قتادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب فضل الصوم في سبيل الله، رقم (٢٨٤٠)، ومسلم: كتاب الصيام، باب فضل الصيام في سبيل الله لمن يطيقه، رقم (١١٥٣/١٦٨)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري: كتاب المحصر، باب قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾، رقم (١٨٢٠)، ومسلم: كتاب الحج، باب في فضل الحج والعمرة، رقم (١٣٥٠)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

العمل الأول: إحسان الوضوء على المكاره، فحينما تحسن الوضوء على المكاره تنال أجر الحاج، قال رسول الله ﷺ والحديث عند الترمذي، حينما تحدث عن فضائل بعض الأعمال، وذكر: المني على الأقدام للجاعات، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، وإسباغ الوضوء على المكاره، قال في نهاية الحديث: «وَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ عَاشَ بِخَيْرٍ، وَمَاتَ بِخَيْرٍ، وَكَانَ مِنْ خَطِيئَتِهِ كَيَوْمٍ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ»^(١)، وهذا هو أجر الحاج، فحافظ على وضوء صحيح.

العمل الثاني: الخشوع في الصلاة أجره يعدل أجر الحاج، قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَتَوَضَّأُ فَيَسْبِغُ الْوُضُوءَ، ثُمَّ يَقُومُ فِي صَلَاتِهِ فَيَعْلَمُ مَا يَقُولُ إِلَّا انْفَتَلَ أَي: خَرَجَ مِنْ صَلَاتِهِ «كَيَوْمٍ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ مِنَ الْخَطَايَا، لَيْسَ عَلَيْهِ ذَنْبٌ»^(٢).

العمل الثالث: وهو أبسط مما تقدم وأسهل منه، والآخذون به قليل مع كل أسف، جاء الفقراء إلى النبي ﷺ والحديث عند البخاري من حديث أبي هريرة، قالوا: ذهب أهل الدثور من الأموال بالدرجات العلى والنعيم المقيم: يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ، وَلَهُمْ فَضْلٌ مِنْ أَمْوَالِهِمْ يَحْجُونَ بِهَا وَيَعْتَمِرُونَ، وَيُجَاهِدُونَ وَيَتَصَدَّقُونَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى عَمَلٍ إِذَا عَمَلْتُمُوهُ أَدْرَكْتُمْ مَنْ سَبَقَكُمْ، وَلَمْ يَلْحَقْ بِكُمْ مِنْ خَلْفِكُمْ، وَكُنْتُمْ أَفْضَلَ

(١) أخرجه أحمد (١/٣٦٨)، والترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة ﴿ص﴾، رقم (٣٢٣٤)،

من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٧/٣٤٧، رقم ٩٥٦)، والحاكم (٢/٣٩٨-٣٩٩)، من

حديث عقبة بن عامر الجهني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

مَنْ أَنْتُمْ بَيْنَ ظَهْرَانِيهِ؟» قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «تُسَبِّحُونَ وَتُحَمِّدُونَ وَتُكَبِّرُونَ خَلْفَ كُلِّ صَلَاةٍ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ»^(١).

وهو عملٌ في غاية اليسر، ومَنْ يأخذُ به قليلٌ مع كلِّ أسفٍ، إذا سلَّم من صلاتِهِ خَرَجَ، وقال عند البابِ: يا لَيْتَنِي كُنْتُ مع الحَجَّاجِ، يا لَيْتَ لي فُرْصَةً أَنْ أَحْجَّ! وهو لم يَفْعَلْ هذا العَمَلِ اليسيرَ.

العملُ الرَّابِعُ: مُتَعَلِّقٌ أَيْضًا بِالصَّلَاةِ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ والحديثُ عند أبي داوُدَ من حديثِ أبي أُمَامَةَ -رضيَ اللهُ تَعَالَى عنه-: «مَنْ خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ مُتَطَهِّرًا إِلَى صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ» أي: يُصَلِّي في جَمَاعَةٍ «فَأَجْرُهُ كَأَجْرِ الْحَاجِّ الْمُحْرِمِ»^(٢) وهو عملٌ يسيرٌ، فقط يُؤدِّي كُلَّ فريضةٍ في جَمَاعَةٍ.

العملُ الخَامِسُ: مُتَعَلِّقٌ أَيْضًا بِالْمَسْجِدِ وَالصَّلَاةِ، فَقَدْ جَاءَ عِنْدَ الطَّبْرَانِيِّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي أُمَامَةَ أَيْضًا قَالَ: قَالَ ﷺ: «مَنْ غَدَا إِلَى الْمَسْجِدِ» وهنا ارتباطٌ وثيقٌ في كُلِّ الأحاديثِ التي تَقَدَّمَتْ بِالْمَسْجِدِ وَالصَّلَاةِ وَبِالْجَمَاعَةِ «لَا يُرِيدُ إِلَّا أَنْ يَتَعَلَّمَ خَيْرًا، أَوْ يُعَلِّمَهُ كَانَ لَهُ كَأَجْرِ حَاجٍّ تَامَّةٍ حَجَّتَهُ»^(٣).

ورَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي ذَكَرَ هذه الأحاديثَ هو نَفْسُهُ الذي ذَكَرَ:

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب الذكر بعد الصلاة، رقم (٨٤٣)، ومسلم: كتاب المساجد، باب استحباب الذكر بعد الصلاة، رقم (٥٩٥).

(٢) أخرجه أحمد (٢٦٨/٥)، وأبو داود: كتاب الصلاة، باب ما جاء في فضل المشي إلى الصلاة، رقم (٥٥٨).

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٨/٩٤، رقم ٧٤٧٣).

«مَنْ حَجَّ هَذَا الْبَيْتَ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ»^(١).

العملُ السَّادِسُ: وهو مُتَعَلِّقٌ أَيْضًا بِالْمَسْجِدِ وَالْجَمَاعَةِ، فَقَدْ جَاءَ فِي حَدِيثِ أَنَسٍ -رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ- أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ صَلَّى الْفَجْرَ فِي جَمَاعَةٍ ثُمَّ قَعَدَ يَذْكُرُ اللَّهَ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ، ثُمَّ صَلَّى رَكَعَتَيْنِ؛ كَانَتْ لَهُ كَأَجْرِ حَجَّةٍ وَعُمْرَةٍ تَامَّةٍ تَامَّةٍ تَامَّةٍ»^(٢) لَيْسَ فِيهَا سَفَرٌ، وَلَا وِدَاعٌ لِلأَهْلِ وَالْأَوْطَانِ، وَلَا تَعَبٌ وَلَا أَمْوَالٌ، وَالَّذِي أَخْبَرَنَا بِأَجْرِ الْحَاجِّ: أَنَّهُ يَعُودُ مِنْ حَجِّهِ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ، هُوَ الَّذِي أَخْبَرَنَا بِهَذَا الْأَجْرِ أَنَّ مَنْ جَلَسَ فِي مُصَلَّاهُ بَعْدَ صَلَاةِ الْفَجْرِ يَذْكُرُ اللَّهَ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ ثُمَّ صَلَّى رَكَعَتَيْنِ كَانَتْ لَهُ تِلْكَ الرَّكَعَتَيْنِ كَأَجْرِ حَجٍّ وَعُمْرَةٍ تَامَّةٍ تَامَّةٍ تَامَّةٍ، فَأَيْنَ الْعَامِلُونَ؟!!

العملُ السَّابِعُ: الصَّبْرُ عَلَى الْبَلَاءِ، فَلَا تَجِدُ أَحَدًا الْيَوْمَ إِلَّا وَهُوَ مُبْتَلًى، وَقَدْ جَاءَ فِي حَدِيثِ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ عِنْدَ أَحْمَدَ فِي مُسْنَدِهِ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ إِنِّي إِذَا ابْتَلَيْتُ عَبْدًا مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنًا فَحَمِدَنِي عَلَى مَا ابْتَلَيْتُهُ فَإِنَّهُ يَقُومُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ مِنَ الْخَطَايَا»^(٣).

أَيُّ: وَقَعَ عَلَيْهِ الْبَلَاءُ فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ. أَيُّ نَوْعٍ مِنَ الْبَلَاءِ: بَلَاءٌ فِي نَفْسِهِ،

(١) أخرجه البخاري: كتاب المحصر، باب قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تُسْوَكَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾، رقم (١٨٢٠)، ومسلم: كتاب الحج، باب في فضل الحج والعمرة، رقم (١٣٥٠)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه الترمذي: كتاب الصلاة، باب ما يستحب من الجلوس في المسجد بعد صلاة الصبح، رقم (٥٨٦)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) مسند أحمد (٤/١٢٣).

أَوْ فِي جَسَدِهِ، أَوْ فِي مَالِهِ، أَوْ فِي وَلَدِهِ؛ فَإِنَّهُ يَقُومُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ
مِنَ الْخَطَايَا.

وَمَنْ مِنَّا لَا يَحْتَاجُ إِلَى أَنْ يَقُومَ مِنْ مَكَانِهِ وَقَدْ ذَهَبَتْ خَطَايَاهُ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ
أُمُّهُ؟!

•• k ••



(٣٣)

من معاني الرِّزْقِ

• • k • •

إنَّ من المسائل التي يُساءُ فهمُها بينَ فترةٍ وأخرى مسألةُ الرِّزْقِ، فهي تُحاطُ في الغالبِ بمفهُوماتٍ مغلُوطَةٍ، وهو حديثُ النَّاسِ اليومَ، فحدِيثُهُم عنِ الرِّزْقِ تحْتَوِيهِ هذه المفاهيمُ المغلُوطَةُ، وتشمَلُهُ حالةٌ من التَّسَخُّطِ والتَّدْمُرِ على الأرزاقِ في مجالِسِهِم، وعلى مواقعِ التَّواصُلِ بينهم.

وإنَّ تَعَجَّبَ فاعجَبَ من حدِيثِهِم حينما تُقابِلُهُ بِمُمارَسَاتِهِم، ففي الوقتِ الذي يتحدَّثونَ بسَخَطٍ وتدمرٍ عنِ الرِّزْقِ، مُجدِّهِم في جوانِبِ أخرى ومُمارَسَاتٍ أخرى مُبَدِّرِينَ مُسْرِفِينَ!

لذا وجبَ علينا التَّذْكِيرُ بقواعدِ مُهمَّةٍ في مسألةِ الرِّزْقِ، وهي قواعدٌ لا بُدَّ أن يَسْتَحْضِرَها المُسْلِمُ وهو يَسْعَى في رِزْقِهِ، ويتحدَّثُ عنه، ولا تُفوتُهُ هذه القواعدُ؛ فإتِّها قواعدُ ربانيَّةٌ:

القاعدةُ الأولى: اعْلَمْ أنَّ رِزْقَكَ يَطْلُبُكَ أَكْثَرَ مِمَّا تَطْلُبُهُ أَنْتَ، والذي أُخْبِرَ بِهِ هذه القاعدةُ هو الصَّادِقُ المصدوقُ رسولُ اللهِ ﷺ فقد جاءَ عندَ البَرَّارِ من حديثِ أبي الدَّرْدَاءِ، أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: «إِنَّ الرِّزْقَ يَطْلُبُ العَبْدَ كَمَا يَطْلُبُهُ أَجَلُهُ»^(١) فَمِنَ تَمَامِها أَنَّ

(١) أخرجه البزار في مسنده (٣٧/١٠، رقم ٤٠٩٩)، وابن حبان في صحيحه رقم (٣٢٣٨)، والبيهقي في الشعب رقم (١١٤٧).

رِزْقَكَ الَّذِي كَتَبَهُ اللهُ لَكَ يُطَارِدُكَ أَيُّهَا كُنْتُ.

وَلَا يَعْنِي ذَلِكَ أَنَّكَ تَتَقَاعَسُ وَتَجْلِسُ وَلَا تَسْعَى فِي تَحْصِيلِ رِزْقِكَ، إِنَّهَا الْمَقْصُودُ أَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ تَمْتَلِئَ هَذِهِ الْقُلُوبُ أَنْ أَرْزَاقَنَا تَطْلُبُنَا كَمَا تَطْلُبُنَا آجَالُنَا.

فَإِذَا فَهَمْنَا هَذِهِ الْقَاعِدَةَ؛ انْتَقَلْنَا إِلَى:

القاعدة الثانية: وَهِيَ أَنَّ هُنَاكَ تَعَلُّقًا بَيْنَ الْعِبَادَةِ وَالرِّزْقِ، فَحِينَمَا تَرَى هَؤُلَاءِ الْمُنْسَخِّطِينَ الْمُتَذَمِّرِينَ عَلَى أَرْزَاقِهِمْ تَحْدُثُهُمْ فِي الْمُقَابِلِ -إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللهُ- مُقْصِرِينَ فِي عِبَادَتِهِمْ، وَهَنَا تَعَلَّقَ بَيْنَ الْعِبَادَةِ وَالرِّزْقِ.

وَقَدْ أَخْبَرَنَا الَّذِي لَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَدْ جَاءَ عِنْدَ الْحَاكِمِ فِي مُسْتَدْرَكِهِ مِنْ حَدِيثِ مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يَقُولُ رَبُّكُمْ: يَا ابْنَ آدَمَ، تَفَرَّغْ لِعِبَادَتِي أَمْلَأُ قَلْبَكَ غِنًى، وَأَمْلَأُ يَدَيْكَ رِزْقًا، يَا ابْنَ آدَمَ، لَا تُبَاعِدْ مِنِّي فَأَمْلَأُ قَلْبَكَ فَقْرًا، وَأَمْلَأُ يَدَيْكَ سُغْلًا»^(١).

فَمَا أَعْظَمَهَا مِنْ قَاعِدَةٍ!

لَقَدْ خَلَقَنَا اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِعِبَادَتِهِ، وَمَا أَرْزَاقُنَا إِلَّا مُعِينًا لَنَا عَلَى طَاعَتِهِ، فَإِذَا هَرَبْنَا مِنَ الطَّاعَةِ، وَهَرَبْنَا مِنْ عِبَادَةِ اللهِ، وَبَرَّرْنَا هَذَا الْهَرُوبَ بِتَحْصِيلِ أَرْزَاقِنَا وَطَلَابِهَا؛ مَلَأَ اللهُ قُلُوبَنَا فَقْرًا وَأَيْدِيَنَا سُغْلًا.

القاعدة الثالثة: اعْلَمْ أَنَّ أَرْزَاقَنَا بِيَدِ اللهِ لَا بِيَدِ حَاكِمٍ وَلَا بِيَدِ حُكُومَاتٍ، وَلَا بِيَدِ فُلَانٍ أَوْ فُلَانٍ؛ فَلْنَطْلُبْهَا مِنْ اللهِ، وَهَذَا ذِكْرُهُ كَثِيرٌ فِي كِتَابِ اللهِ، فَقَدْ قَالَ اللهُ:

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٢٠/٢١٦، رقم ٥٠٠)، والحاكم في المستدرک (٤/٣٢٦).

﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَعٌ﴾ [الرعد: ٢٦].

﴿اللَّهُ يَبْسُطُ﴾ أي: يُوسِّعُ الرِّزْقَ وَيُضَيِّقُهُ، فهذا يُبْسِطُ له في رِزْقِهِ، وهذا يُضَيِّقُ عليه.

وقال الله - سبحانه - في موضع آخر: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سبأ: ٣٦] أي: هذه القاعدة لا يعلم بها أكثر الناس علماً يُورث عملاً.

القاعدة الرابعة: وهي قاعدة القواعد، وهي التي ينبغي أن تكون حاضرة على الدوام: أن الرِّزْقَ لا يُحْصَرُ في المال، فلا تتصور أن رِزْقَكَ هو المال، فالصِّحَّةُ والعافية من أعظم الأرزاق؛ فقد جاء العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه إلى النبي صلى الله عليه وسلم والحديث عند الترمذي، فقال: يَا رَسُولَ اللَّهِ، عَلَّمَنِي شَيْئًا أَسْأَلُهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ: «سَلِ اللَّهَ **العافية**»، قَالَ العباس: فَذَهَبْتُ فَمَكَّثْتُ أَيَّامًا ثُمَّ جِئْتُ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ عَلَّمَنِي شَيْئًا أَسْأَلُهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ: «سَلِ اللَّهَ **العافية في الدنيا والآخرة**»^(١)، وهذا من أعظم الأرزاق.

لذا لما جاء رجلٌ فقيرٌ محتاجٌ يشكو الحاجة والعوزَ إلى يونس بن عبیدٍ رحمه الله، وقال: يَا يُونُسُ، جِئْتُ أَشْكُو الْحَاجَةَ وَالْعَوَزَ وَأَشْكُو فَقْرِي وَقِلَّةَ حِيلَتِي، فَقَالَ لَهُ يُونُسُ بْنُ عَبِيدٍ: أَيَسْرُكَ بَبَصْرِكَ مِثْلُ أَلْفٍ؟ قَالَ: لَا، قَالَ: فَبِسْمِعِكَ؟ قَالَ: لَا،

(١) أخرجه أحمد (٢٠٩/١)، والترمذي: كتاب الدعوات، رقم (٣٥١٤).

قال: فإلسانك؟ قال: لا، قال: فإفعلك؟ قال: لا، قال: فم؟ تشكو الفقر ومعك مئات الألو؟^(١)

فإلصحة عظيمة، وإعافية عظيمة، وإسألوا من له ولد مريض، لو قيل له: تتنازل عن مالِك كُله في مقابل أن يُشفى ابنك؛ لقبَل بذلك، وقد يصيح الناس ويتدَمرون ويتسخطون وفي بيوتهم ما يقوتهم لعام كامل، وهذا ليس من شكر الله تبارك وتعالى.

ومن المعاني العظيمة للرزق: الأمن؛ فقد جاء في سنن ابن ماجه أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ مُعَافَى فِي جَسَدِهِ، آمِنًا فِي سِرِّهِ، عِنْدَهُ قُوَّةٌ يَوْمَهُ؛ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا»^(٢).

إنها مفاهيم أتى بها الشرع الحكيم، ونطق بها الرسول ﷺ لتُنقذنا من دوامة التسخط والتدمر، فأين العقلاء؟!

كذلك من الرزق أن يكون لك لسان ذاكِر، وقلب شاكر، وزوجة في البيت تُعينك على أمر دينك، قال ثوبان -رضي الله تعالى عنه- والحديث عند الترمذي: خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ، فَتَزَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُ الْحَقِّ -سُبْحَانَهُ-: ﴿وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾ [التوبة: ٣٤] فقلنا: يا رسول الله، أنزلت

(١) أخرجه ابن الدنيا في الشكر رقم (١٠١)، وأبو نعيم في الحلية (٢٢/٣)، والبيهقي في الشعب رقم (٤١٤٩).

(٢) أخرجه الترمذي: كتاب الزهد، رقم (٢٣٤٦)، وابن ماجه: كتاب الزهد، باب القناعة، رقم (٤١٤١)، من حديث عبيد الله بن محسن الأنصاري رَوَى اللَّهُ عَنْهُ.

في الذهبِ والفضةِ، فأبى المالَ خَيْرٌ فَنَتَخَذُهُ؟ قَالَ: «أَفْضَلُهُ لِسَانُ ذَاكِرٍ، وَقَلْبُ شَاكِرٍ،
وَزَوْجَةٌ مُؤْمِنَةٌ تُعِينُهُ عَلَى إِيْمَانِهِ»^(١).

فَإِذَا يَسَّرَ اللَّهُ لَكَ فِي بَيْتِكَ زَوْجَةً صَالِحَةً مُؤْمِنَةً تُحِبُّكَ وَتُحِبُّهَا وَتُعِينُكَ عَلَى
دِينِكَ وَإِيْمَانِكَ؛ فَاعْلَمْ أَنَّ هَذَا مِنَ أَعْظَمِ الْأَرْزَاقِ، فَقَدْ جَاءَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ مِنْ
حَدِيثِ عَائِشَةَ، أَمَّا قَالَتْ: مَا غَرَّتْ عَلَى أَحَدٍ غَيْرَتِي عَلَى خَدِيجَةَ، وَمَا أَدْرَكْتُهَا، وَكَانَ
النَّبِيُّ ﷺ بَعْدَ أَنْ مَاتَتْ خَدِيجَةُ يُرْسَلُ إِلَى صَوَائِحِبَاتِ خَدِيجَةَ بِالْعَطَايَا وَالصَّدَقَاتِ
وَالهَبَاتِ؛ فَتَغَارُ عَائِشَةُ -رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهَا- قَالَتْ: فَغَضِبْتُ فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ؛
فَقَالَ ﷺ: «يَا عَائِشَةُ، إِنِّي قَدْ رَزَقْتُ حُبَّهَا»^(٢).

فَإِذَا رُزِقْتَ حُبَّ زَوْجَتِكَ، وَحُبَّكَ لَهَا وَسَادَ بَيْتُكَ الْوِدَادُ وَالْحُبُّ؛ فَاعْلَمْ أَنَّ
هَذَا مِنَ الرِّزْقِ، فَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْبُيُوتِ تَشْتَكِي مِنْ قِلَّةِ هَذَا الرِّزْقِ.

وَمِنْ مَعَانِي الرِّزْقِ الْعَظِيمَةِ أَيْضًا: أَشْيَاءٌ قَدْ تَكُونُ مُحْتَقِرَةً فِي نَظَرِنَا فَلَا نَلْتَفِتُ
إِلَيْهَا إِلَّا عِنْدَ الْاِحْتِيَاجِ إِلَيْهَا.

وَقَدْ دَخَلَ الْعَالِمُ ابْنُ السَّمَّاكِ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ هَارُونَ الرَّشِيدِ، ثُمَّ جَلَسَ
بِجَانِبِهِ، فَطَلَبَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ شَرْبَةَ مَاءٍ، فَاتَّوَأَ لَهُ بِكَوْزٍ فِيهِ مَاءٌ بَارِدٌ، فَإِذَا بِهِ يَرْفَعُهُ
لِيَشْرَبَ الْمَاءَ، فَقَالَ لَهُ ابْنُ السَّمَّاكِ: عَلَى رِسْلِكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، لَوْ مُنِعَتْ هَذِهِ الشَّرْبَةُ
كَمْ تَدْفَعُ لَهَا وَأَنْتَ فِي حَاجَةٍ إِلَيْهَا؟ قَالَ: أَدْفَعُ لَهَا نِصْفَ مُلْكِي. قَالَ: اشْرَبْ هُنَاكَ
اللَّهُ، فَلَمَّا فَرَّغَ مِنْ شَرْبِهِ قَالَ لَهُ ابْنُ السَّمَّاكِ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، لَوْ مُنِعَتْ أَنْ تُخْرِجَ هَذِهِ

(١) أخرجه الترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة التوبة، رقم (٣٠٩٤).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب، باب فضائل خديجة أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، رقم (٧٥ / ٢٤٣٥).

الشَّرْبَةُ مِنَ الْمَاءِ مِنْ جَسَدِكَ، كَمْ تَدْفَعُ لَهَا؟ قَالَ: أَدْفَعُ لَهَا مُلْكِي كُلَّهُ؛ فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنَّ مُلْكًَا قِيمَتُهُ شَرْبَةُ مَاءٍ وَبَوْلُهُ لَجَدِيرٌ إِلَّا يُنَافَسَ عَلَيْهِ؛ فَبَكَى هَارُونَ الرَّشِيدُ بُكَاءً شَدِيدًا^(١).

وَمِنْ قَوَاعِدِ الرَّزْقِ الْعَظِيمَةِ: أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَدْ قَسَمَ أَرْزَاقَهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ، يُعْطِي الْمُؤْمِنَ وَيُعْطِي الْكَافِرَ، قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي سُورَةِ الْإِسْرَاءِ: ﴿كُلًّا نُمِدُّ هُنُوًا وَهَنُوًا﴾ الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ ﴿مَنْ عَطَاءَ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءَ رَبِّكَ مَحْطُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠].

وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَمَا جَاءَ عِنْدَ الطَّبْرَانِيِّ: «إِنَّ اللَّهَ قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَخْلَاقَكُمْ، كَمَا قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَرْزَاقَكُمْ، وَإِنَّ اللَّهَ يُعْطِي الْمَالَ مَنْ يُحِبُّ وَمَنْ لَا يُحِبُّ، وَلَا يُعْطِي الْإِيمَانَ إِلَّا لِمَنْ يُحِبُّ»^(٢).

وَمِنْ قَوَاعِدِ الرَّزْقِ أَيْضًا: الرِّضَا بِمَا قَسَمَ اللَّهُ، فَالْعَبْدُ إِذَا رَضِيَ بِمَا قَسَمَ اللَّهُ لَهُ، وَلَمْ يَلْتَمِثْ إِلَى مَا عِنْدَ النَّاسِ سَعَدَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَقَدْ جَاءَ عِنْدَ التِّرْمِذِيِّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ يَأْخُذْ عَنِّي هُوَ لَاءِ الْكَلِمَاتِ فَيَعْمَلُ بِهِنَّ، أَوْ يُعَلِّمُ مَنْ يَعْمَلُ بِهِنَّ؟» قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: فَقُلْتُ: أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ فَأَخَذَ بِيَدِي فَعَدَّ خَمْسًا، قَالَ: «أَتَقِي الْمَحَارِمَ تَكُنْ أَعْبَدَ النَّاسِ، وَارْضَ بِمَا قَسَمَ اللَّهُ لَكَ تَكُنْ أَغْنَى النَّاسِ، وَأَحْسِنِ إِلَى جَارِكَ تَكُنْ مُؤْمِنًا، وَأَحِبَّ لِلنَّاسِ مَا نُحِبُّ

(١) انظر: تاريخ الطبري (٣٥٧/٨)، وتاريخ الإسلام للذهبي (١٠٣١/٤).

(٢) أخرجه أحمد (٣٨٧/١)، والطبراني في المعجم الكبير (٢٠٣/٩)، رقم (٨٩٩٠)، من حديث

عبدالله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

لِنَفْسِكَ تَكُنْ مُسْلِمًا، وَلَا تُكْثِرِ الضَّحِكَ فَإِنَّ كَثْرَةَ الضَّحِكِ تُمِيتُ الْقَلْبَ»^(١).

والشاهد من هذه الخمس هو قوله: «وَارْضَ بِمَا قَسَمَ اللَّهُ لَكَ تَكُنْ أَغْنَى

النَّاسِ».

نعم، إنها قواعد لا بُدَّ أن تكون حاضرة في ذهن المسلم وهو يتطلّب رزقه في

صباحه ومساءه.

والحسن البصري - رحمه الله تعالى - ما ساد الناس وما كان أزهده عصره إلا

حينما قام على تلك القواعد الأربع المهمة، قيل له: ما هذه القواعد؟ قال: عَلِمْتُ

أَنْ رِزْقِي لَنْ يَأْخُذَهُ غَيْرِي فَاطْمَأَنَّ قَلْبِي لَهُ، وَعَلِمْتُ أَنَّ عَمَلِي لَنْ يَشْتَغَلَ بِهِ غَيْرِي

فَاشْتَغَلْتُ بِهِ، وَعَلِمْتُ أَنَّ اللَّهَ مُطَّلِعٌ عَلَيَّ؛ فَاسْتَحْيَيْتُ أَنْ أُقَابِلَهُ بِالْمَعَاصِي وَالذُّنُوبِ،

وَعَلِمْتُ أَنَّ الْمَوْتَ يَنْتَظِرُنِي؛ فَاشْتَغَلْتُ بِإِعْدَادِ زَادِي.

هكذا ينبغي أن يتعامل المرء منا مع قضية مثل قضية الرزق المهمة، ولا يحوّض

مع الخائضين الذين تأثروا بهذا التيار الذي يسوقهم إلى شيء قد لا يعلمونه،

ويسوقهم إلى كلمات قد ياثمون عليها، يرددون كلمات في حالة من التسخّط والتذمّر

ثم لا يحصلون على شيء.

•• k ••

(١) أخرجه أحمد (٢/٣١٠)، والترمذي: كتاب الزهد، باب من اتقى المحارم، رقم (٢٣٠٥)، وابن

ماجه: كتاب الزهد، باب الورع والتقوى، رقم (٤٢١٧).



(٣٤)

الأقصى في قلوبنا

• • k • •

في ظلِّ هذه الأحداثِ والفتنِ التي تمَّوجُ بعالمنا الإسلاميِّ لم يبقَ بلدٌ من بلادِ المسلمينَ إلَّا وقد دخلتهُ هذه الفتنُ، وماجتْ به هذه الأحداثُ، ممَّا جعلَ المسلمينَ في كلِّ مكانٍ في غفلةٍ عمَّا يُحَاكُّ في المسجدِ الأقصى، وما يُدبِّرُ له، وما يَأْتُمِرُ الملاحدةُ والصليبيونَ ومن صارَ في ركبهم من المنافقينَ نُجَاهَ المسجدِ الأقصى؛ لأنَّ الأمةَ في غفلةٍ عمَّا شُغِلَتْ به؛ لذا وجبَ علينا التذكُّرُ بما جعلَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لتلك الأرضِ المباركةِ والمسجدِ الأقصى من فضائلٍ عظيمةٍ؛ حتى لا يغيبَ ذكرُهُ عن المسلمينَ بما حصلَ لهم من هذه الفتنِ والأحداثِ.

فالأقصى هو مسرى رسولِ الله ﷺ قال اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنَ السَّمَاءِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾ [الإسراء: ١].

وهو مهاجرُ إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الأنبياء: ٧٠-٧١].

وهو مقصدُ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ﴿١٣٧﴾﴾ [الأعراف: ١٣٧].

وقال - سبحانه -: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ أذكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَءَاتَاكُمْ مِمَّا لَمْ يُوْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿٢١﴾ ﴾ [المائدة: ٢٠-٢١].

وهو موطنُ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قال الحَقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ وَلسَلِيمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَنَرْنَا فِيهَا ۗ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ [الأنبياء: ٨١].

وهو ماوى عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ قال اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً ۖ وَآوَيْنَهُمَا إِلَىٰ رِبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾ ﴾ [المؤمنون: ٥٠].

قال الصَّحَّاحُ وقتادة رحمهما اللهُ كما جاء في تفسير ابن كثير: هو بَيْتُ المَقْدِسِ (١).

وبَيْتُ المَقْدِسِ له ارتباطٌ بك أيها المُسْلِمُ، وله هذا التاريخ العميق الذي يربطُ أوَّلَ المُسْلِمِينَ بِآخِرِهِمْ، كيف لا وهو في بلادِ الشَّامِ، تلك البلادُ المباركةُ التي جاء فيها على لسانِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الأحاديثِ والإشاراتِ ما يدلُّ على بَرَكَتِهَا، من ذلك: أن مَلَائِكَةَ الرَّحْمَنِ تَبْسُطُ أَجْنِحَتَهَا على الشَّامِ، فقد جاء من حديثِ زَيْدِ بنِ ثابتٍ عند أحمدَ في مُسْنَدِهِ، أن النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «طُوبَى للشَّامِ، طُوبَى للشَّامِ»، قال زَيْدٌ: فقلتُ: ما بالِ الشَّامِ يا رَسولَ اللهِ؟ قال: «المَلَائِكَةُ بِاسْطُورٍ أَجْنِحَتِهَا عَلَى الشَّامِ» (٢).

وهذا من فَضْلِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى على بلادِ الشَّامِ وما فيها.

(١) تفسير ابن كثير (٤٧٧/٥)، وانظر أيضا: تفسير عبد الرزاق (٤١٦/٢)، تفسير الطبري (٥٥/١٧).

(٢) أخرجه أحمد (١٨٤/٥)، والترمذي: كتاب المناقب، باب في فضل الشام واليمن، رقم (٣٩٥٤).

وبلاد الشام هي صفوة بلاد الله، فقد جاء من حديث واثلة بن الأسقع عند الطبراني في معجمه الكبير قال: «سمعت رسول الله ﷺ وقد جاءه حذيفة بن اليمان ومعاذ بن جبل يستشيرانه في المنزل» أي: يستشيرانه: إذا مت يا رسول الله، فأين نرحل؟ وفي أي البلاد ننزل؟ «فأومأ بيده إلى الشام، ثم سألاه؛ فأومأ إلى الشام، ثم سألاه؛ فأومأ إلى الشام، ثم قال: «عليكم بالشام؛ فإنها صفوة بلاد الله، يسكنها خيرته من خلقه»^(١).

وهي بلاد يجتبي الله إليها خيرته من خلقه، فقد جاء في حديث ابن حوالة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، والحديث عند أبي داود في سننه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «سَيَصِيرُ الْأَمْرُ إِلَى أَنْ تَكُونُوا جُنُودًا مُجَنَّدَةً: جُنْدُ بِالشَّامِ، وَجُنْدُ بِالْيَمَنِ، وَجُنْدُ بِالْعِرَاقِ»، قال ابن حوالة: خزلي يا رسول الله إن أدركت ذلك «أي اختر لي: إلى أي جهة أتوجه» قال: «عليك بالشام؛ فإنها خيرة الله من أرضه، يجتبي إليها خيرته من عباده»^(٢).

والشام مؤئل الإيوان عند الفتن، فكلما تراخمت الفتن كانت أرض الشام مؤئل الإيوان، جاء من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «أَلَا وَإِنَّ الْإِيْمَانَ إِذَا وَقَعَتِ الْفِتْنُ بِالشَّامِ»^(٣).

وأهل الشام هم الميزان في صلاح الأمة أو فسادها، دل على ذلك ما جاء في سنن الترمذي من حديث معاوية بن قرة عن أبيه، قال: قال رسول الله ﷺ:

(١) المعجم الكبير للطبراني (٢٢/٥٨، رقم ١٣٧).

(٢) أخرجه أحمد (٤/١١٠)، وأبو داود: كتاب الجهاد، باب في سكنى الشام، رقم (٢٤٨٣).

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٣/٦٣٩، رقم ١٤٥٦٤)، والحاكم في المستدرک (٤/٥٠٩).

«إِذَا فَسَدَ أَهْلُ الشَّامِ فَلَا خَيْرَ فِيكُمْ»^(١).

وبلادُ الشَّامِ هي مَهَبِطُ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ آخِرَ الزَّمَانِ؛ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ والحديثُ عند أبي داودَ في سُنَنِهِ: «ثُمَّ يَنْزِلُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ عِنْدَ الْمَنَارَةِ الْبَيْضَاءِ شَرْقِيَّ دِمَشْقَ»^(٢).

والشَّامُ هي مَخْزَنُ الْأَرْزَاقِ وَالْغَنَائِمِ، فَقَدْ جَاءَ فِي مُعْجَمِ الطَّبْرَانِيِّ الْكَبِيرِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي أُمَامَةَ -رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ- قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّجَلَّ اسْتَقْبَلَ بِي الشَّامِ، وَوَلَّى ظَهْرِي لِلْيَمَنِ، وَقَالَ: جَعَلْتُ مَا مُجَاهَكَ غَنِيمَةً وَرِزْقًا، وَمَا خَلْفَ ظَهْرِكَ مَدَدًا، وَلَا يَزَالُ الْإِسْلَامُ يَزِيدُ، وَيَنْقُصُ الشُّرْكُ وَأَهْلُهُ»^(٣).

فَلَا بُدَّ لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَعِيشَ مَعَ هَذِهِ الْأَحْدَاثِ، وَلَا تُنْسِيَهُ مَا يُحَاكُ إِلَى تِلْكَ الْبِلَادِ الْمُبَارَكَةِ وَإِلَى الْأَقْصَى الْمُبَارَكِ.

وَإِنَّ مِنْ أَعْظَمِ مَا يُمَيِّزُ بِلَادَ الشَّامِ، وَمِنْ أَعْظَمِ بَرَكَاتِ الشَّامِ أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى اسْتَوْدَعَ فِيهِ الْمَسْجِدَ الْأَقْصَى، الَّذِي هُوَ ثَانِي مَسْجِدٍ وَضِعَ فِي الْأَرْضِ فِي تَارِيخِ الْبَشَرِيَّةِ، تَعَاقَبَتْ عَلَيْهِ آلَافُ السِّنِينَ.

وَقَدْ جَاءَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ وَمُسْلِمٍ وَغَيْرِهِمَا، مِنْ حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ -رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ- قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ مَسْجِدٍ وَضِعَ فِي الْأَرْضِ أَوْلَى؟ قَالَ:

(١) أخرجه أحمد (٤٣٦/٣)، والترمذي: كتاب الفتن، باب ما جاء في الشام، رقم (٢١٩٢).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الفتن وأشراف الساعة، باب ذكر الدجال، رقم (٢٩٣٧)، وأبو داود:

كتاب الملاحم، باب خروج الدجال، رقم (٤٣٢١)، من حديث النواس بن سمعان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) المعجم الكبير للطبراني (٨/١٤٥، رقم ٧٦٤٢).

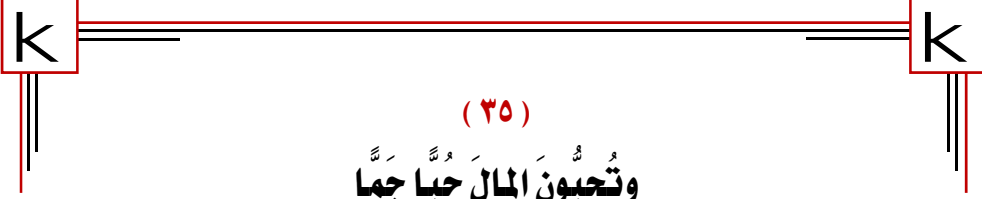
«المَسْجِدُ الْحَرَامُ»، قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «المَسْجِدُ الأَقْصَى»، قُلْتُ: كَمْ بَيْنَهُمَا؟ قَالَ: «أَرْبَعُونَ سَنَةً»^(١).

فَحَرِيٌّ بِالْمُؤْمِنِينَ أَنْ يُحْيُوا فِي ضَمَائِرِهِمْ، وَفِي ثِقَاتِهِمْ، وَثِقَاتِهِ أَبْنَائِهِمْ، وَفِي مَجْتَمَعَاتِهِمْ، وَتَعْلِيمِهِمْ، وَإِعْلَامِهِمْ: أَنْ يُحْيُوا دَائِمًا ذِكْرَ الْمَسْجِدِ الأَقْصَى؛ حَتَّى لَا يَغِيبَ عَنِ اهْتِمَامَاتِ الْمُسْلِمِينَ، فَلَوْ فَجَعَ الْعَالَمُ الْيَوْمَ بِأَمْرٍ قَدْ لَا نَتَّصِرُهُ وَلَكِنَّهُ يُدَبِّرُ لَهُ، لَوْ أَصْبَحَ الْمُسْلِمُونَ الْيَوْمَ عَلَى أَخْبَارِ هَدْمِ الْمَسْجِدِ الأَقْصَى، مَاذَا سَيَحْضُلُ وَقَدْ غُيِّبَتِ الأُمَّةُ بِأَسْرِهَا عَنِ أَخْبَارِ مَسْرَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟

فَكَانَ لِرِزَامًا عَلَيْنَا جَمِيعًا أَنْ نُبْقِيَ جَذْوَةَ ذِكْرِ الْمَسْجِدِ الأَقْصَى مُشْتَعِلَةً فِي ثِقَاتِنَا وَفِي عُقُولِنَا وَقُلُوبِنَا عَلَى الدَّوَامِ.

•• k ••

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، رقم (٣٣٦٦)، ومسلم: كتاب المساجد، رقم (٥٢٠).



(٣٥)

وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبَّ جَمَاءَ

• • k • •

جاء في حديث أنس بن مالك - رضي الله تعالى عنه - أن النبي ﷺ قال: «يَهْرُمُ ابْنُ آدَمَ وَتُشَبُّ مِنْهُ اثْنَتَانِ: الْحِرْصُ عَلَى الْمَالِ، وَالْحِرْصُ عَلَى الْعُمْرِ» رواه مسلم^(١).

أي: يَتَقَدَّمُ الْعُمُرُ بِابْنِ آدَمَ حَتَّى يَصِلَ إِلَى مَرِحَلَةِ الْهَرَمِ، وَلَكِنْ يَبْقَى هُنَاكَ شَيْئَانِ لَا يَشِيخَانِ، وَإِنَّمَا هُمَا شَابَّانِ: حُبُّ الْمَالِ، وَحُبُّ الْحَيَاةِ، فَقَدْ يَصِلُ إِلَى السَّبْعِينَ، أَوْ يَتَجَاوَزُهَا إِلَى الثَّمَانِينَ، أَوْ يُشْرِفُ عَلَى التَّسْعِينَ، وَهَاتَانِ الْخِصْلَتَانِ شَابَّتَانِ فِي نَفْسِهِ وَفِي قَلْبِهِ؛ لَذَا جَاءَ فِي سُنَنِ ابْنِ مَاجَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ فِي رِوَايَةٍ أُخْرَى قَالَ: «قَلْبُ الشَّيْخِ شَابٌّ فِي حُبِّ اثْنَتَيْنِ: فِي حُبِّ الْحَيَاةِ، وَكَثْرَةِ الْمَالِ»^(٢).

وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿زِينَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَعَابِ ﴿١٤﴾﴾ [آل عمران: ١٤].

وقال سبحانه: ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبَّ جَمَاءَ ﴿٢٠﴾﴾ [الفجر: ٢٠].

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزكاة، باب كراهة الحرص على الدنيا، رقم (١٠٤٧).
 (٢) أخرجه مسلم: كتاب الزكاة، باب كراهة الحرص على الدنيا، رقم (١٠٤٦)، وابن ماجه: كتاب الزهد، باب الأمل والأجل، رقم (٤٢٣٣)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فَمَحَبَّةُ الْإِنْسَانِ لِلْمَالِ هَذَا أَمْرٌ قَدْ فُطِرَ عَلَيْهِ، وَلَكِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جَعَلَ لِكُلِّ أُمَّةٍ فِتْنَةً، وَفِتْنَةُ هَذِهِ الْأُمَّةِ فِي الْمَالِ، كَمَا فِي حَدِيثِ كَعْبِ ابْنِ عِيَاضٍ عِنْدَ التِّرْمِذِيِّ أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: «إِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ فِتْنَةً، وَفِتْنَةُ أُمَّتِي الْمَالُ»^(١).

وَأَعْظَمُ أَبْوَابِ الْفِتَنِ: فِتْنَةُ الْمَالِ عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ، قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الأَنْفَالُ: ٢٨].

لِذَا أَخْبَرَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - كَمَا جَاءَ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ عِنْدَ النَّسَائِيِّ قَالَ: «لَيَأْتِيَنَّ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لَا يُبَالِي الرَّجُلُ مِنْ أَيْنَ أَصَابَ الْمَالُ، مِنْ حَلَالٍ أَمْ مِنْ حَرَامٍ؟»^(٢).

وهذه الخُطوة الأولى في فَتْحِ بَابِ الْفِتْنَةِ عَلَى الْعَبْدِ، حِينَهَا لَا يَلْتَفِتُ إِلَى هَذَا الْمَالِ الَّذِي اِكْتَسَبَهُ أَمِنْ حَلَالٍ أَمْ مِنْ حَرَامٍ؟ أَوْ هَذِهِ الثَّرْوَةُ الَّتِي كَوَّنَهَا عَلَى مَدَى عِشْرِينَ أَوْ ثَلَاثِينَ سَنَةً مِنْ حَلَالٍ أَمْ مِنْ حَرَامٍ؟ أَوْ هَذَا الْعَقَارُ الْمُمْتَدُّ الْمُتَّسِعُ مِنْ حَلَالٍ أَمْ مِنْ حَرَامٍ؟ أَوْ هَذِهِ النَّعْمُ الَّتِي يَتَمَتَّعُ بِهَا الْأَبْنَاءُ وَالْأَحْفَادُ هَلْ جُمِعَتْ مِنْ حَلَالٍ أَمْ مِنْ حَرَامٍ؟

لِذَا هَاهُنَا مَجْمُوعَةٌ مِنَ الْقَوَاعِدِ لَهَا مُتَعَلِّقٌ رَئِيسٌ بِالْمَالِ، نَذْكُرُهَا بِإِيجَازٍ:

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٦٠)، والترمذي: كتاب الزهد، باب ما جاء أن فتنة هذه الأمة في المال، رقم (٢٣٣٦).

(٢) أخرجه النسائي: كتاب البيوع، باب اجتناب الشهات في الكسب، رقم (٤٤٥٤). وأخرجه بنحوه البخاري: كتاب البيوع، باب قول الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا﴾، رقم (٢٠٨٣).

القاعدة الأولى: العبرة في المال البركة فيه، والقناعة والرّضا في القلب، ليست العبرة بكثرة المال أو قلّته، قال حكيم بن حزام أحد كبار الصحابة المعمرين -رضي الله تعالى عنه- والحديث عند البخاريّ قال: «سألت النبي ﷺ فأعطاني، ثم سألته فأعطاني، ثم سألته فأعطاني، ثم قال: يا حكيم، إنّ هذا المال خضرة حلوة؛ فمن أخذه بطيب نفس بُورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفسٍ لم يُبارك له فيه، وكان كالذي يأكل ولا يشبع، واليد العليا خيرٌ من اليد السفلى»^(١).

وانظر إلى شريحة من الناس كيف بارك الله لهم في أموالهم وإن كانت قليلة، فالقليل يُشبعهم، ويُقنعهم، ويُرضيهم، وانظر إلى شريحة أخرى من الناس الذين نزعَت البركة من أموالهم، الكثير لا يُغنيهم، ولا يَمَلأ عُيونهم، ولا يُقنعهم، وهذا دليلٌ وجود البركة من عدمها.

وسأل رسول الله ﷺ أبا ذرّ في يومٍ من الأيام، فقال: «يا أبا ذرّ، أترى كثرة المال هو الغنى؟» قلت: نعم يا رسول الله ﷺ، قال: «أفترى قلة المال هو الفقر؟» قلت: نعم يا رسول الله ﷺ، قال: «إنما الغنى غنى القلب، والفقر فقر القلب»^(٢).

والله إذا افتقر قلب عبده فهو فقيرٌ وإن كثرت أمواله، وإذا اغتنى قلب العبد فهو غنيٌّ وإن قلّ ماله، هذه القاعدة الأولى.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب قول النبي ﷺ: «هذا المال خضرة حلوة»، رقم (٦٤٤١)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب بيان أن اليد العليا خير من اليد السفلى، رقم (١٠٣٥).
(٢) أخرجه النسائي في السنن الكبرى رقم (١١٧٨٥)، وابن حبان في صحيحه رقم (٦٨٥)، والحاكم في المستدرک (٣٢٧/٤).

القاعدة الثانية: المأل تبع لنية صاحبه حينما أخذه، فإن أخذه وهو ينوي الخير حصل الخير، وإن أخذه وهو ينوي الشر، أو ينوي اللعيب به، أو إضاعته وإفساده وإتلافه، قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ أَخَذَ أَمْوَالَ النَّاسِ يُرِيدُ أَدَاءَهَا أَدَّى اللَّهُ عَنْهُ، وَمَنْ أَخَذَهَا يُرِيدُ إِتْلَافَهَا أَتْلَفَهُ اللَّهُ**»^(١).

كأن يكون تاجرًا يتاجر ويبيئ للناس، أو يبيع للناس أو يؤجر لهم، يعمل بهذا المال، إن أخذه وهو يريد أداءه، فالله تبارك وتعالى يتكفل بأدائه، ولكن من أخذه وفي نيته الإتلاف أتلفه الله تبارك وتعالى في صحته، أو عافيته، أو توفيقه، أو في حياته مع أسرته، أو مع أبنائه.

وقد لا يكون التلّف اليوم، لكن قد يكون التلّف بعد عشرين سنة، كما قال بعض السلف: لتجدن غبها ولو بعد حين، فقال أحدهم: وجدت غبها بعد أربعين سنة^(٢).

لذا الذي يأخذ أموال الناس فيأتي عند هذه البقالة ويأخذ منها ولا يسدّد، أو يأخذ دينًا من عند فلان ولا يسدّد، أو يؤجر هذا المسكن ويتلفه ولا يسدّد، هو يظن أنه ذكي، وأنه استطاع أن يتلاعب بالقانون أو على القانون، أو يظن أن له قوة في المكان الفلاني مُخلصه من هذه المشكلات، لكن أين الخلاص من الإتلاف إذا أتلفه الله؟

(١) أخرجه البخاري: كتاب في الاستقراض، باب من أخذ أموال الناس، رقم (٢٣٨٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) انظر: ذم الهوى لابن الجوزي (ص: ١٢٧).

أين هو من قول الرسول ﷺ: «مَنْ أَخَذَ أَمْوَالَ النَّاسِ يُرِيدُ أَدَاءَهَا أَدَّى اللَّهُ عَنْهُ، وَمَنْ أَخَذَهَا يُرِيدُ إِتْلَافَهَا أَتْلَفَهُ اللَّهُ»؟

وما علينا إلا أن نقرأ في سير من سبقنا، أو تلتفت عن يميننا وشمالنا وننظر إلى هذا الإتلاف الذي حصل لكثير من الناس، كان يُشار إليه بالبنان يوماً من الأيام على أنه أغنى أهل الحي، لكنه كان يأخذ أموال الناس بالباطل يريد إتلافها؛ فأتلفه الله، فهو الآن يدور على المجالس يسأل الناس، هكذا أخبر النبي ﷺ.

القاعدة الثالثة: التي لها متعلق رئيس بهذا المال: أن هذا المال سُئِلَ عنه يوم القيامة من أين اكتسبناه وفيما أنفقناه، قال رسول الله ﷺ كما في حديث أبي بَرزَةَ الأسلمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند الترمذي: «لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ: عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ؟ وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَا عَمِلَ؟ وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ؟ وَفِيمَا أَنْفَقَهُ؟ وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَا أَبْلَاهُ»^(١) يُسأل عن ذلك كله.

فانتبه قد تكون عين الرقيب الآدمي عليك في الدنيا متعاطفة، وقد تغض الطرف عنك، وقد تتغافل عنك لتتأدى أكثر؛ أو لقرها منك، أو لأنها تشترك معك فيما أنت فيه، ولا تسألك من أين أخذت مالك أو فيما أنفقته، لكن عين الله تبارك وتعالى تُحصي ذلك كله، من أين أخذته؟ وفيما أنفقته؟ قد يكون المصدر حلالاً لكن أنفقته في الحرام، ستسأل عن هذا وعن ذلك.

القاعدة الرابعة: لما أنزل الله سبحانه وتعالى المال أنزله لقوام الدين، ولنصرة الدين، ولتمكينه في الأرض، جاء في مُسند الإمام أحمد من حديث أبي واقد الليثي

(١) أخرجه الترمذي: كتاب صفة القيامة، باب في القيامة، رقم (٢٤١٧).

قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: إِنَّا أَنْزَلْنَا الْمَالَ لِإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ»^(١).

فَالْمَالُ أَنْزَلَهُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِنَتَقَوَّى بِهِ عَلَى طَاعَتِهِ - سُبْحَانَهُ - وَلِنَنْصُرَ بِهِ دِينَهُ، وَلِنَجْعَلَهُ هُوَ الْمَمْكَنَ فِي الْأَرْضِ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ أَقْوَامًا يَخْتَصُمُ بِالنَّعْمِ لِمَنَافِعِ الْعِبَادِ، يُقَرِّهَا فِيهِمْ مَا بَدَّلُوها؛ فَإِذَا مَنَعُواها نَزَعَهَا مِنْهُمْ، وَحَوَّلَهَا إِلَى غَيْرِهِمْ»^(٢).

القاعدة الخامسة: أمرنا الله تبارك وتعالى بكسب المال، لذا فلا تُفهم مما تقدم أن الله يريد منك أن تكون فقيراً محتاجاً إلى الآخرين، لا، بل أراد الله تبارك وتعالى منك أن تكسب هذا المال، وبإمكانك أن تتوسع في كسب هذا المال، وأن تنوع مواردك، وأن تكثر دخلك، فإن يكون المجتمع غنياً خيراً من أن يكون المجتمع فقيراً؛ لذا قال رسول الله ﷺ: «لَئِنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلُهُ فَيَأْتِي بِحُرْمَةِ الْحَطَبِ عَلَى ظَهْرِهِ فَيَبِيعَهَا فَيَكْفِ اللَّهُ بِهَا وَجْهَهُ - خَيْرٌ لَهُ أَنْ يَسْأَلَ النَّاسَ أَعْطَوْهُ أَوْ مَنَعُوهُ»^(٣)، فالله يريد منك أن تتكسب.

قَالَ سُفْيَانٌ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - : عَلَيْكَ بِعَمَلِ الْأَبْطَالِ: الْكَسْبِ مِنْ حَلَالٍ، وَالْإِنْفَاقِ عَلَى الْعِيَالِ^(٤).

(١) أخرجه أحمد (٢١٨/٥).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في اصطناع المعروف رقم (٥)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب الاستعفاف عن المسألة، رقم (١٤٧١)، من حديث الزبير ابن العوام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في النفقة على العيال رقم (٢٣)، وأبو نعيم في الحلية (٦/٣٨١)، والبيهقي في الشعب رقم (١١٧٧).

وقال الهيثم بن جميل رحمه الله: سألت ابن المبارك العالم: أئجر في البحر؟ قال: أئجر في البر والبحر، واستغن عن الناس^(١).

أن يكون لك كسب ودخل يُغنيك عن فلان وفلان، هذا خير لك من أن تكون فقيراً تسأل الناس.

فالإسلام يريد منك أن تتكسب، بل أراد منك الإسلام ما هو أبعد من ذلك، إذا لم تجد لك رزقاً في بلد فاخرج منه وتكسب، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥].

قال ابن عمر رضي الله عنهما: إذا لم يرزق أحدكم في البلد فليتجر إلى بلد غيره^(٢).

أي: لا يمنعك شيء، اذهب وسخ في هذه الأرض.

وفي تلك الأبيات العجيبة التي تُنسب إلى الإمام الشافعي رحمه الله يقول:

تَغْرَبُ عَنِ الْأَوْطَانِ فِي طَلَبِ الْعُلَى	وَسَافِرٌ فِي الْأَسْفَارِ خَمْسُ فَوَائِدِ
تَفْرِيجُ هَمِّ وَكُنْسَابُ مَعِيشَةٍ	وَعِلْمٌ وَأَدَابٌ وَصُحْبَةٌ مَا جَدِ
فَإِنْ قِيلَ فِي الْأَسْفَارِ ذُلٌّ وَغُرْبَةٌ	وَقَطْعٌ لِلْفِيَا فِي وَارْتِكَابِ الشَّدَائِدِ
فَمَوْتُ الْفَتَى خَيْرٌ لَهُ مِنْ حَيَاتِهِ	بِدَارِ هَوَانٍ بَيْنَ وَاشٍ وَحَاسِدِ ^(٣)

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في إصلاح المال رقم (٢٣٠).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في إصلاح المال رقم (٢٣٣).

(٣) الأبيات نسبها الثعالبي في يتيمة الدهر (٤٠/٥) لأبي وكيع التنيسي، ونسبها السمعاني في المنتخب من معجم شيوخه (ص: ٧٨٤) لحازم بن سنان، وانظر: ديوان الشافعي (ص: ٥٨).

وخرَجَ الحَسَنُ بنُ يَحْيَى - رحمه الله تعالى - يوماً مِنَ الأَيَّامِ مِنَ أَرْضِهِ التي أَحَبَّهَا وترَبَّى فيها، بعيداً إلى أَرْضِ الحَبْشَةِ يُتَاجَرُ، فالتَقَى بِرَجُلٍ يَعْرِفُهُ قَالَ: يا أبا يَحْيَى ما الذي أَخْرَجَكَ مِنَ أَرْضِكَ إلى أَرْضِ الحَبْشَةِ تُتَاجَرُ فيها؟ قال: خَرَجْتُ في طَلَبِ الرِّزْقِ واكْتِسَابِ مَعِيشَةٍ. فَلامَهُ قائلاً: أَكُلُّ ذلك حِرْصٌ مِنْكَ على الدُّنْيَا؟ قال: لا والله، بل هو كراهيةٌ أَنْ أحتَاجَ إلى من هو مِثْلِكَ^(١).

وصدق الشَّافِعِيُّ - رحمه الله تعالى - حينها قال:

سَافِرٌ تَجِدُ عَوْضًا عَمَّنْ تُفَارِقُهُ وَأَنْصَبُ فَإِنَّ لَدَيْدَ العَيْشِ فِي النِّصَبِ
إِنِّي رَأَيْتُ وَقُوفَ المَاءِ يُفْسِدُهُ إِنَّ سَاحَ طَابَ وَإِنْ لَمْ يَجِرْ لَمْ يَطْبِ
وَالأُسْدُ لَوْ لَا فِرَاقُ الأَرْضِ مَا افْتَرَسَتْ وَالسَّهْمُ لَوْ لَا فِرَاقُ القَوْسِ لَمْ يُصِبِ
وَالشَّمْسُ لَوْ وَقَفَتْ فِي الفُلكِ دَائِمَةً لَمَلَّهَا النَّاسُ مِنْ عُجْمٍ وَمِنْ عَرَبِ
والتُّبْرُ كالتُّرْبِ مُلْقَى فِي أَمَاكِنِهِ والعُودُ فِي أَرْضِهِ نَوْعٌ مِنَ الحَطَبِ
فإن تَغَرَّبَ هَذَا عَزَّ مَطْلَبُهُ وَإِنْ تَغَرَّبَ ذَاكَ عَزَّ فِي الطَّلَبِ^(٢)

فالإسلامُ يَدْعُو إلى التَّكْسِبِ، وَيَدْعُو إلى السِّيَاحَةِ في الأَرْضِ مِنَ أَجْلِ أَنْ يَسْتَعْنِيَ النَّاسُ عَنِ النَّاسِ.

•• k ••

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في إصلاح المال رقم (٢٣٧).

(٢) ديوان الشافعي (ص: ٣٦).



(٣٦)

سَبِيلُ النَّجَاةِ عَلَى الصِّرَاطِ

• • k • •

قَالَ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾ (٧١) ثُمَّ تَنَجَّى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُوا الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثْيًا ﴿٧٢﴾ [مريم: ٧١-٧٢].

يَنْصِبُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَى مَتْنِ جَهَنَّمَ جِسْرًا يَعْبُرُ عَلَيْهِ الْعِبَادُ، فَمِنْهُمْ مَنْ هُوَ نَاجٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْجُو بِخُدُوشِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُكَرِّدُسُ فِي جَهَنَّمَ، وَقَدْ حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ هَذَا الْجِسْرِ الَّذِي هُوَ عَلَى مَتْنِ جَهَنَّمَ، فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَمَا جَاءَ عِنْدَ الْحَاكِمِ فِي مُسْتَدْرَكِهِ: «فِيوَضِعُ الصِّرَاطُ مِثْلَ حَدِّ الْمَوْسَى، أَحَدٌ مِنَ السَّيْفِ، أَدْقُ مِنَ الشَّعْرِ دَحْضُ مَزَلَّةٍ، فَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ: مَنْ تُجِيزُ عَلَيَّ هَذَا؟» أَي: مَنْ يَتِمَكَّنُ مِنْ أَنْ يُجِيزَ عَلَى هَذَا الْجِسْرِ، الَّذِي هَذَا وَصْفُهُ: أَحَدٌ مِنَ السَّيْفِ وَأَدْقُ مِنَ الشَّعْرِ دَحْضُ مَزَلَّةٍ، ظَلْمَةٌ شَدِيدَةٌ «قَالَ: مَنْ شِئْتُ مِنْ خَلْقِي؛ فَيَقُولُونَ: سُبْحَانَكَ، مَا عَبْدْنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ» (١).

وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ طُولَ هَذَا الْجِسْرِ، لَكِنَّا نَقِيسُهُ بِمَا وَرَدَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ أَنَّ عَائِشَةَ -رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهَا- سَأَلَتْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، اللَّهُ يَقُولُ: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ ۗ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ (٤٨) [إبراهيم: ٤٨]

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک (٤/٥٨٦)، من حديث سلمان الفارسي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فأين يكون الناس يومئذ يا رسول الله؟ قال: «على الصراط»^(١) أي: كلهم مجتمعون على الصراط يعبرون.

قال معاذ بن جبل - رضي الله تعالى عنه -: إن المؤمن لا يسكن روعه حتى يترك جسر جهنم وراءه^(٢).

وجسور الدنيا لو ازدحمت أجسادنا عليها أو ازدحمت مراكبنا عليها لساعات قليلة نصيق ذرعا، فكيف بجسر لا يشبه جسور الدنيا، وتحتة لظى نار جهنم، يعاينها العبد وهو على جسر جهنم ويسمع صوتها فما النجاة يومئذ؟

الجواب: لا ينجو الإنسان إلا بعمله، لا ينجيه الحسب، ولا النسب، ولا الجاه، إنما تنجيه تلك السجدة، وتلك الأعمال الصالحة، ينجو بها على جسر جهنم، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «فيؤمر بالصراط فيضرب على جهنم فيمر الناس كقدر أعمالهم» أي: العبرة بالعمل، لا يقولون: ابن فلان، ابن من، أو بمن أنت؟ «زمرًا كلمح البرق» هذا صنف من الناس «كمر الرياح، كمر الطير، كمر أسرع البهائم، ثم كذلك حتى يمر الرجل سعيًا، ثم مشيًا، ثم يكون آخرهم رجل يتلبط على بطنه» أي: يزحف «يقول: أي ربي، لماذا أبطأت بي؟ فيقول: لم أبطئ بك إنما أبطأ بك عمالك» رواه الحاكم في مستدركه^(٣).

(١) أخرجه مسلم: كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب في البعث والنشور، رقم (٢٧٩١).

(٢) انظر: إحياء علوم الدين للغزالي (٤/١٨٨).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف رقم (٢٨٧٩٢/١٠)، والحاكم في المستدرک (٤/٤٩٧)، من

حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

إِذَا: الْعَبْدُ يَحْتَاجُ عَلَى جِسْرِ جَهَنَّمَ الَّذِي سَيَمُرُّ عَلَيْهِ يَوْمًا مِنَ الدَّهْرِ إِلَى قُوَّةٍ دَافِعَةٍ تَدْفَعُهُ، وَيَحْتَاجُ إِلَى قُوَّةٍ إِبْصَارٍ؛ لِأَنَّ الْمَكَانَ مُظْلِمًا، وَيَحْتَاجُ إِلَى ثَبَاتٍ؛ لِأَنَّ الْمَكَانَ مَزَلَّةٌ دَخُضٌ، أَمَّا الثَّبَاتُ فَبِالْعَمَلِ الصَّالِحِ.

وعن هذا العمل الذي يُثَبِّتُ الْقَدَمَ عَلَى الصِّرَاطِ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ عِنْدَ الطَّبْرَانِيِّ فِي مُعْجَمِهِ الْأَوْسَطِ: «وَمَنْ مَشَى مَعَ أَخِيهِ فِي حَاجَةٍ» أَي: رَجُلٌ يُقَدِّمُ النَّفْعَ لِلآخَرِينَ دُونَ بَحْثٍ عَنِ مَصَالِحِ شَخْصِيَّةٍ «حَتَّى أَثْبَتَهَا لَهُ؛ أَثَبَّتَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ قَدَمَهُ عَلَى الصِّرَاطِ يَوْمَ تَزَلُّ فِيهِ الْأَقْدَامُ»^(١) فَهُوَ عَمَلٌ يَسِيرٌ وَيَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ هَذَا الْأَجْرُ الْعَظِيمُ.

وَفِي هَذِهِ الْأَجْوَاءِ الْمُظْلِمَةِ يَحْتَاجُ الْمَارُّ عَلَى الصِّرَاطِ إِلَى النُّورِ، وَالنُّورُ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يُكْتَسَبَ إِلَّا بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَعَلَى قَدْرِ مَا تَعْمَلُ فِي الدُّنْيَا يُضَاءُ لَكَ فِي الْآخِرَةِ.

قَالَ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي سُورَةِ الْحَدِيدِ: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَانُكُمْ الْيَوْمَ جَنَّتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتِسِمْ مِنْ تُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾ ينادونهم أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ كُنْتُمْ فَنَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمْ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّتْكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿١٤﴾ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَا أُولَئِكَ التَّارُ هِيَ مَوْلَانَكُمْ وَيَسَّ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ [الحديد: ١٢-١٥].

(١) المعجم الأوسط للطبراني رقم (٦٠٢٦).

وجاء عند الحاكم في مُسْتَدْرَكِهِ، من حديث ابن مسعود قال رسول الله ﷺ: «وَهُمْ عَلَى الصِّرَاطِ، قَالَ: فَيُعْطُونَ نُورَهُمْ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ، فَمِنْهُمْ مَنْ يُعْطَى نُورَهُ مِثْلَ الْجَبَلِ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُعْطَى نُورَهُ دُونَ ذَلِكَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُعْطَى نُورَهُ مِثْلَ النَّخْلَةِ بِيَمِينِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُعْطَى دُونَ ذَلِكَ، حَتَّى يَكُونَ آخِرُ ذَلِكَ يُعْطَى نُورَهُ عَلَى إِبْهَامِ قَدَمِهِ، يُضِيءُ مَرَّةً وَيُطْفِئُ مَرَّةً، فَإِذَا أَضَاءَ قَدَمَ قَدَمَهُ، وَإِذَا طَفِيَءَ قَامَ، فَيَمْرُونَ عَلَى الصِّرَاطِ، وَالصِّرَاطُ كَحَدِّ السَّيْفِ دَخُضٌ مَزَلَّةٌ» وهذا موضع الشاهد «فَيُقَالُ: انْجُوا عَلَى قَدْرِ نُورِكُمْ»^(١).

واستثمار هذه الأعمال والإكثار من هذا النور يوم القيامة يكون بأعمال يسيرة وهي كثيرة، وفي مُتناول اليد، نذكر بعضها فقط للمثال:

المثال الأول: المحافظة على الصلاة، فمن حافظ على الصلاة في الدنيا كانت له نورا يوم القيامة، فقد قال رسول الله ﷺ كما جاء عند أحمد في مُسْنَدِهِ من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، حينما ذكر الصلاة يوما: «وَمَنْ حَافِظَ عَلَيْهَا» أي: أداها في وقتها في جماعة، «كَانَتْ لَهُ نُورًا وَبُرْهَانًا وَنَجَاةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ لَمْ يُحَافِظْ عَلَيْهَا لَمْ يَكُنْ لَهُ نُورٌ وَلَا بُرْهَانٌ وَلَا نَجَاةٌ، وَكَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعَ قَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَأَبِي بَنْ خَلْفٍ»^(٢).

فهؤلاء الذين يخرجون من بيوتهم لصلاة الفجر ويمشون إلى المساجد، لا يمكن أن يستوتوا مع الذين في غرفهم وعلى فرشهم تحت لحافهم مع نساءهم؛ لهذا

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٩/٣٥٨-٣٥٩، رقم ٩٧٦٣)، والحاكم في المستدرک (٢/٣٧٦).

(٢) أخرجه أحمد (٢/١٦٩).

قال رسول الله ﷺ من حديث بُرَيْدَةَ عند أبي داود: «بَشِّرِ الْمَشَائِينَ فِي الظُّلَمِ إِلَى الْمَسَاجِدِ بِالنُّورِ التَّامِّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١).

المثال الثاني: أهل الجُمُع، هناك أناسٌ ازْتَبَطُوا بيومِ الجُمُعَةِ كيومِ عِبَادَةِ عَظِيمَةٍ، قال رسول الله ﷺ من حديث أبي موسى الأشعري، والحديث في صحيح ابن خزيمة: «إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ الْأَيَّامَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى هَيْئَتِهَا، وَيَبْعَثُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ زَهْرَاءَ مُنِيرَةً، أَهْلُهَا يَخْفُونَ مِنْ حَوْلِهِ كَالْعُرُوسِ تُهْدَى إِلَى كَرِيمِهَا، تُضِيءُ لَهُمْ يَمْسُونَ فِي ضَوْئِهَا»^(٢) أي أن أهل الجُمُعَةِ تأتي الجُمُعَةُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُضِيءُ لَهُمْ يَمْسُونَ فِي ضَوْئِهَا. فلا يَسْتَوِي مَنْ يُحَافِظُ عَلَى صَلَاةِ الْجُمُعَةِ عِشْرِينَ سَنَةً أَوْ ثَلَاثِينَ سَنَةً بَمَنْ فَوَّتَ صَلَاةَ الْجُمُعَةِ وَلَمْ يَعْرِفْهَا إِلَّا فِي الْمُنَاسَبَاتِ، لَا يُصَلِّي إِلَّا إِذَا كَانَ فِي مُنَاسِبَةٍ تَحْتَاجُ إِلَى أَنْ يُخْرَجَ بَيْنَ النَّاسِ.

المثال الثالث: عَمَلٌ يَسِيرٌ فَوَّتَهُ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ عِنْدَ الْحَاكِمِ فِي مُسْتَدْرَكِهِ: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْكَهْفِ كَمَا أَنْزَلَتْ كَانَتْ لَهُ نُورًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ مَقَامِهِ إِلَى مَكَّةَ»^(٣).

أخيراً، قد تكون أنتَ بَعَمَلِكَ الصَّالِحِ سَبَبًا فِي أَنْ تُضِيءَ لغيرِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أعني بذلك والديك؛ فإنَّ النبي ﷺ قال في حديث بُرَيْدَةَ: «مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ وَتَعَلَّمَهُ وَعَمِلَ بِهِ أُلْبَسَ وَالِدَاهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَاجًا مِنْ نُورٍ، ضَوْؤُهُ مِثْلُ ضَوْءِ الشَّمْسِ،

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الصلاة، باب ما جاء في المشي إلى الصلاة في الظلام، رقم (٥٦١)،

والترمذي، كتاب الصلاة، باب ما جاء في فضل العشاء والفجر في جماعة، رقم (٢٢٣).

(٢) أخرجه ابن خزيمة في صحيحه رقم (١٧٣٠)، والحاكم في المستدرک (١/٢٧٧).

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط رقم (١٤٥٥)، والحاكم في المستدرک (١/٥٦٤).

وَيُكْسَى وَالِدَاهُ حُلَّتَانِ لَا تَقُومُ لَهْمَا الدُّنْيَا، فَيَقُولَانِ لِمَ كُسِينَا هَذَا؟ فَيُقَالُ: بِأَخَذِ
وَلَدِكُمَا الْقُرْآنَ»^(١).

فَأَنْتَ تَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَتَتَعَلَّمُهُ وَتَعْمَلُ بِهِ فَيَنْتَفِعُ بِذَلِكَ وَالِدَاكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

وَهُنَاكَ صِنْفٌ مِنَ النَّاسِ يُحْبَسُونَ عَلَى جِسْرِ جَهَنَّمَ، وَالْقَوَائِلُ مِنْ حَوْلِهِمْ
وَالنَّاسُ يَمُرُّونَ، وَهَذَا الصِّنْفُ مِنَ النَّاسِ مَحْبُوسٌ عَلَى جِسْرِ جَهَنَّمَ يُعَايِنُ الْأَهْوَالَ
بِعَيْنِهِ، تَلْفَحُهُ النَّارُ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ يَرَى الْأَجْسَادَ وَهِيَ تَسَاقِطُ فِي جَهَنَّمَ، وَهُوَ عَلَى هَذَا
الْجِسْرِ الَّذِي هُوَ أَحَدٌ مِنَ السَّيْفِ وَأَدْقُ مِنَ الشَّعْرِ.

كُلُّ ذَلِكَ بِسَبَبِ مَا ذَكَرَهُ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَدْ جَاءَ فِي سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ مِنْ
حَدِيثِ مُعَاذِ بْنِ أَنَسٍ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ رَمَى مُسْلِمًا بِشَيْءٍ يُرِيدُ شَيْنَهُ بِهِ؛
حَبَسَهُ اللَّهُ عَلَى جِسْرِ جَهَنَّمَ حَتَّى يُخْرَجَ مِمَّا قَالَ»^(٢).

هُؤُلَاءِ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ خَلْفَ الْأَبْوَابِ الْمُغْلَقَةِ، وَخَلْفَ السُّتُورِ الْمَرْحِيَّةِ، هُؤُلَاءِ
نَقْلَةُ الْحَدِيثِ يَقُولُ: تَرَى فُلَانًا فَعَلَ، وَفُلَانًا قَالَ، وَهُوَ لَمْ يَقُلْ وَلَمْ يَفْعَلْ! فَيَكُونُونَ
سَبَبًا فِي قَطْعِ رِزْقِ فُلَانٍ، وَفَضْلِ فُلَانٍ مِنْ عَمَلِهِ، وَتَأْخِيرِ تَرْقِيَةِ فُلَانٍ، وَهَدْمِ أُسْرَةٍ
فُلَانٍ، هُمْ يَظُنُّونَ أَنَّ الْأَمْرَ يَنْتَهِي.

لَا، لَمْ يَنْتَهِ الْأَمْرُ، إِنَّهُمْ سَيُحْبَسُونَ هُنَاكَ عَلَى جِسْرِ جَهَنَّمَ، لَا نَعْلَمُ كَمْ
سَيُحْبَسُونَ، آلَافَ السِّنِينَ أَمْ مَلَائِينَ السِّنِينَ، الْمُهِمُّ: أَنَّهُمْ سَيُحْبَسُونَ.

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک (١/٥٦٧)، وأخرجه بنحوه أحمد (٥/٣٤٨).

(٢) أخرجه أحمد (٣/٤٤١)، وأبو داود: كتاب الأدب، باب من رد عن مسلم غيبة، رقم

(٤٨٨٣).

واليوم الإنسان لو تعطلت به سيارته، وهي سيارة مكيفة وعلى جسر، لو تعطل ساعة واحدة لتضجر، وقال: كدت أموت، فكيف بالذي يجس على جسر جهنم؟! هؤلاء الذين يرمون المسلمين بشيء يريدون شينهم به؛ فاحذر أن تكون من هذا الصنف.

•• k ••



(٣٧)

وثقل ميزاني

•• k ••

جاء في سنن الترمذي من حديث أنس - رضي الله تعالى عنه - قال: «سألت النبي ﷺ أن يشفع لي يوم القيامة؛ فقال: «إني فاعل»، قال أنس: فقلت: يا رسول الله، فأين أطلبك؟ أي: فأين ألقاك يوم القيامة؟ قال: «أطلبني أول ما تطلبني على الصراط»، قلت: يا رسول الله، فإن لم ألقك على الصراط؟ قال: «فاطلبني عند الميزان»، قلت: فإن لم ألقك عند الميزان؟ قال: «فاطلبني عند الحوض؛ فإني لا أخطئ هذه الثلاث المواطن»^(١).

وحدثنا عن الميزان الذي يزن الله تبارك وتعالى به العباد وأعمالهم وسجلاتهم وأقوالهم؛ فمن ثقل ميزانه فهو من الناجحين المفلحين، كما قال الله سبحانه وتعالى في سورة الأعراف: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الأعراف: ٨-٩].

والميزان دال على عدل الله تبارك وتعالى فمن جاء بالحسنة فسيجدها في ميزان حسنته، ومن جاء بالسئنة فسيجدها في ميزان سيئاته؛ فالله تبارك وتعالى يقول: ﴿وَنَضَعُ

(١) أخرجه أحمد (٣/١٧٨)، والترمذي: كتاب صفة القيامة، باب ما جاء في شأن الصراط، رقم (٢٤٣٣).

الْمَوْزِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ
خَرْدَلٍ أُنْزِنَ بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَسِيبِينَ ﴿٤٧﴾ [الأنبياء: ٤٧].

ومن رام العيشة الهنيئة الرضية فليثقل موازينه بالصالحات، فالله يقول:

﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴿٧﴾﴾ [الفارعة: ٦-٧].

وقد جاء عند الطبراني في معجمه الكبير، من حديث أبي زهير الأنباري
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - إِذَا أَخَذَ مَضْجَعَهُ لِيَنَامَ رَدَّدَ هَذَا
الذِّكْرَ قَائِلًا: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، وَاخْزِ شَيْطَانِي، وَفُكِّ رَهَائِي، وَثَقِّلْ مِيزَانِي،
وَاجْعَلْنِي فِي النَّدِيِّ الْأَعْلَى» (١).

والإيمان بالميزان أساس رئيس في الإيمان بالله تَبَارَكَ وَتَعَالَى فقد جاء في شعب
الإيمان للبيهقي - رحمه الله تعالى - من حديث عمَرَ - رضي الله تعالى عنه -: «أَنَّ النَّبِيَّ
- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - سُئِلَ مَا الْإِيْمَانُ؟ قَالَ: «الْإِيْمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ
وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ، وَتُؤْمِنَ بِالْجَنَّةِ وَالنَّارِ وَالْمِيزَانِ، وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَتُؤْمِنَ
بِالْقَدْرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ» (٢).

وقد بين النبي ﷺ سعة الميزان وحجمه كما جاء عند الحاكم في مستدركه
من حديث سلمان الفارسي - رضي الله تعالى عنه - قال النبي ﷺ: «يُوضَعُ الْمِيزَانُ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَوْ وَزَنَ فِيهِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ لَوَسَّعَتْ، فَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ: يَا رَبُّ،

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الأدب، باب ما يقال عند النوم، رقم (٥٠٥٤)، والطبراني في المعجم

الكبير (٢٢/٢٩٨، رقم ٧٥٨، ٧٥٩)، وفي بعض الروايات عن أبي الأزهر، وكلاهما واحد.

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه رقم (١٧٣)، والبيهقي في الشعب رقم (٢٧٤).

لِمَنْ يَزِنُ هَذَا؟ فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: لِمَنْ شِئْتُ مِنْ خَلْقِي، فَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ: سُبْحَانَكَ! مَا عِبْدَانَا حَقَّ عِبَادَتِكَ»^(١).

والذي يُوزَنُ في هذا الميزان:

أولاً: العبادُ بأجسامهم، لكنَّ العِبْرَةَ ليست بَصَخَامَةِ الجِسمِ ولا بعضلاته ولا بطولِهِ ولا بحجمِهِ، إنَّما العِبْرَةُ بِصِلَاحِ هذه الأَجْسَامِ وفِلاحِ أَصْحَابِهَا.

وقد جاءَ عندَ أَحْمَدَ في مُسْنَدِهِ أَنَّ عبدَ اللَّهِ بنَ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قامَ في يومٍ مِنَ الأَيَّامِ لِيَجْتَنِيَ السَّوَاكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَتَتْ الرِّيحَ فَكَفَّاتُ ثَوْبَهُ، فَظَهَرَ سَاقَاهُ الدَّقِيقَتَانِ؛ فَضَحِكَ القَوْمُ مِنْ دِقَّةِ سَاقَيْهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مِمَّ تَضْحَكُونَ؟» قالوا: مِنْ دِقَّةِ سَاقَيْهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قال: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَهُمَا أَثْقَلُ فِي المِيزَانِ مِنْ أَحَدٍ»^(٢)؛ أي: هاتانِ الساقانِ أَثْقَلُ في المِيزانِ مِنْ جَبَلِ أُحُدٍ.

إذا: يُوزَنُ العِبادُ، لَكِنَّهُمْ يُوزَنُونَ بِصِلَاحِهِمْ وَقُرْبِهِمْ مِنَ اللَّهِ، لا يُوزَنُونَ بِأَجْسَامِهِمْ وَعَضَلَاتِهِمْ وَطُولِ قَامَتِهِمْ، إنَّما تُوزَنُ تلكَ الأَجْسَامُ الصَّالِحَةُ؛ لهذا جاءَ في صحيحِ البُخاريِّ أَنَّ النَبِيَّ ﷺ قالَ: «إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلُ العَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ القِيَامَةِ لا يَزِنُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ»، ثم قالَ ﷺ: أَقْرُؤُوا: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ وَزَنًا﴾ [الكهف: ١٠٥]»^(٣).

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک (٤/٥٨٦)، من حديث سلمان الفارسي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) مسند أحمد (١/٤٢٠).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا يُبَايِعُ رَبَّهُمْ وَلِقَائِهِمْ فُحِطَتْ أَعْمَلُهُمْ﴾، رقم (٤٧٢٩)، ومسلم: كتاب صفة القيامة والجنة والنار رقم (٢٧٨٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أي: ليس لهم قيمة عند الله **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** أجسامٌ عظيمةٌ سميئةٌ لكنَّ العبرة أن يعظّم هذا الفلاحُ والتَّجاحُ والرَّشادُ، لا أن تعظّم هذه العظامُ؛ فالذي يُوزَنُ في الميزانِ العبادُ بصلاحيهم.

ثانيًا: أعمالُ العبادِ، وأعظّمُ أعمالِ العبادِ بعد توحيدِ الله **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** وإفراجه بالعبادة: حُسنُ الخلقِ، ولك أن تتصوّرَ أُمَّةً تَمْتَلِكُ هذا الميراثَ العظيمَ ومع ذلك تعيشُ اليومَ أزمةَ أخلاقٍ على جميعِ المُستوياتِ، تعيشُ أزمةَ أخلاقٍ ويدها هذا الحديثُ العظيمُ، فقد قال رسولُ الله **ﷺ** والحديثُ عندَ الترمذِيِّ في سننِه، من حديثِ أبي الدرداءِ **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**: «**مَا مِنْ شَيْءٍ يُوضَعُ فِي المِيزَانِ أَنْقَلُ مِنْ حُسْنِ الخَلْقِ، وَإِنَّ صَاحِبَ حُسْنِ الخَلْقِ لَيَبْلُغُ بِهِ دَرَجَةَ صَاحِبِ الصَّوْمِ وَالصَّلَاةِ**»^(١).

سُبْحَانَ اللَّهِ! أُمَّةٌ عندها هذا الحديثُ وتتردَّى في هذا الباب!

ثالثًا: ممَّا يُوزَنُ في الميزانِ تلك السِّجَلَاتِ التي يُكْتَبُ فيها حسناتنا وسيئاتنا، وقد جاء في سننِ الترمذِيِّ من حديثِ عبدِ الله بنِ عمرو بنِ العاصِ **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا** في حديثِ البطاقةِ المشهورِ، قال رسولُ الله **ﷺ**: «**إِنَّ اللَّهَ سَيَخْلَصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُؤُوسِ الخَلَائِقِ؛ فَيُنْشَرُ لَهُ تِسْعَةٌ وَتِسْعِينَ سِجِلًّا، كُلُّ سِجِلٍّ مِثْلُ مَدِّ البَصْرِ، فَيَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى**» لهذا العبدِ المسكينِ، وهو يرى هذه السِّجَلَاتِ التي كُلُّهَا سيئاتٌ: «**أَتُنَكِّرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟**» أي: هذا المكتوبُ في السِّجَلَاتِ التي مداها مدُّ البصرِ «**فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: أَظْلَمَكَ كَتَبْتِي الحَافِظُونَ؟ فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ:**

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الأدب، باب في حسن الخلق، رقم (٤٧٩٩)، والترمذي: كتاب البر والصلة، باب ما جاء في حسن الخلق، رقم (٢٠٠٣).

هَلْ لَكَ مِنْ عُدْرٍ؟ فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: فَإِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَاتٍ، فَتُخْرِجُ لَهُ بِطَاقَةً فِيهَا: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولُ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِهَذَا الرَّجُلِ: احْضِرْ وَزَنِّكَ» أي: كُنْ مُتَوَاجِدًا عِنْدَ الْمِيزَانِ «فَيَقُولُ الرَّجُلُ» مُتَسَائِلًا: «مَا تَفْعَلُ هَذِهِ الْبِطَاقَةُ مِنْ تِلْكَ السَّحَلَاتِ؟ فَيَقُولُ: إِنَّهُ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ، فَتُوضَعُ السَّحَلَاتُ فِي كِفَّةٍ، وَتُوضَعُ الْبِطَاقَةُ فِي كِفَّةٍ، قَالَ: فَطَاشَتِ السَّحَلَاتُ وَنُقِلَتِ الْبِطَاقَةُ، وَلَا يَنْقُلُ مَعَ اسْمِ اللَّهِ شَيْءٌ»^(١).

فكم هو موفق هذا الذي يعيش على لا إله إلا الله، ويحيا ويموت عليها!!

رابعًا: مِمَّا يُوزَنُ فِي هَذَا الْمِيزَانِ: أَقْوَالُ الْعِبَادِ، وَالتَّيُّ الْعَاقِلُ هُوَ الَّذِي لَا يَقُولُ إِلَّا قَوْلًا تَثْقُلُ بِهِ مَوَازِينُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَعْظَمُ مَا يَقُولُهُ الْعِبَادُ وَتُرَدُّهُ الْأَلْسِنَةُ ذِكْرُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَالحديثُ عند البُخَارِيِّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ: «كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ»^(٢).

وَجَاءَ عِنْدَ ابْنِ حِبَّانَ فِي صَحِيحِهِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَلَمَةَ رَاعِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «بَخٍ بَخٍ - وَأَشَارَ بِيَدِهِ - لِحُمْسٍ مَا أَنْقَلَهُنَّ فِي الْمِيزَانِ:

(١) أخرجه أحمد (٢/٢١٣)، والترمذي: كتاب الإيثار، باب ما جاء فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله، رقم (٢٦٣٩)، وابن ماجه: كتاب الزهد، باب ما يرجى من رحمة الله يوم القيامة، رقم (٤٣٠٠).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الأيمان والنذور، باب إذا قال: والله لا أتكلم اليوم فصلً، رقم (٦٦٨٢)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء، رقم (٢٦٩٤).

سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، وَالْوَلَدُ الصَّالِحُ يُتَوَفَّى لِلْمَرْءِ
الْمُسْلِمِ يَحْتَسِبُهُ»^(١).

فَأَثَقَلُ مَا يَكُونُ فِي الْمِيزَانِ فِي بَابِ أَقْوَالِ الْعِبَادِ: أَنْ يُرَدَّدَ الْعَبْدُ ذَلِكَ ذَاكِرًا لِلَّهِ
تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

•• k ••

(١) صحيح ابن حبان رقم (٨٣٣)، وأخرجه أحمد (٤/٢٣٧)، وقال: عن مولى لرسول الله ﷺ، ولم
يسمه.



(٣٨)

من صفات المتقين

•• k ••

الغاية العظمى، والمقصود الأسمى من فرضية الصيام هي تحقيق التقوى، فقد قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣].

ويبين الحق سبحانه وتعالى أن هذه التقوى هي وصيته سبحانه وتعالى للأولين والآخرين، فقال الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ [النساء: ١٣١].

وهي وصية رسوله ﷺ فقد صحح الخبر في سنن الترمذي، أن النبي ﷺ قال في حديث أبي ذرٍّ رضي الله عنه: «اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالف الناس بخلق حسن»^(١).

وجعل الله تبارك وتعالى لأهل التقوى المنزلة العليا، فالله تبارك وتعالى مع الأتقياء؛ إذ يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٩٤].

وهو يجب الأتقياء؛ إذ يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ٧٦].

(١) أخرجه أحمد (٥/١٥٣)، والترمذي: كتاب البر والصلة، باب ما جاء في معاشره الناس، رقم (١٩٨٧).

وهو يتقبل من الأتقياء؛ لقوله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾﴾**

[المائدة: ٢٧].

وجعل العاقبة الحسنى للمتقين فقال **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا**

لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فُسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [القصص: ٨٣].

وأى عاقبة أحسن من الفوز بالجنة، قال الحق **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي**

مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُوبٍ ﴿٥٢﴾﴾ [الدخان: ٥١-٥٢].

وقال - سبحانه -: **﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهْرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ**

مُقَدِّرٍ ﴿٥٥﴾﴾ [القمر: ٥٤-٥٥].

وقد يتساءل الإنسان بينه وبين نفسه: هذا الصيام الذي أصومه هل أثر في

حتى أكون من المتقين؟

والجواب: جعل الله **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** لكل شيء صفة، ومن صفات الأتقياء الفائزين

بأعلى الجنان:

الصفة الأولى: أنهم يؤمنون بالغيب، هذا الغيب الذي أخبر الله تعالى به

وأخبر به رسوله **ﷺ** لا نراه، فهو ليس بالشيء المحسوس، ولكن التقي يؤمن

بالغيب، قال الحق **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** في أول سور القرآن الكريم بعد الفاتحة: **﴿الْم ﴿١﴾**

ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴿٣﴾﴾ [البقرة: ١-٣].

وقال ابن القيم - رحمه الله تعالى -: الإيمان بالغيب هو الإيمان النافع^(١).

(١) مفتاح دار السعادة لابن القيم (١/٧).

وقال في موضع آخر من كتبه - رحمه الله تعالى -: والإيمان بالغيب أجل المقامات على الإطلاق^(١).

والإيمان بالغيب هو تلك الصخرة التي تتكسر عليها موجة الإحاد الذي ينتشر اليوم في أوساط الناس، قال الحق - سبحانه -: ﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ هَذَا مَا نُوعِدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ۝٣٣ مَن خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ۝٣٤ أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ۝٣٥ لَّهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ۝٣٥ ﴾ [ق: ٣١-٣٥].

فأنت أيها الموحّد، التقي، حينما تؤمن بالغيب تؤمن بما أخبر به النبي ﷺ حين قال: «وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصِّيَامِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الرِّيَّانِ»^(٢).

إنك لم تر باب الريان، ولم تتحسسه بيدك، ولكن رأيت به عين عين قلبك، وتحسسته بشغاف قلبك؛ فأمنت بالغيب فصمت لله بتبغى باب الريان.

وقد جاء في مسند أحمد أن النبي ﷺ أخبر عن أمر غيبي، لكنه حرّك الأتقياء وحفز جوارحهم، فقال ﷺ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ غُرْفَةً يُرَى ظَاهِرُهَا مِنْ بَاطِنِهَا، وَبَاطِنُهَا مِنْ ظَاهِرِهَا، أَعَدَّهَا اللَّهُ لِمَنْ أَطْعَمَ الطَّعَامَ، وَأَلَانَ الْكَلَامَ، وَتَابَعَ الصِّيَامَ، وَصَلَّى وَالنَّاسُ نِيَامٌ»^(٣).

فإذا صمت واستشعرت هذا الأمر الغيبي فأمنت به كانت فيك صفة الأتقياء.

(١) طريق الهجرتين لابن القيم (ص: ٢٩٢).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الصوم، باب الريان للصائمين، رقم (١٨٩٧)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب من جمع الصدقة وأعمال البر، رقم (١٠٢٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه أحمد (١٧٣/٢)، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

الصِّفَةُ الثَّانِيَةُ: يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ، قَالَ الْحَقُّ **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:**
﴿هُدَى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ [البقرة: ٣، ٢] وَلَا حَظَّ فِي الْإِسْلَامِ لِمَنْ تَرَكَ
 الصَّلَاةَ. قَالَ هَذِهِ الْكَلِمَةُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ -رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ- بَعْدَ أَنْ جُرِحَ
 وَدِمَاؤُهُ تَسِيلُ مِنْ جَسَدِهِ، قِيلَ لَهُ: قُمْ إِلَى صَلَاةِ الْفَجْرِ، فَقَامَ إِلَى صَلَاةِ الْفَجْرِ وَدَمُهُ
 يَتْعَبُ مِنْ جَسَدِهِ، وَهُوَ يَقُولُ: لَا حَظَّ فِي الْإِسْلَامِ لِمَنْ تَرَكَ الصَّلَاةَ^(١).

فَمَاذَا يَقُولُ الصَّائِمُ الَّذِي يُصَلِّي الْفَجْرَ ثُمَّ يَنَامُ وَلَا يُصَلِّي ظُهْرًا وَلَا عَصْرًا وَلَا
 مَغْرِبًا إِلَّا بَعْدَ خُرُوجِ الْوَقْتِ وَلَوْ لَا الْإِفْطَارُ مَا قَامَ؟!

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: **﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾﴾**
 [الماعون: ٤-٥]؛ أَي: يُؤَخِّرُونَهَا عَن وَقْتِهَا، يُصَلِّي الظُّهْرَ وَقْتَ الْعَصْرِ، وَيُصَلِّي الْعَصْرَ
 وَقْتَ الْمَغْرِبِ.

قَالَ عَطَاءُ بْنُ دِينَارٍ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي قَالَ: **﴿عَن صَلَاتِهِمْ﴾**،
 وَمَا قَالَ: «فِي صَلَاتِهِمْ»^(٢).

وَقَالَ اللَّهُ -سُبْحَانَهُ-: **﴿خَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا ﴿٥٩﴾﴾** [مريم: ٥٩].

قَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: فَإِنَّهُمْ لَمْ يَتْرُكُوا أَدَاءَهَا وَلَكِنَّهُمْ
 أَضَاعُوا الْوَقْتَ^(٣).

(١) أَخْرَجَهُ مَالِكٌ فِي الْمَوْطَأِ (١/٣٩-٤٠، رَقْم ٥١)، وَعَبْدُ الرَّزَاقِ فِي الْمَصْنَفِ رَقْم (٥٨٠)، وَابْنُ
 أَبِي شَيْبَةَ فِي الْمَصْنَفِ رَقْم (٣٨٢٢٢).

(٢) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ فِي التَّفْسِيرِ (٢٤/٦٦٤)، وَانظُرْ تَفْسِيرَ ابْنِ كَثِيرٍ (٨/٤٩٣).

(٣) أَخْرَجَهُ ابْنُ عَسَاكِرٍ فِي تَارِيخِ دِمَشْقَ (٧/٢٧٧)، وَانظُرْ: تَفْسِيرَ ابْنِ كَثِيرٍ (٥/٢٤٣).

وقد جاء في الحديث أن محجناً - رضي الله تعالى عنه - جاء إلى النبي ﷺ وجلس في مجلسه، فلما أقيمت الصلاة قاموا، وبقي محجناً جالساً، فصلّى النبي ﷺ ثم رجع من مُصَلَّاهُ فإذا محجناً لا يزال جالساً، فقال له: «مَا مَنَعَكَ أَلَّا تُصَلِّيَ مَعَنَا أَلَسْتَ بِرَجُلٍ مُسْلِمٍ؟» قال: بلى، ولكنني صليتُ في أهلي قبل أن آتيك يا رسول الله، قال: «إِذَا جِئْتَ فَصَلِّ مَعَ النَّاسِ وَإِنْ كُنْتَ قَدْ صَلَّيْتَ»^(١)، حتى لا يُشارُ إليك بالريبةِ وسوء الظنِّ.

ويا سَعَدَ مَنْ حَافِظَ عَلَى الصَّلَاةِ!

فقد قال رسول الله ﷺ كما جاء في مُسْنَدِ أَحْمَدَ مِنْ حَدِيثِ حَنْظَلَةَ الْأُسَيْدِيِّ - رضي الله تعالى عنه -: «مَنْ حَافِظَ عَلَى الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ، عَلَى وَضُوءِهَا، وَمَوَاقِيَتِهَا، وَرُكُوعِهَا، وَسُجُودِهَا، يَرَاهَا حَقًّا لِلَّهِ عَلَيْهِ حُرْمٌ عَلَى النَّارِ»^(٢).

لم يَذْكُرِ التَّرَاوِيحَ! مَعَ الْأَسْفِ الشَّدِيدِ يَحْرِصُ بَعْضُ النَّاسِ عَلَى صَلَاةِ التَّرَاوِيحِ وَهِيَ سُنَّةٌ، وَلَا يَحْرِصُ عَلَى صَلَاةِ الْفَجْرِ فِي جَمَاعَةٍ.

الصفة الثالثة: كثرة الاستغفار، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ لَهُ وَلَا يَلْمِ اللَّهُ لَكُمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

بل قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠].

(١) أخرجه أحمد (٣٤ / ٤)، والنسائي: كتاب الإمامة، باب إعادة الصلاة مع الجماعة، رقم (٨٥٧)، من حديث أبي بسر محجن الدثلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) أخرجه أحمد (٢٦٧ / ٤).

فإن استغفرت ستجد الله غفوراً رحيمًا، فما أعظم الاستغفار! هذا الذي قال فيه رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ مِنْكَ وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ، لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ، لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً»^(١).

وقد ألمَّ أحد الأعراب الذنوب، وعرف عظيم الاستغفار فذهب وتعلق بأستار الكعبة، وبدأ يناجي ربه تبارك وتعالى فقال: اللَّهُمَّ إِنَّ اسْتَغْفَارِي مَعَ إِصْرَارِي لُوْمٌ، وَإِنَّ تَرْكِي اسْتَغْفَارَ مَعَ عِلْمِي بِسَعَةِ عَفْوِكَ عَجْزٌ، فَكَمْ تَتَحَبَّبُ إِلَيَّ بِالنِّعَمِ مَعَ غِنَاكَ عَنِّي! وَكَمْ أَتَبَعُّصُ إِلَيْكَ بِالْمَعَاصِي مَعَ فَقْرِي إِلَيْكَ! يَا مَنْ إِذَا وَعَدَ وَفَى، يَا مَنْ إِذَا تَوَعَّدَ تَجَاوَزَ وَعَفَا، أَدْخِلْ عَظِيمَ جُرْمِي فِي عَظِيمِ عَفْوِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ^(٢).

إنها لذة الاستغفار، فمن أعظم صفات الأتقياء: أن لهم لساناً مستغفراً على الدوام.

•• k ••

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الدعوات، باب في فضل التوبة والاستغفار، رقم (٣٥٤٠)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) انظر: إحياء علوم الدين للغزالي (٣١٣/١)، الأذكار للنووي (ص: ٤٠٥).



(٣٩)

لماذا لعينوا؟

• • k • •

اللَّعْنُ: هو الدعاء بالطرد والإبعاد من رحمة الله، واللَّعْنُ مُحَرَّمٌ فِي شَرِيْعَتِنَا، وجاء التأكيد الشديد على ذلك في أحاديث النبي ﷺ وهو ينهى عن اللعْن، والأحاديث في ذلك كثيرة: منها ما جاء في مُسْنَدِ أَحْمَدَ مِنْ حَدِيثِ ثَابِتِ بْنِ الضَّحَّاكِ قَالَ ﷺ: «لَعْنُ الْمُؤْمِنِ كَقَتْلِهِ»^(١) أي: في الإثم.

وفي صحيح البخاري رواية قريبة من ذلك، قال فيها رسول الله ﷺ: «وَمَنْ لَعَنَ مُؤْمِنًا فَهُوَ كَقَتْلِهِ»^(٢).

وفي سنن أبي داود من حديث سمرّة بن جندب -رضي الله تعالى عنه- قال رسول الله ﷺ: «لَا تَلَاعَنُوا بِلَعْنَةِ اللَّهِ، وَلَا بِالنَّارِ، وَلَا بِالْغَضَبِ»^(٣).

وفي حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ والحديث عند الترمذي في سننه قال رسول الله ﷺ: «لَيْسَ الْمُؤْمِنُ بِالطَّعَانِ، وَلَا اللَّعَانِ، وَلَا الْفَاحِشِ، وَلَا الْبِدْيِءِ»^(٤).

(١) أخرجه أحمد (٣٣/٤)، والبخاري: كتاب الأدب، باب من كفر أخاه بغير تأويل، رقم (٦١٠٥)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه، رقم (١١٠).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب ما ينهى من السباب واللعن، رقم (٦٠٤٧)، من حديث ثابت بن الضحاك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه أحمد (١٥/٥)، وأبو داود: كتاب الأدب، باب النهي عن اللعن، رقم (٤٩٠٦)، والترمذي: كتاب البر والصلة، باب ما جاء في اللعنة، رقم (١٩٧٦).

(٤) أخرجه أحمد (٤٠٥/١)، والترمذي: كتاب البر والصلة، باب ما جاء في اللعنة، رقم (١٩٧٧).

وكذا في صحيح مسلم قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّعَّانِينَ لَا يَكُونُونَ شُهَدَاءَ، وَلَا شُفَعَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١).

والأحاديثُ في ذلك كثيرةٌ جداً.

ومع التشديد في النهي عن اللعن إلا أن النبي ﷺ لعن أقواماً، ولعن أعمالاً، وما لعنه النبي ﷺ فهو كبيرةٌ من كبائر الذنوب؛ وذلك لعظم ما ارتكبه، ولعظم هذه الآثام التي هي من كبائر الذنوب.

وما لعنوا على لسان النبي ﷺ إلا لأئمتهم خرجوا عن الجادة، فانحرفوا عن فطرة الله تبارك وتعالى وخرجوا عن الصراط المستقيم، وإليك بعض هذه الأصناف التي لعنت على لسان النبي ﷺ:

الصورة الأولى: مَنْ وَقَعَ فِي الشَّرْكِ، أو فِي صُورَةٍ مِنْ صُورِهِ، وَخُذَ مِثَالاً وَاحِداً: جَاءَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ عَلِيٍّ -رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ- أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لَعَنَ اللَّهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللَّهِ»^(٢).

هذا الذي خَرَجَ عَنِ الْجَادَةِ فَصَرَفَ مَا يَنْبَغِي أَنْ يُصَرَفَ لِلَّهِ إِلَى غَيْرِ اللَّهِ، هَذَا الَّذِي خَرَجَ عَنِ صِرَاطِ اللَّهِ الْمُسْتَقِيمِ، اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢].

فَجَعَلَ هَذَا النُّسُكَ لِغَيْرِهِ فَذَبَحَهَا لِشَجَرَةٍ يَتَقَرَّبُ بِهَا إِلَيْهَا، أَوْ ذَبَحَ عَلَى أَسَاسِ

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة، باب النهي عن لعن الدواب وغيرها، رقم (٨٦/٢٥٩٨)، من حديث أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الأضاحي، باب تحريم الذبح لغير الله تعالى ولعن فاعله، رقم (١٩٧٨).

البيْت؛ اتِّقَاءَ شَرِّ سُكَّانِهِ، أَوْ ذَبْحَ عَلَى إِطَارَاتِ سَيَّارَةٍ جَدِيدَةٍ اشْتَرَاهَا، كُلُّ ذَلِكَ مَلْعُونٌ صَاحِبُهُ، وَهُوَ صُورَةٌ مِنْ صُورِ الشُّرُكِ؛ لِأَنَّهُ وَقَعَ فِيهَا قَالَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «لَعَنَ اللَّهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللَّهِ» هَذِهِ صُورَةٌ وَاحِدَةٌ.

الصُّورَةُ الثَّانِيَةُ: أُولَئِكَ أَيْضًا الَّذِينَ خَرَجُوا عَنِ الْجَادَّةِ، وَأَنْحَرَفُوا عَنِ صِرَاطِ اللَّهِ الْمُسْتَقِيمِ، الَّذِينَ سَبُّوا أَصْحَابَ النَّبِيِّ ﷺ أُولَئِكَ الْأَقْوَامُ الَّذِينَ أَنْحَرَفَتْ عَقَائِدُهُمْ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عِنْدَ الطَّبْرَانِيِّ فِي مُعْجَمِهِ الْكَبِيرِ: «مَنْ سَبَّ أَصْحَابِي؛ فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ»^(١).

فَهُؤُلَاءِ أَيْضًا مَلْعُونُونَ كَلَّمَا أَصْبَحُوا وَأَمْسَوْا بِهَذَا السَّبِّ لِأَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ فَإِنَّهُمْ يُصْبِحُونَ وَيُمْسُونَ فِي لَعْنَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ.

الصُّورَةُ الثَّلَاثَةُ: لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صَاحِبَهَا، جَاءَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: آكِلَ الرَّبَا، وَمُوكِلَهُ، وَكَاتِبَهُ، وَشَاهِدِيهِ، وَقَالَ: هُمْ سَوَاءٌ»^(٢).

فَهُؤُلَاءِ الَّذِينَ يَعِيشُونَ فِي مُجْتَمَعِ الرَّبَا أَكْلًا وَكِتَابَةً وَشَهَادَةً وَتَعَاطِيًا إِنَّمَا يَعِيشُونَ فِي دَائِرَةِ هَذَا اللَّعْنِ. أَي: يُبْعَدُونَ عَنِ رَحْمَةِ اللَّهِ، فَتَصَوَّرُ هَذَا الْمُجْتَمَعُ يَعِيشُ بَعِيدًا عَنِ رَحْمَةِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

الصُّورَةُ الرَّابِعَةُ: لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ- مُجْتَمَعَ الْحَمْرِ، هَذَا الْمُجْتَمَعُ الَّذِي لَمْ يُوجَدْ فِي أُمَّةٍ مِنَ الْأُمَمِ إِلَّا آذَنَ بِهَلَاكِهَا، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

(١) المعجم الكبير للطبراني (١٢/١٤٢، رقم ١٢٧٠٩).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب المساقاة، باب لعن آكل الربا، رقم (١٥٩٨).

من حديث ابن عمر رضي الله عنهما عند أبي داود في سننه: «لَعَنَ اللَّهُ الْخَمْرَ، وَشَارِبَهَا، وَسَاقِيَهَا، وَبَائِعَهَا، وَمُبْتَاعَهَا، وَعَاصِرَهَا، وَمُعْتَصِرَهَا، وَحَامِلَهَا، وَالْمَحْمُولَةَ إِلَيْهِ»^(١).

فكُلُّ هذا المُجْتَمِع الذي يدورُ في هذا الفلَك هو مَلْعُونٌ على لسانِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم نعم هو يُصْبِحُ وَيُمْسِي في أولاده، لكنَّهُ يُصْبِحُ وَيُمْسِي في لَعْنَةِ اللهِ، قد لا يكونُ شَارِبًا لِلْخَمْرِ، وقد لا يكونُ بَائِعًا، ولا شَارِبًا، ولكنَّهُ قد يكونُ مُجَالِسًا لِأَهْلِ الْخَمْرِ، أو سَاقِيًا لِأَهْلِ الْخَمْرِ، أو مُعِينًا لِأَهْلِ الْخَمْرِ، أو مُصَرِّفًا لِأُمُورِ أَهْلِ الْخَمْرِ؛ فهو مَلْعُونٌ على لسانِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم.

الصُّورَةُ الْخَامِسَةُ: ما ابْتَلَيْتَ بِهِ مُجْتَمَعَاتِنَا، وهو مُجْتَمَعُ الرِّشْوَةِ أَيضًا، فقد جاءَ في سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ -رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمَا- أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «لَعَنَ اللهُ الرَّاشِيَّ وَالْمُرْتَشِيَّ»^(٢).

الرَّاشِي: الذي يَدْفَعُ الرِّشْوَةَ، وَالْمُرْتَشِي: الذي حَبَسَ مُعَامَلَاتِ النَّاسِ فِي أَدْرَاجِ مَكْتَبِهِ؛ فلا يُمَرَّرُ هَذِهِ الْمُعَامَلَاتِ إِلَّا بِالرِّشْوَةِ تَصْرِيحًا وَتَلْمِيحًا، حَتَّى عَطَّلَ مُعَامَلَاتِ النَّاسِ حَتَّى يَدْفَعُوا هَذِهِ الرِّشْوَةَ، فَيَقَعُ هُوَ وَهُمْ فِي لَعْنَةِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

الصُّورَةُ السَّادِسَةُ: الذي يَلْعَنُ وَالِدِيَهُ هُوَ مَلْعُونٌ أَيضًا على لسانِ النبي صلى الله عليه وسلم فقد جاءَ في صحيحِ مُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ -رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ- أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم

- (١) أخرجه أحمد (٩٧/٢)، وأبو داود: كتاب الأشربة، باب العنب يعصر للخمر، رقم (٣٦٧٤)، وابن ماجه: كتاب الأشربة، باب لعنت الخمر على عشرة أوجه، رقم (٣٣٨٠).
- (٢) أخرجه أحمد (١٦٤/٢)، وأبو داود: كتاب الأفضية، باب في كراهية الرشوة، رقم (٣٥٨٠)، والترمذي: كتاب الأحكام، باب ما جاء في الراشي والمرتشي في الحكم، رقم (١٣٣٧)، وابن ماجه: كتاب الأحكام، باب التغليظ في الحيف والرشوة، رقم (٢٣١٣).

قال: «ولعن الله من لعن والديه»^(١).

لأن لعن الوالدين من أكبر كبائر الذنوب، كما جاء في صحيح البخاري من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن من أكبر الكبائر: أن يلعن الرجل والديه»، قيل: يا رسول الله، وكيف يلعن الرجل والديه؟ قال: «يسب الرجل أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه»^(٢).

فالذي يسب آباء الرجال وأمهاتهم فيتعرض والديه للسب هو في الحقيقة كأنها يلعن والديه.

الصورة السابعة: أولئك الذين يعتدون في وطئ نسائهم هم ملعونون على لسان النبي صلى الله عليه وسلم فقد جاء في سنن أبي داود أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ملعون من أتى امرأته في دبرها»^(٣) لأن هذا ذنب عظيم.

وجاء في سنن الترمذي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من أتى حائضاً، أو امرأة في دبرها، أو كاهناً؛ فقد كفر بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم»^(٤).

أرأيت خطورة الذنب؟

- (١) أخرجه مسلم: كتاب الأضاحي، باب تحريم الذبح لغير الله تعالى ولعن فاعله، رقم (١٩٧٨).
- (٢) أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب لا يسب الرجل والديه، رقم (٥٩٧٣)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها، رقم (٩٠).
- (٣) أخرجه أحمد (٤٤٤/٢)، وأبو داود: كتاب النكاح، باب في جامع النكاح، رقم (٢١٦٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
- (٤) أخرجه أحمد (٤٧٦/٢)، وأبو داود: كتاب الطب، باب في الكاهن، رقم (٣٩٠٤)، والترمذي: كتاب الطهارة، باب ما جاء في كراهية إتيان الحائض، رقم (١٣٥)، وابن ماجه: كتاب الطهارة، باب النهي عن إتيان الحائض، رقم (٦٣٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وقد يَسْتَعْظِمُ بَعْضُنَا ذَنْبًا مِنْ هَذِهِ الذُّنُوبِ الَّتِي تَقَدَّمْتُ، وَلَكِنَّهُ قَدْ يَقَعُ فِي غَيْرِهِ؛ فَتُصِيبُهُ اللَّعْنَةُ مِنْ جَانِبٍ آخَرَ.

الصُّورَةُ الثَّامِنَةُ: جَاءَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَعَنَ اللَّهُ: الْوَاصِلَةَ وَالْمُسْتَوْصِلَةَ وَالْوَاشِمَةَ وَالْمُسْتَوْشِمَةَ»^(١)، فَالْمَرْأَةُ الَّتِي تَزِيدُ فِي شَعْرِ رَأْسِهَا شَعْرًا؛ تُصِيبُهَا لَعْنَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

وَقَالَ سَعِيدُ الْمَقْبُرِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ - وَالْحَدِيثُ عِنْدَ النَّسَائِيِّ -: رَأَيْتُ مُعَاوِيَةَ بْنَ أَبِي سُفْيَانَ عَلَى الْمِنْبَرِ وَمَعَهُ فِي يَدِهِ كُبَّةٌ مِنْ كُتُبِ النِّسَاءِ مِنْ شَعْرٍ، وَهُوَ يَقُولُ: مَا بَأَلُ الْمُسْلِمَاتِ يَصْنَعْنَ مِثْلَ هَذَا! إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: « أَيُّمَا امْرَأَةٍ زَادَتْ فِي رَأْسِهَا شَعْرًا لَيْسَ مِنْهُ فَإِنَّهُ زُورٌ تَزِيدُ فِيهِ »^(٢).

الصُّورَةُ التَّاسِعَةُ: صُورَةُ ذَلِكَ الْإِنْسَانِ الَّذِي نَسَبَ نَفْسَهُ لِغَيْرِ أَبِيهِ، أَوْ الرَّجُلِ الَّذِي نَسَبَ ابْنًا لَهُ لَيْسَ مِنْ أَبْنَائِهِ لِحَاجَةٍ فِي نَفْسِهِ، أَوْ ذَلِكَ الْإِنْسَانِ الَّذِي انْتَسَبَ إِلَى عَائِلَةٍ لَيْسَ مِنْهَا وَخَلَعَ عَلَى نَفْسِهِ لِقَبًا لَيْسَ مِنْهُمْ، أَوْ انْتَمَى إِلَى قَبِيلَةٍ لَيْسَ مِنْهَا.

كُلُّ هَذِهِ الصُّوَرِ لَعْنَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَدْ جَاءَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ عَلِيٍّ - رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ - أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «وَمَنْ ادَّعَى إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ، أَوْ انْتَمَى

(١) أخرجه البخاري: كتاب اللباس، باب الوصل في الشعر، رقم (٥٩٣٧)، ومسلم: كتاب اللباس والزينة، باب تحريم فعل الواصلة والمستوصلة، رقم (٢١٢٤)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه النسائي: كتاب الزينة، باب وصل الشعر بالخرق، رقم (٥٠٩٣). وأخرجه بنحوه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، رقم (٣٤٨٨)، ومسلم: كتاب، باب تحريم فعل الواصلة والمستوصلة، رقم (٢١٢٧).

إِلَى غَيْرِ مَوَالِيهِ؛ فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَرْفًا وَلَا عَدْلًا»^(١).

يقول: هذا ابني ويُسَجَّلُهُ في الجوازِ أنه ابنُهُ وليس من أبنائه؛ حتى يَخْدَعَ إحدى المؤسَّساتِ ويُدْخِلَهُ بَلَدًا أو يُخْرِجَهُ مِنْ بَلَدٍ، أو لحاجةٍ من حوائِجِ التي هي في نَفْسِهِ، أو يَنْسُبُ نَفْسَهُ إلى قبيلةٍ ليس منها.

وهذا مُلاحِظٌ في مُجْتَمَعِنَا اليَوْمَ في السَّنَوَاتِ العَشْرِ الأَخِيرَةِ، فُتِحَ هذا البابُ على مِصْرَاعِيهِ، فما عليك إلا أن تَخْتَارَ أَيَّ قَبِيلَةٍ فَتَنْسِبَ نَفْسَكَ إِلَيْهَا فَيُصْبِحَ الرَّجُلُ هذا من عائلةٍ كذا، وهذا من عائلةٍ كذا، والمسؤولُ الذي فتح هذا البابَ يَشْمَلُهُ هذا اللَّعْنُ، والشاهدُ الذي شهدَ شَهَادَةَ الزُّورِ يَشْمَلُهُ هذا اللَّعْنُ، وقد قالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ كما جاءَ في سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ: «مَنْ ادَّعَى إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ، أَوْ انْتَمَى إِلَى غَيْرِ مَوَالِيهِ؛ فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ مُتَتَابِعَةً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»^(٢).

فالأمرُ ليس سهلاً، يقولُ إنسانٌ: أنا من قبيلةٍ كذا، وهو ليس من قبيلةٍ كذا، ويَخْلَعُ على نَفْسِهِ ألقاباً ليست له، ويُدرِجُ نَفْسَهُ في عائلةٍ ليس منها؛ فعليه لَعْنَةُ اللَّهِ المُتَتَابِعَةُ إلى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، مَنْ يَقْبَلُ على نَفْسِهِ ذلك؟!!

• • k • •

(١) أخرجه البخاري: كتاب فضائل المدينة، باب حرم المدينة، رقم (١٨٧٠)، ومسلم: كتاب الحج، باب فضل المدينة، رقم (١٣٧٠).

(٢) أخرجه أبو داود: كتاب الأدب، باب في الرجل ينتمي إلى غير مواليه، رقم (٥١١٥)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.



• • k • •

قال الإمام أبو حامد الغزالي - رحمه الله تعالى - في كتابه إحياء علوم الدين: واعلم أن الألف ثمرة حسن الخلق، والتفرق ثمرة سوء الخلق، وحسن الخلق يوجب التحاب والتألف والتوافق، وسوء الخلق يثمر التباغض والتحاسد والتدابير^(١). انتهى كلامه رحمه الله.

إننا نرى في هذه الجملة - التي تقدمت - بيان أهمية الألف، هذا الخلق الكريم، والقيمة الغالية، الألف، والعنصر المهم في تماسك المجتمعات، تلك النعمة التي أنعم الله تبارك وتعالى بها على عباده؛ إذ يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا^٤ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ^٥﴾ [آل عمران: ١٠٣] فالوُلف هو الله تبارك وتعالى: ﴿فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا^٦﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وفي موضع آخر في سورة الأنفال قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِبَصِيرَةٍ وَالْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ^٧ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ^٨ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ^٩﴾ [الأنفال: ٦٢-٦٣].

(١) إحياء علوم الدين للغزالي (٢/١٥٧).

فأن تكون مألوفاً طيب المعشَرِ هذا أمرٌ مطلوبٌ، وهذه صفةٌ للمؤمنين، أن يألفَكَ غَيْرَكَ، وأن تألفَ أنتَ غَيْرَكَ، وقد جاء في المعجم الأوسط للطبراني من حديث جابر - رضي الله تعالى عنه - عن النبي ﷺ أنه قال: «المؤمنُ يألفُ ويؤلفُ ولا خَيْرَ في مَنْ لا يألفُ ولا يؤلفُ وخَيْرُهُمْ أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ»^(١).

الشاهد أن المؤمن يألفُ ويؤلفُ، طيب المعشَرِ مع غيره، وتطيب نفسه مع الآخرين، كما قال عليه السلام: «المؤمنون هينون لينون كالجمل الأنف إن قيد انقاد، وإن أبيع استناخ على صخرة»^(٢).

الجمل بحجمه الكبير يقوده الطفل الصغير؛ لأنه يألفُ ويؤلفُ، يشبه رسول الله ﷺ المؤمن بهذا الجمل.

وقال أيضاً رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَحَبَّكُمْ إِلَيَّ أَحْسَنُكُمْ أَخْلَاقًا، الْمُوْطَّؤُونَ أَكْنَافًا، الَّذِينَ يَأْلِفُونَ وَيُؤْلَفُونَ، وَأَبْغَضُكُمْ إِلَيَّ اللَّهُ الْمَشَاؤُونَ بِالنَّمِيمَةِ، الْمَفْرُقُونَ بَيْنَ الْأَحَبَّةِ، الْمُتَلْتَمِسُونَ لِلدُّرَاءِ الْعَنَتِ»^(٣).

وبعض الناس صعب المراس لا يألفُ ولا يؤلفُ، ولا يحبُّ ولا يُحبُّ، تبغضُهُ أقربُ القلوبِ إليه بسببِ أنَّه لم يتخلَّق بهذا الخلقِ، ومن أحبَّ شخصاً أحبه ذلك الشخصُ.

(١) المعجم الأوسط للطبراني رقم (٥٧٨٧).

(٢) أخرجه ابن المبارك في الزهد (١/ ١٣٠)، رقم (٣٨٧)، وأحمد في الزهد رقم (٢٢٨٤)، والبيهقي في الشعب رقم (٧٧٧٧)، عن مكحول مرسلاً.

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط رقم (٧٦٩٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وقد جاء أن ابن عباس - رضي الله تعالى عنهما - مشى يوماً من الأيام فقال لمن معه: هذا يُجَنَّبِي. قالوا: وكيف عرفتَ يا ابنَ عباسٍ؟ قال: لِأَنِّي أُحِبُّهُ^(١).

و«الأرواحُ جنودٌ مجنَّدةٌ؛ فما تعرَّفتَ منها اتَّكَلَفَ، وما تناكرَ منها اختلفَ» هكذا أخبرَ رسولُ اللهِ ﷺ ففي صحيحِ مُسلمٍ قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «النَّاسُ مَعَادِنُ كَمَعَادِنِ الفِضَّةِ وَالذَّهَبِ، خِيَارُهُمْ فِي الجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الإسلامِ إِذَا فَتُّهُوا، والأرواحُ جنودٌ مجنَّدةٌ؛ فَمَا تعرَّفتَ مِنْهَا اتَّكَلَفَ وَمَا تناكرَ مِنْهَا اختلفَ»^(٢).

وهناك وسائلٌ لا بُدَّ من توافرها حتى تكونَ مألوفًا، وتكسبَ قلوبَ الآخرين، منها:

الوسيلةُ الأولى: إِنَّكَ إِذْ حَقَّقْتَ الإِيمَانَ الصَّادِقَ وَالْعَمَلَ الصَّالِحَ؛ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَكْسِبَ مَوَدَّةَ الآخِرِينَ، أَخْبَرَ بِذَلِكَ خَالِقُ هَذِهِ الْقُلُوبِ، اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فَقَدْ قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي سُورَةِ مَرْيَمَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦].

قال ابنُ كثيرٍ - رحمه اللهُ تعالى - في تفسيرِ هذه الآية: يَغْرِسُ اللهُ فِي قُلُوبِ عِبَادِهِ الصَّالِحِينَ مَوَدَّةً، وَهَذَا أَمْرٌ لَا بُدَّ مِنْهُ، وَلَا مَحِيدَ عَنْهُ^(٣).

وقال مُحَمَّدُ بْنُ وَاسِعٍ - رحمه اللهُ تعالى - وَمَا أَجْمَلَ مَا قَالَ! قَالَ: وَهِيَ أَشْبَهُ بِالْقَاعِدَةِ: إِذَا أَقْبَلَ العَبْدُ بِقَلْبِهِ إِلَى اللهِ أَقْبَلَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِلَيْهِ بِقُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ^(٤).

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في الإخوان رقم (٧٥).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة، باب الأرواح جنود مجنَّدة، رقم (١٦٠ / ٢٦٣٨).

(٣) تفسير ابن كثير (٥ / ٢٦٧).

(٤) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٢ / ٣٤٥)، والبيهقي في الزهد رقم (٧٩٨).

وهذا لا يُسْتَعْرَبُ، وكيف يُسْتَعْرَبُ ونحنُ نقرأ في صحيحِ مُسْلِمٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا دَعَا جَبْرِيْلَ فَقَالَ: إِنِّي أَحَبُّ فُلَانًا فَأَحِبَّهُ؛ فَيَحِبُّهُ جَبْرِيْلُ، ثُمَّ يُنَادِي فِي السَّمَاءِ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ؛ فَيَحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوَضِّعُ لَهُ الْقَبُولَ فِي الْأَرْضِ»^(١) أَي: يَصِيْرُ مَقْبُولًا عِنْدَ النَّاسِ، مَحْبُوبًا عِنْدَ النَّاسِ، وَالسَّبَبُ: أَنَّهُ أَقْبَلَ إِلَى اللَّهِ فَوَضَّعَ اللَّهُ لَهُ الْقَبُولَ فِي الْأَرْضِ.

الوسيلةُ الثانيةُ: التواضعُ، فكلَّمَا تَوَاضَعْتَ لِلخَلْقِ أَحَبَّكَ الخَلْقُ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «وَمَا تَوَاضَعُ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ»^(٢) أَي: الَّذِي يَتَوَاضَعُ يُرْفَعُ عِنْدَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَدْرًا، وَيُرْفَعُهُ عِنْدَ خَلْقِهِ قَدْرًا، فَيَكُونُ مَرْفُوعَ الْقَدْرِ.

وَقَدْ قِيلَ لِلْفُضَيْلِ: مَا هُوَ التَّوَاضُّعُ؟ فَقَالَ: يَخْضَعُ لِلْحَقِّ وَيَنْقَادُ لَهُ وَيَقْبَلُهُ مِمَّنْ قَالَهُ^(٣).

لهذا في يومٍ من الأيامِ خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ، وَكَانَتِ الرَّاحِلَةُ قَلِيلَةً الثَّلَاثَةَ عَلَى بَعِيرٍ، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ جَاءَ نَصِيْبُهُ مَعَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ -رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ- وَأَبِي لُبَابَةَ -رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ- فَإِذَا جَاءَتْ نَوْبَةُ النَّبِيِّ ﷺ مَشَى عَلَى الْأَرْضِ وَالْآخِرَانِ عَلَى الْبَعِيرِ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ لَا يَصِحُّ تَمْشِي وَتَرْكَبُ -لَكِنَّهُ يُعْطَى صُورَةً لِلتَّوَاضُّعِ، فَالتَّوَاضُّعُ لَيْسَ كَلَامًا، وَإِنَّمَا هُوَ فِعْلٌ - فَيَقُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ:

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، رقم (٣٢٠٩)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب إذا أحب الله عبدا حبه لعباده، رقم (٢٦٣٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة، باب استحباب العفو والتواضع، رقم (٢٥٨٨)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البيهقي في الشعب رقم (٧٨٩٥).

«مَا أَنْتُمْ بِأَقْوَى عَلَى الْمَشِي مِنِّي، وَمَا أَنَا بِأَغْنَى عَنِ الْأَجْرِ مِنْكُمْ»^(١).

لهذا فالنَّاطِمُ يقولُ:

تَوَاضَعُ تَكُنْ كَالنَّجْمِ لَاحٍ لِنَاظِرٍ عَلَى صَفْحَاتِ الْمَاءِ وَهُوَ رَفِيعٌ
وَلَا تَكُنْ كَالدُّخَانِ يَعْلُو بِنَفْسِهِ فِي طَبَقَاتِ الْجَوِّ وَهُوَ وَضِيعٌ^(٢)
فكَلِمًا تَوَاضَعِ الْإِنْسَانُ ارْتَفَعَ.

الوسيلة الثالثة: إفشاء السلام، فسَلِّمْ تَكْسِبْ قُلُوبَ الْآخِرِينَ، قَلِ: السَّلَامُ عليكم، واجْعَلِ السَّلَامَ لِلْجَمِيعِ وَلَا تَخْصَّ بِهِ جَمَاعَتَكَ، أَوْ حِزْبَكَ، أَوْ أَنَا سَا دُونَ آخِرِينَ، بَلْ سَلِّمْ عَلَى الْجَمِيعِ، فَقَدْ جَاءَ فِي سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَفَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ»^(٣).

وفي رواية: «أَفْشُوا السَّلَامَ كَيْ تَعْلُوا»^(٤).

وإفشاء السلام أن يُسَلِّمَ الْإِنْسَانُ وَيُوصِلُ هَذَا السَّلَامَ؛ فَإِنَّ السَّلَامَ - كَمَا قِيلَ - مِفْتَاحٌ لِمَا بَعْدَهُ.

(١) أخرجه أحمد (٤٢٢/١)، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) البيتان نسبهما الصفدي في أعيان العصر (٤٧٩/٥)، والحافظ ابن حجر في الدرر الكامنة (١٤٣/٦)، لموسى بن علي ضياء الدين القطبي.

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون، رقم (٥٤)، وأبو داود: كتاب الأدب، باب في إفشاء السلام، رقم (٥١٩٣).

(٤) عزاها المنذري في الترغيب والترهيب (٢٨٦/٣)، والهيثمي في مجمع الزوائد (٣٠/٨) للطبراني، من حديث أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الوسيلةُ الرَّابِعَةُ: الهديةُ، فقد أخبرَ رسولُ اللهِ ﷺ كما جاء في كتابِ الأدبِ المفردِ للبُخاريِّ قال: «تَهَادُوا تَحَابُّوا»^(١).

الوسيلةُ الخَامِسَةُ: وهي عَظِيمَةٌ، فقد أخبرَ رسولُ اللهِ ﷺ عنها أنَّهَا مِفْتَاحُ لِقُلُوبِ النَّاسِ، وهي إخبارُ الآخِرِينَ بِمَحَبَّتِكَ لَهُمْ، أَي: أَنْ تَقُولَ: يَا فُلَانُ، إِنِّي أُحِبُّكَ. عَبَّرَ لَهُ عَنْ مَحَبَّتِكَ، خَاصَّةً إِذَا كَانَ فُلَانٌ هَذَا أَقْرَبَ النَّاسِ إِلَيْكَ: زَوْجَةٌ أَوْ وَالِدٌ أَوْ وَلَدٌ، أَخْبِرْهُ بِمَحَبَّتِكَ لَهُ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ يُثَبِّتُ الْمَوَدَّةَ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِذَا أَحَبَّ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ فِي اللهِ فَلْيُعَلِّمْهُ؛ فَإِنَّهُ أَبْقَى فِي الْأَلْفَةِ وَأَثْبَتُ فِي الْمَوَدَّةِ»^(٢).

الوسيلةُ السَّادِسَةُ: مِمَّا يَجْلِبُ مَحَبَّةَ الْآخِرِينَ: الْاسْتِغْنَاءُ عَنْ مُنَافَسَتِهِمْ عَلَى الدُّنْيَا، فَالنَّاسُ يُحِبُّونَ الَّذِي لَا يُنَافِسُهُمْ عَلَى الدُّنْيَا، وَيُقَرَّبُونَ إِلَى قُلُوبِهِمْ مَنْ لَا يُنَافِسُهُمْ عَلَى مَرَائِزِهِمْ وَمَنَاصِبِهِمْ وَكَرَاسِيِّهِمْ.

جاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «يَا رَسُولَ اللهِ، دُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ إِذَا أَنَا عَمَلْتُهُ أَحَبَّنِي اللهُ وَأَحَبَّنِي النَّاسُ» فَقَالَ نَبِيُّنا ﷺ: «ارْهَدْ فِي الدُّنْيَا يُحِبَّكَ اللهُ، وَارْهَدْ فِيهَا فِي أَيِّدِي النَّاسِ يُحِبُّكَ النَّاسُ»^(٣).

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد رقم (٥٩٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في الإخوان رقم (٦٩)، عن مجاهد مرسلاً.

وأخرج الجملة الأولى منه فقط: أحمد (٤/١٣٠)، وأبو داود: كتاب الأدب، باب إخبار الرجل الرجل بمحبته إياه، رقم (٥١٢٤)، والترمذي: كتاب الزهد، باب ما جاء في إعلام الحب، رقم (٢٣٩٢)، من حديث المقدم بن معدي كرب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه ابن ماجه: كتاب الزهد، باب الزهد في الدنيا، رقم (٤١٠٢)، من حديث سهل بن سعد

فإذا لم تُنافِسِ النَّاسَ عَلَى الدُّنْيَا، وَلَمْ تُزَاحِمَهُمْ عَلَى كِرَاسِيهِمْ وَمَنَاصِبِهِمْ
أَحَبُّوكَ.

وقد مرَّ أعرابيٌّ على البَصْرَةِ فسألَ قائلًا: مَنْ سَيِّدُ هَذِهِ الْقَرْيَةِ؟ قالوا: سَيِّدُهَا
الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ، قال: بِمِ سَادَهُمْ؟ قالوا: احْتِاجَ النَّاسِ إِلَى عِلْمِهِ وَاسْتَعْنَى هُوَ عَنْ
دُنْيَاهُمْ^(١).

الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ الَّذِي قَالَ مَقُولَتَهُ الشَّهِيرَةَ: مَنْ نَافَسَكَ فِي دِينِكَ فَنَافَسَهُ،
وَمَنْ نَافَسَكَ فِي دُنْيَاكَ فَأَلْقَهَا فِي نَحْرِهِ^(٢).

وَمَا هِيَ إِلَّا جِيفَةٌ مُسْتَحِيلَةٌ عَلَيْهَا كِلَابٌ هُمُومٌ اجْتَذَبُوهَا
فَإِنْ تَجْتَنِبُهَا كُنْتَ سَلَمًا لِأَهْلِهَا وَإِنْ تَجْتَذِبُهَا نَارَ عَتِكَ كِلَابُهَا^(٣)

فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَكْسِبَ قُلُوبَ الْآخِرِينَ فَلْيَتْرِكِ الدُّنْيَا لَهُمْ.

• • k • •

(١) أخرجه الرامهرمزي في المحدث الفاصل (ص: ٢٤٤)، وانظر: صيد الخاطر لابن الجوزي (ص: ٥٠٩).

(٢) انظر: إحياء علوم الدين للغزالي (٣/ ٢٠٧)، وآداب الحسن البصري لابن الجوزي (ص: ٦٨).

(٣) البيتان ينسبان إلى الإمام الشافعي، ديوان الشافعي (ص: ٣٢)، وانظر الدر الفريد لمحمد بن
يدمر (٢/ ٦٤)، وحياة الحيوان الكبرى للدميري (١/ ٤١١).



(٤١)

عُبُودِيَّةُ الْقُلُوبِ

• • k • •

العُبُودِيَّةُ هِيَ الْغَايَةُ مِنَ الْخَلْقِ فَاللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى خَلَقَ الْخَلْقَ لِعِبَادَتِهِ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَلَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَبِيرِ ﴿١١٦﴾﴾ [المؤمنون: ١١٥-١١٦].

وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينِ ﴿٥٨﴾﴾ [الناريات: ٥٦-٥٨].

وهي أساسٌ ومنهجٌ دعوة الأنبياء، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وهي ارتقاءٌ في سُلَّمِ الشَّرَفِ وَالتَّكْرِيمِ وَالْعِزِّ وَالسُّؤُدِ، قال ابنُ تَيْمِيَّةٍ -رحمه الله تعالى- في كتابه العُبُودِيَّةِ: فكَمَالُ الْمَخْلُوقِ فِي تَحْقِيقِ عِبَادَتِهِ لِلَّهِ، فَكَلَّمَا أَزْدَادَ الْعَبْدِ تَحْقِيقًا لِلْعُبُودِيَّةِ؛ أَزْدَادَ كَمَالِهِ وَعَلَتْ دَرَجَتُهُ^(١).

والعُبُودِيَّةُ لِلَّهِ هِيَ عُبُودِيَّةُ الْخَلَائِقِ كُلِّهَا، قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ، مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿١٨﴾﴾ [الحج: ١٨].

(١) العبودية لابن تيمية (ص: ٧٥).

وهي عبودية الجنِّ والملائكة، قال اللهُ سُبحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفْرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٩].

وجاء في سنن الترمذي من حديث أبي ذرٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَطَّتِ السَّمَاءُ» أَي: صَارَ لَهَا صريرٌ وَّصَوْتُ «وَحَقُّ لَهَا أَنْ تَتَطَّطَّ، مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعٍ إِلَّا وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِدًا لِلَّهِ»^(١).

والعبودية لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى هي عبودية المؤمن بجميع جوارحه: بقلبه حيث الاعتقاد، ولبسانه حيث القول، وبجوارحه حيث العمل، وأعظم الجوارح عبودية الله هي القلوب.

فالقلب أعظم الجوارح، وعبوديته أعظم مراتب العبودية لأسباب:

السبب الأول: أن النبي ﷺ قال: «أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»^(٢)، وعلق ابن حجر -رحمه الله تعالى- في كتابه الفتح فقال: وخصَّ القلب بذلك؛ لأنه أميرُ البدن، وبصلاح الأمير تصلح الرعية، وبفساده تفسد^(٣).

(١) أخرجه أحمد (١٧٣/٥)، والترمذي: كتاب الزهد، باب في قول النبي ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم»، رقم (٢٣١٢).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، رقم (٥٢)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، رقم (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

(٣) فتح الباري لابن حجر (١/١٢٨).

وعلى إثر هذه الإجابة يكون حديثنا؛ لأنَّ القلبَ أصلُ الاستقامة، فاستقامة الإيمانِ مُرتبطةٌ ارتباطاً وثيقاً باستقامة القلبِ، وعليه فالعاقلُ هو الذي يَعْمَلُ على استقامة قلبه قبلَ جوارحه، فالجوارحُ تنقادُ لهذا الأميرِ الذي بين الحنايا، قال رسولُ الله ﷺ والحديثُ عند أحمد: «لَا يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ»^(١).
 فالبدايةُ الاستقامة، وبذرةُ الاستقامة وأصلها إنما تكونُ في القلبِ، والعاقلُ هو الذي يَعْتَنِي بأصلِ هذه البذرة، وبإصلاحِ هذه الأرضِ حتى يَسْتَقِيمَ له بعد ذلك إيمانه.

قال ابنُ رَجَبِ الحَنْبَلِيُّ - رحمه الله تعالى - في كتابه جامع العلوم والحكم: وحركاتُ الجسدِ تابعةٌ لحركةِ القلبِ وإرادته، فإن كانت حركته وإرادته لله وحده فقد صلحَ الجسدُ وصلاحَت حركاته كلها^(٢).

السَّبَبُ الثَّانِي: أنَّ بسلامةِ القلبِ يَسْلَمُ لك المَوْقِفُ يومَ القيامةِ، قال اللهُ مُبَحَّاثَةً وَتَعَالَى يَقُولُ مُبَيِّنًا فِي دُعَاءِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾^(٨٧) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ^(٨٨) إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ^(٨٩) [الشعراء: ٨٧-٨٩].

فلا يَسْلَمُ لك لِقَاؤُكَ بِرَبِّكَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِلَّا إِذَا سَعَيْتَ فِي سَلَامَةِ قَلْبِكَ فِي الدُّنْيَا.
السَّبَبُ الثَّالِثُ: أَنَّهُ مَوْضِعُ نَظَرِ الرَّبِّ - سبحانه - فاللهُ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِنَا هَذِهِ الْمُخَبَّاتَةِ عَنِ أَعْيُنِ الْخَلَائِقِ، فَالنَّاسُ يَرَوْنَ مِنَّا ثِيَابَنَا، وَصُورَنَا، وَيَسْمَعُونَ كَلَامَنَا، وَلَكِنْ يُحِبُّ عَنْهُمْ مَا فِي الْقُلُوبِ، وَالْعِبْرَةُ بِمَا فِي الْقُلُوبِ لَا بِمَا هُوَ فِي الظَّاهِرِ.

(١) أخرجه أحمد (٣/١٩٨)، من حديث أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) جامع العلوم والحكم لابن رجب (١/٢١٢).

فقد قال رسول الله ﷺ والحديث عند مسلم في صحيحه بروايات متعددة منها: أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَادِكُمْ وَلَا إِلَى صُورِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ، وَأَشَارَ بِأَصَابِعِهِ إِلَى صَدْرِهِ»^(١).

فإن كان لك مالٌ أو وقتٌ أو جهدٌ فاسع في سلامة قلبك؛ فالله ينظر إليه، لكن مع كل أسفٍ سعيًا وجهدًا ومالنا نبدله في تحسين الظاهر ونغفل عن سلامة الباطن، الذي فيه أعظم مراتب العبودية.

السبب الرابع: أن في القلب موضع قبول العمل، فلا يقبل أي عمل تقدمه الله عظم هذا العمل أو صغر إلا إذا صلحت نيته العبد التي هي في قلبه، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٩].

والإرادة لا تكون إلا في القلب، وقال رسول الله ﷺ: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى»^(٢)، فلا يقبل العمل إلا إذا كان مقبولاً في القلب، وكان ما في القلب لله وحده سبحانه.

السبب الخامس: أن تفاضل الأعمال لا يكون بالصورة والعدد وإنما يكون بما في القلوب، قال ابن أبي العز الحنفي - رحمه الله تعالى - شارح الطحاوية: إن

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة، باب تحريم ظلم المسلم وخذله، رقم (٢٥٦٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي، رقم (١)، ومسلم: كتاب الإمارة، باب قوله ﷺ: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ»، رقم (١٩٠٧)، من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الأعمال لا تتفاضل بصورها وعددها - أي: لا عبرة بالكم ولا بالكيف - وإنما تتفاضل بما في القلوب^(١).

وهكذا يقرّر ابن القيم - رحمه الله تعالى - فيقول في كتابه الوابل الصيب: فالعمل على القلوب لا على الأبدان^(٢).

وكلاهما قد أخذ هذه القاعدة من حديث النبي ﷺ الذي قال فيه: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَنْصَرِفُ» أي: من صلاته «وَمَا كُتِبَ لَهُ إِلَّا عَشْرُ صَلَاتِهِ تُسَعُّهَا ثَمَنُهَا سُبْعُهَا سُدُسُهَا خُمُسُهَا رُبْعُهَا ثُلُثُهَا نِصْفُهَا»^(٣).

يُصَلِّي العَدَدُ الكَبِيرُ فِي المَسْجِدِ الوَاحِدِ، صُورَةُ صَلَاتِهِمْ وَاحِدَةٌ، وَعَدَدُ الصَّلَاةِ وَاحِدٌ، لَكِنَّهُمْ يَنْصَرِفُونَ وَهُمْ مُتَفَاضِلُونَ فِي الأَجْرِ وَالعَنِيمَةِ، فَمِنْهُمْ مَنْ خَرَجَ بِعَشْرِ صَلَاتِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ خَرَجَ بِسُدُسِهَا، وَمِنْهُمْ مَنْ خَرَجَ بِثُلُثِهَا وَمِنْهُمْ مَنْ خَرَجَ بِنِصْفِهَا، وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ يَخْرُجْ مِنْهَا بِشَيْءٍ.

السَّبَبُ السَّادِسُ: أَنَّ القَلْبَ هُوَ مَوْضِعُ المَدْحِ أَوِ الذَّمِّ، فَاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إِذَا امْتَدَحَ العَبْدَ فَإِنَّ مَوْطِنَ مَدْحِهِ فِي قَلْبِهِ، وَإِذَا ذَمَّ ذَمَّ القَلْبَ.

وَنَحْنُ نَقْرَأُ فِي مَوَاضِعَ مُتَعَدِّدَةٍ فِي كِتَابِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى هَذَا الأَمْرَ، وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّ الحَقَّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَالَ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأَنْفَالُ: ٢].

(١) شرح الطحاوية لابن أبي العز (ص: ٣١٧).

(٢) الوابل الصيب لابن القيم (ص: ٥٠).

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ٣٢١)، وأبو داود: كتاب الصلاة، باب ما جاء في نقصان الصلاة، رقم (٧٩٦)،

من حديث عمار بن ياسر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

فلما امتدح المؤمنين امتدحهم بما في قلوبهم، وفي معرض الذم ينع الذم على ما في القلوب، قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر: ٤٥].

فالقلب مركز العقل، ومركز الفهم، ومركز الإبصار؛ فحريّ بالمؤمن وهو يعلم أن هذا القلب هو مركز لهذه المهام العظيمة أن يعقل، ويفهم، ويصبر بقلبه، فقد قال - سبحانه -: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَأَلْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

وقال - سبحانه -: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

بعد ذلك كله حريّ بالمؤمن أن يعنني بما في قلبه إذا أراد أن يسلم له إيمانه، وأن يسلم له لقاؤه بربه، وأن يبصر الأمور على حقيقتها، وأن يفهم ويعقل ما يدور حوله، فعليه أن يعنى بهذه الجارحة التي عليها مدار العمل.

(٤٢) القلوب السليمة

• • k • •

جاء في سنن ابن ماجه من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله تعالى عنهما -: أن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - سئل: يا رسول الله، أيُّ النَّاسِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «كُلُّ مَخْمُومِ الْقَلْبِ صَدُوقُ اللِّسَانِ». قَالَ: صَدُوقُ اللِّسَانِ نَعْرِفُهُ، فَمَا مَخْمُومُ الْقَلْبِ؟ قَالَ: «التَّقِيُّ النَّقِيُّ»^(١) أي: لا إثم فيه ولا بغي ولا غل ولا حسد.

وقد تحدَّثنا فيما مضى عن عبودية القلوب، وبيَّنا أنَّ السَّلامَةَ في يومِ القيامة لا تكونُ إلاَّ لمن سَلِمَ له قلبُه في الدُّنيا، واستشهدنا بقول الحقِّ **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾** [الشعراء: ٨٨-٨٩].

فلا يَسَلِّمُ لك لِقَاؤُكَ باللهِ **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** يومَ القيامةِ إلاَّ بِسَلامَةِ قَلْبِكَ في الدُّنيا، والقَلْبُ السَّليْمُ هو: السَّالِمُ مِنَ الكُفْرِ والشُّرْكِ، السَّالِمُ مِنَ إلفِ المَعاصي والدُّنُوبِ، وَمِنَ الأَحْقَادِ والضَّغَائِنِ وَسَيِّئِ الأَخْلَاقِ.

قال ابنُ العربيِّ - رحمه اللهُ تعالى - في كتابه أَحكامِ القُرْآنِ: ولا يكونُ القَلْبُ سَليماً إذا كان حَقُوداً، حَسُوداً، مُعْجَباً، مُتَكَبِّراً^(٢).

(١) أخرجه ابن ماجه: كتاب الزهد، باب الورع والتقوى، رقم (٤٢١٦).

(٢) أَحكام القرآن لابن العربي (٣/٤٥٩).

والقلوب السليمة: قلوب مطمئنة لا تأسى على ما فات، ولا تغتم ولا تهتم بما هو آت، ولا تغتر ولا تعجب بما عندها من النعم، حمد الله **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** على الموجود، وتسعى في الحفاظ عليه، وتدعو الله **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** في تحصيل المفقود، ولا تهتم في عدم تحصيله.

قال الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** في شأن ذلك في سورة آل عمران: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِنَطْمِئَنَ قُلُوبِكُمْ بِهِ ۗ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١١٦﴾﴾ [آل عمران: ١٢٦].

وقال - سبحانه - في سورة الأنفال: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِنَطْمِئَنَ بِهِ قُلُوبِكُمْ ۗ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الأنفال: ١٠]. وهي قلوب مطمئنة وجملة، تعيش بين جناحي الخوف والرجاء، قالت عائشة رضي الله تعالى عنها: - سألت رسول الله ﷺ عن قوله **تَبَارَكَ وَتَعَالَى**: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠] الذين قلوبهم وجملة أهم الذين يشربون الخمر ويسرقون؟ قال: «لَا يَا بِنْتَ الصِّدِّيقِ، وَلَكِنَّهُمْ الَّذِينَ يَصُومُونَ وَيُصَلُّونَ وَيَتَصَدَّقُونَ وَهُمْ يَخَافُونَ إِلَّا تُقْبَلَ مِنْهُمْ: ﴿أُولَٰئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿١١﴾﴾ [المؤمنون: ٦١] رواه أحمد والترمذي وابن ماجه^(١).

فالقلوب السليمة: قلوب مطمئنة وجملة منيبة، إذا أساءت عادت، وإذا أخطأت استغفرت، فهي في حالة إنابة على الدوام؛ لذا امتدحها الرب **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** فقال: ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ [ق: ٣٣].

(١) أخرجه أحمد (١٥٩/٦)، والترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة المؤمنون، رقم (٣١٧٥)، وابن ماجه: كتاب الزهد، باب التوقي على العمل، رقم (٤١٩٨).

وهي قلوبٌ قد رُبِطَتْ برباطِ الإيَّانِ؛ فَرَسَخَتْ رُسُوخَ الجِبَالِ الرَّوَاسِي،
 قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عن الفِئْتِيَةِ الذين آمَنُوا: ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا
 رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلهًا ۗ لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ ﴾
 [الكهف: ١٤]

والقلوبُ السَّليمةُ لسانُ حالها يُرَدِّدُ:

يَا رَبِّ إِنَّ عَظَمَتَ ذُنُوبِي كَثْرَةٌ فَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّ عَفْوَكَ أَعْظَمُ
 إِنَّ كَانِ لَا يَزُجُّوكَ إِلَّا مُحْسِنٌ فَمَنْ الَّذِي يَدْعُو وَيَزُجُّو الْمُجْرِمُ
 دَعْوَتِكَ يَا رَبِّ كَمَا أَمَرْتَ تَضَرُّعًا فَإِذَا رَدَدْتَ يَدَيَّ فَمَنْ ذَا يَرْحَمُ^(١)

فَلنَتَفَقَّ أَنْ السَّلَامَةَ يَوْمَ القِيَامَةِ لَا تَكُونُ إِلَّا بِالْقَلْبِ السَّلِيمِ، وَلَا يُمَكِّنُ أَنْ
 تَسَلَّمَ هَذِهِ القُلُوبُ إِذَا لَمْ نَسْعَ فِي سَلَامَتِهَا.

وَلنَتَذَكَّرُ قَوْلَ النَبِيِّ ﷺ: «كُلُّ مَخْمُومِ القَلْبِ»، فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يُحِمَّ قَلْبَهُ وَيُقِمَّهُ
 مِنَ القِيَامَةِ الَّتِي عَلَقَتْ بِهِ لَا بُدَّ أَنْ يَسْعَى فِي ذَلِكَ.

وَلَا بُدَّ مِنْ اسْتِخْدَامِ أَدْوَاتِ تَنْظِيفٍ حَتَّى يَسَلَّمَ هَذَا القَلْبُ، وَأَدْوَاتُ سَلَامَةِ
 القَلْبِ أَرْبَعَةٌ، يَجِبُ عَلَيْنَا حِفْظُهَا وَالْعَمَلُ بِهَا، وَهِيَ:

الأداة الأولى: العِلْمُ بِاللَّهِ، المَوْصِلُ إِلَى حَقِيقَةِ الإيْمَانِ، المُفْضِي إِلَى إِفْرَادِ اللَّهِ
 تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِالْعُبُودِيَّةِ، أَي: عِلْمٌ يُوَصِّلُكَ بِاللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى تَتَعَرَّفُ بِهِ عَلَى اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى

(١) الأبيات لأبي نواس، ديوانه (ص: ١٩٩)، وانظر: العقد الفريد لابن عبد ربه (٣/٢٠٦)،
 وتاريخ بغداد (٨/٤٩٢).

وعلى شرعه، والقاعدة كما قال أحمد بن عاصم: مَنْ كَانَ بِاللَّهِ أَعْرَفَ كَانَ لِلَّهِ أَخْوَفَ^(١).

ويؤكد على هذه القاعدة قول الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾** [الحج: ٥٤].

فُتْخِبَتِ الْقُلُوبُ، وَتَخْضَعُ وَتَذَلُّ، حِينَمَا يَكُونُ عِنْدَهَا هَذِهِ الْأَدَاءُ، وَاللَّهُ **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَقُولُ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾** [فاطر: ٢٨].

أي: أن أكثر الناس خشيةً لله هم العلماء، فكلما كان العبد عالمًا بالله، عارفًا به، كانت خشيته لله **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** أكثر.

الأداة الثانية: الإكثار من الطاعات، فإن للطاعات حسنات، وللحسنات تأثير عجيب على سلامة القلوب، قال تَرْجَمَانُ الْقُرْآنِ، عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمَا-: **إِنَّ لِلْحَسَنَةِ نُورًا فِي الْقَلْبِ، وَضِيَاءً فِي الْوَجْهِ، وَقُوَّةً فِي الْبَدَنِ، وَسَعَةً فِي الرِّزْقِ، وَمَحَبَّةً فِي قُلُوبِ الْخَلْقِ.**

لَا تُؤَثِّرُ الْحَسَنَةُ فِي قَلْبِكَ فَحَسْبُ، بَلْ تَأْثِيرُهَا يَمْتَدُّ إِلَى قُلُوبِ الْآخَرِينَ، حِينَمَا تُحْسِنُ يَسْتَنِيرُ قَلْبُكَ، وَتُفْتَحُ لَكَ قُلُوبُ الْآخَرِينَ.

وفي المقابل يقول -رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ-: **وَإِنَّ لِلْسَيِّئَةِ سَوَادًا فِي الْوَجْهِ، وَظُلْمَةً فِي الْقَلْبِ، وَوَهْنًا فِي الْبَدَنِ، وَنَقْصًا فِي الرِّزْقِ، وَبُغْضًا فِي قُلُوبِ الْخَلْقِ**^(٢).

(١) أخرجه محمد بن نصر في تعظيم قدر الصلاة (٢/٧٢٨، رقم ٧٨٦)، والقشيري في رسالته (٤٧٩/٢).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية (١٠/٦٣٠).

ويؤكد على ذلك قولُ رَبِّي تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثِيَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

والحياة الطيبةُ قال في تعريفها ابنُ قَيِّمِ الجوزية - رحمه الله تعالى - كما جاء في كتابه مدارج السالكين: وقد فسرت الحياة الطيبة بالفنعة، والرضا، والرِّزق الحسن، وغير ذلك. والصواب: أنها حياة القلب، ونعيمه، وبهجته، وسروره بالإيمان، فإذا وجدت قلبًا حيًّا فهذه هي الحياة الطيبة التي وعد الله تبارك وتعالى بها: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثِيَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧] وحياة القلب، ونعيمه، وبهجته، وسروره بالإيمان^(١).

الأداة الثالثة: وهي عظيمة جدًا، ولها تأثيرٌ عجيبٌ في سلامة القلوب، وما أخذ بها أحدٌ وخسر أبدًا، إنها: كثرةُ ذِكْرِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فَإِنَّ لِدُكْرِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تَأثيرًا عجيبًا على قلبِ الذَّاكِرِ، فقد قال اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في سورة الزمر: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ ؕ أَيُّ: القرآن، والقرآنُ أعظمُ الذِّكْرِ ﴿كُنْبًا مُّتَشَبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣].

وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ ؕ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

(١) مدارج السالكين لابن القيم (٣/ ٢٤٣).

وقال الحق - سبحانه - يُحَاطِبُ نَبِيَّهُ ﷺ والخطابُ للخلقي من بعد ذلك:
﴿وَلَقَدْ نَعَلْنَاكَ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ [الحجر: ٩٧].

فقلوبنا تتأثر بالقول السيئ، وبالتصرف السيئ، وبالخبر السيئ، فإذا ضاقت
صدرُك بما يقول الآخرون، أو بتصرفاتهم، أو بأخبارهم فالجأ إلى الذكر ﴿فَسِيحٌ
بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ [٩٨] وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾ [الحجر: ٩٨-
٩٩] فَتَسْبِيحُكَ ذَكَرَ اللَّهُ، وتأثيرُهُ في قلبك عجيبٌ.

وقد قال النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - كما جاء في صحيح مسلم، من
حديث الأغر المزني: «إِنَّهُ لَيَعَانُ عَلَىٰ قَلْبِي، وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِي الْيَوْمِ مِئَةَ مَرَّةٍ»^(١)
حتى يزول هذا الرآن.

وفي قصية الرآن قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - كما جاء في
سنن الترمذي: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً نُكِبَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءٌ، فَإِذَا نَزَعَ
وَاسْتَغْفَرَ» أي: ذَكَرَ وَتَابَ «صُقِلَ قَلْبُهُ» أي: تَنَظَّفَ قَلْبُهُ، وَسَلِمَ لَهُ، «وَإِنْ عَادَ زَيْدٌ
فِيهَا، حَتَّىٰ تَعْلُوَ قَلْبُهُ، وَذَلِكَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا
يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]»^(٢).

وقال ابن عباس - رضي الله تعالى عنهما - كما أورده ابن أبي شيبه في مصنفه:

(١) أخرجه مسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب استحباب الاستغفار، رقم (٢٧٠٢).
(٢) أخرجه أحمد (٢/٢٩٧)، والترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾،
رقم (٣٣٣٤)، وابن ماجه: كتاب الزهد، باب ذكر الذنوب، رقم (٤٢٤٤)، من حديث أبي
هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الشَّيْطَانُ جَائِمٌ عَلَى قَلْبِ ابْنِ آدَمَ، فَإِذَا سَهَا وَغَفَلَ وَسَوَسَ، وَإِذَا ذَكَرَ اللَّهَ خَسَّ (١).

وجاء رَجُلٌ إِلَى الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - فَقَالَ: يَا أَبَا سَعِيدٍ، أَشْكُو إِلَيْكَ قَسْوَةَ قَلْبِي. قَالَ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى -: أَذِيبُهُ بِالذُّكْرِ (٢).

هذا هو علاج قَسْوَةِ الْقُلُوبِ، وهذا العلاج والأداة لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَسْلَمَ لَهُ قَلْبُهُ، فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَسْعَى فِي إِصْلَاحِ قَلْبِهِ، وَسَلَامَةِ قَلْبِهِ فَلْيَأْخُذْ بِهَذِهِ الْأَدْوَاتِ، وَلْيَسْعَ سَعِيًّا حَثِيثًا لَا يَتَوَانَى فِيهِ.

الأداة الرابعة: أَنْ تَدْعُو اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنْ يَسْلَمَ لَكَ قَلْبُكَ، فَالصَّالِحُونَ مِنْ قَبْلِكَ أَخَذُوا بِهَذِهِ الْأَدَاةِ، وَرَدَّدُوا كَمَا قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران: ٨].

هم على هداية، وعلى إيمان، وقدّمهم راسخة وثابتة في الدين، ومع ذلك يقولون: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨].

وقال - سبحانه - : ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

(١) أخرجه عبد الرزاق في المصنف رقم (٣٧٥٠)، وابن أبي شيبة في المصنف رقم (٣٥٩١٩)، وأبو داود في الزهد رقم (٣٣٧).

(٢) انظر: الوابل الصيب لابن القيم (ص: ٧١).

وجاء في صحيح مسلم: كان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كثيرًا ما يقول: «اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ»^(١).

ومن حديث أم سلمة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عند الترمذي قالت: كان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَرُدُّ كثيرًا هذا الدعاء: «يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ»^(٢).

ومن حديث شداد بن أوس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عند ابن حبان: كان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ قَلْبًا سَلِيمًا»^(٣).

وفي حديث عائشة -رضي الله تعالى عنها- عند البخاري قالت: إن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يقول: «اللَّهُمَّ اغْسِلْ قَلْبِي بِمَاءِ الثَّلْجِ وَالْبَرْدِ، وَنَقِّ قَلْبِي مِنَ الْخَطَايَا كَمَا نَقَّيْتَ الثَّوْبَ الْأَبْيَضَ مِنَ الدَّنَسِ»^(٤).

وجاء في صحيح البخاري من حديث ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: كان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «اللَّهُمَّ اجْعَلْ فِي قَلْبِي نُورًا»^(٥). وفي سنن أبي داود: كان يقول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

(١) أخرجه مسلم: كتاب القدر، باب تصريف الله تعالى القلوب، رقم (٢٦٥٤)، من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه أحمد (٦/٢٩٤)، والترمذي: كتاب الدعوات، رقم (٣٥٢٢).

(٣) صحيح ابن حبان رقم (١٩٧٤)، وأخرجه أيضا أحمد (٤/١٢٢)، والترمذي: كتاب الدعوات، باب منه، رقم (٣٤٠٧)، والنسائي: كتاب السهو، باب نوع آخر من الدعاء، رقم (١٣٠٤).

(٤) أخرجه البخاري: كتاب الدعوات، باب التعوذ من فتنة القبر، رقم (٦٣٧٧)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب التعوذ من شر الفتن وغيرها، رقم (٤٩/٥٨٩).

(٥) أخرجه البخاري: كتاب الدعوات، باب الدعاء إذا انتبه من الليل، رقم (٦٣١٦)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب الدعاء في صلاة الليل، رقم (٧٦٣).

«وَاهِدِ قَلْبِي، وَسَدِّدْ لِسَانِي، وَاسْأَلْ سَخِيمَةَ قَلْبِي»^(١).

هذا رسولُ الله ﷺ يُكْثِرُ مِنَ الدُّعَاءِ بِسَلَامَةِ قَلْبِهِ، فَهَلْ نَتْرُكُ نَحْنُ الدُّعَاءَ،
ثم بعد ذلك نَشْكُو انْحِرَافَ قُلُوبِنَا، وَقَسْوَةَ قُلُوبِنَا، وَظُلْمَةَ قُلُوبِنَا؟!

• • k • •

(١) أخرجه أحمد (٢٢٧/١)، وأبو داود: كتاب الصلاة، باب ما يقول الرجل إذا سلم، رقم (١٥١٠)، والترمذي: كتاب الدعوات، باب في دعاء النبي ﷺ، رقم (٣٥٥١)، وابن ماجه: كتاب الدعاء، باب دعاء رسول الله ﷺ، رقم (٣٨٣٠)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.



(٤٣)

القلوب المريضة

•• k ••

تحدّثنا فيما مضى عن: عبودية القلوب، وعن: القلوب السليمة، والآن حديثنا عن القلوب المريضة.

إنّ القلوب تمرّض كما تمرّض الأبدان، والله تبارك وتعالى ذكر ذلك في كتابه الكريم في مواضع متعدّدة كثيرة فقال سبحانه وتعالى: ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ۗ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ [البقرة: ١٠].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَصْفَهُمْ ﴾ [محمد: ٢٩].

نعم، القلوب تمرّض كما تمرّض الأبدان، وأمراض القلوب أشدّ فتكاً بالإنسان في دنياه وأخراه من أمراض الأبدان.

قال ابن القيم -عليه رحمة الله- في كتابه القيم: الفوائد: والقلب يمرض كما يمرض البدن، وشفاءه في التوبة والحمية، ويصدأ كما تصدأ المرأة، وجلاؤه بالذكور، ويعرى كما يعرى البدن، وزينته: التقوى، ويجوع ويظمأ كما يجوع البدن، وطعامه وشرابه: المعرفة والمحبة والتوكل والإنابة^(١).

(١) الفوائد لابن القيم (ص: ٩٨).

إِذَا: هذه القلوب تَمْرُضُ وأمراضها كثيرة، فهناك قلوبٌ لاهية، لا تَلْتَفِتُ ولا تَتَأَثَّرُ بقوارع الدنيا، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ مُّحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ﴿٣﴾﴾ [الأنبياء: ١-٣].

وهناك قلوبٌ قاسية، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴿٧٤﴾﴾ [البقرة: ٧٤].

وقال سبحانه: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ۗ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ ۗ﴾ [الزمر: ٢٢].

وهناك قلوبٌ متكبرة تُرَدُّ الحَقَّ وتَحْتَقِرُ الخَلْقَ، قال سبحانه: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُّتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾﴾ [غافر: ٣٥].

هذه القلوب المتكبرة قال عنها رسول الله ﷺ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِّنْ كِبَرٍ»^(١).

وهناك قلوبٌ مُّشَمِّرَةٌ مِّن ذِكْرِ اللَّهِ، لا تُحِبُّ ذِكْرَ اللَّهِ، تَتَضَائِقُ، إِذَا سَمِعَتْ قَائِلًا يَقُولُ: قَالَ اللَّهُ، وَقَالَ رَسُولُهُ تَتَضَائِقُ، وَتُصَابُ بِالضِّيْقِ، وَيَنْقَطِعُ عَنْهَا الْهُوَاءُ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَقُولُ عَنْ هَذِهِ الْقُلُوبِ الْمَرِيضَةِ: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزمر: ٤٥].

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانها، رقم (٩١)، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

مَرَضٌ آخَرُ يُصِيبُ الْقُلُوبَ: وهو مَرَضُ الْعَمَى، أَبْصَارٌ مُفْتَحَةٌ، وَبَصِيرَةٌ عَمِيَاءٌ، قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

وهناك قلوبٌ مُقْفَلَةٌ، تَرَاكَمَتْ عَلَيْهَا الْأَقْفَالُ؛ فَأُصِيبَتْ بِهَذَا الْمَرَضِ، قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالًا﴾ [محمد: ١٤].

وهذه الأمراض التي تُصِيبُ الْقُلُوبَ كَثِيرَةٌ جِدًّا، وَهِيَ دَاخِلٌ هَذِهِ الصُّدُورِ لَا تَرَاهَا، لَكِنْ اعْلَمْ أَنَّ أَمْرَاضَ الْقُلُوبِ لَهَا أَعْرَاضٌ وَعَلَامَاتٌ تَتَعَرَّفُ بِهَا عَلَى سَلَامَةِ قَلْبِكَ مِنْ مَرَضِهِ، فَالْأَمْرَاضُ الْحَسِيَّةُ تَذْهَبُ إِلَى مَرَاكِزِ الطَّبِّ، وَتَجْلِسُ عِنْدَ مَنْ يُشْخِصُ حَالَةَ قَلْبِكَ، وَيَقُولُ: عِنْدَكَ أُنْسَادٌ هُنَا، وَأُنْسَادٌ هُنَاكَ، لَكِنَّ هَذَا الْقَلْبَ -الذي بِسَلَامَتِهِ يَسَلِّمُ لَكَ الْمَوْقِفَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ- أَمْرَاضُهُ لَهَا أَعْرَاضٌ وَعَلَامَاتٌ، مِنْهَا:

العَرَضُ الْأَوَّلُ: الْجَهْلُ بِالْغَايَةِ مِنَ الْخَلْقِ، فَإِذَا رَأَيْتَ إِنْسَانًا يَجْهَلُ لِمَاذَا خُلِقَ؟ وَتَصَرَّفَاتُهُ تَدُلُّ عَلَى هَذَا الْجَهْلِ، فَاعْلَمْ أَنَّهُ يَحْمِلُ قَلْبًا مَرِيضًا، قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [١١٥] فَتَعَلَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَبِيرِ [١١٦].

وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [٥٦] مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونِ [٥٧] إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ [٥٨]. [الذاريات: ٥٦-٥٨].

وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَنَّوْنَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ [محمد: ١٢].

فالجهل بالحقيقة أو بالغاية التي خلقنا من أجلها عرّض من أعراض مَرَضِ القلوب.

العَرَضُ الثَّانِي: عدمُ الشعورِ والإحساسِ بألمِ الذَّنْبِ والمعصية، فالمعاصي لها حرارةٌ وألمٌ يجدهُ المؤمنُ في قلبه، فإذا وجدَ الإنسانُ أنَّه فقدَ الإحساسَ بألمِ الذُّنوبِ والمعاصي، فليعلمَ أنه يحملُ قلبًا ميتًا، أو كاد أن يموت؛ لذا قيل:

وَمَنْ يَهْنُ يَسْهَلُ الْهَوَانُ عَلَيْهِ مَا لَجُرْحٍ بِمَيِّتٍ إِلَّا مٌ^(١)

فالمتَّ لا تضرُّه الجراحُ، ولا يضرُّه الطَّعنُ، كذلك مَنْ يحملُ قلبًا ميتًا لا يشعُرُ بألمِ المعصية.

فالذي يتعوَّدُ إخراجَ صلاةِ الفجرِ عن وقتها فيصليها بعدَ خروجِ الوقتِ هذا ذنبٌ، ولا يشعُرُ بحرارةِ هذا الذَّنْبِ؛ فليعلمَ أنه يحملُ قلبًا مريضًا. والذي تمتدُّ يدهُ على المالِ الحرامِ فيسرقُ ولا يشعُرُ بألمِ هذا الذَّنْبِ في قلبه؛ فليعلمَ أنه يحملُ قلبًا مريضًا.

والذي يجالسُ مَنْ يشربُ الخمرَ ولا يتألمُ فليعلمَ أنه يحملُ قلبًا ميتًا أو مُشرفًا على الموتِ.

وكذلك الذي يرتكبُ الذُّنوبَ والمعاصي، خلافَ المؤمنِ التقيِّ؛ حيثُ قال اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي شَأْنِهِ: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ اللَّهُ لَهُ لَا يَلْبَسْهُمُ اللَّهُ ظِلْمًا مَا فَعَلُوا وَهُمْ

يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ [آل عمران: ١٣٥].

(١) البيت للمتنبي، في ديوانه (ص: ١٦٤).

وقال **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** في أواخرِ سُورَةِ الْأَعْرَافِ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾ [الأعراف: ٢٠١].

والذي لا يشعرُ بعد أن دَخَلَ الْمَسْجِدَ عَقِبَ صُعودِ الْخطيبِ إِلَى الْمِنْبَرِ، وفاتَهُ تَسْجِيلُ اسْمِهِ فِي سِجِّلاتِ الْمَلَائِكَةِ، الذي لا يشعرُ بِالْمِ هذا الْخَيْرِ الذي فاتَهُ لِيَعْلَمَ أَنَّهُ يَحْتَاجُ إِلَى عِلاجٍ فِي قَلْبِهِ.

والأُمَّةُ عَجيبَةٌ! يقولون: الأُمَّةُ تَتَوَاجَدُ فِي الْمَلَاعِبِ قَبْلَ نَزولِ اللَّاعِبِينَ، وَتُقْتَدُ فِي الْمَساجِدِ قَبْلَ صُعودِ الْخطيبِ، والأُمَّةُ التي تَتَوَاجَدُ عِنْدَ نَزولِ اللَّاعِبِينَ وَتُقْتَدُ عِنْدَ الصُّعودِ، هذه أُمَّةٌ فاشِلَةٌ، لا بُدَّ أَنْ تَتَوَاجَدَ الأُمَّةُ عِنْدَ الصُّعودِ، فَالصُّعودُ طُمُوحٌ وَرُقِيٌّ، أَمَّا إِذَا تَوَاجَدَتْ عِنْدَ النُّزولِ وَفُقِدَتْ عِنْدَ الصُّعودِ فَإِنَّهَا تَحْتَاجُ إِلَى أَنْ تُراجِعَ أَجندَتَها مِنْ جَدِيدٍ.

العَرَضُ الثَّالِثُ: انْتِكَاسُ الْحَقَائِقِ، فَذَلِكَ الْقَلْبُ الذي يَرى الْأُمُورَ على غَيْرِ حَقِيقَتِها، يَرى الْحَسَنَ قَبِيحًا وَالقَبِيحَ حَسَنًا، تَتَكَبَّرُ الْمَفَاهِيمُ عِنْدَهُ، وَيَرى الْحِجَابَ وَالعِفَّةَ وَالْحِشْمَةَ تَأخَّرًا وَظِلَامًا وَرَجْعِيَّةً، لَكِنَّهُ يَنْظُرُ إِلَى السُّفُورِ وَالتَّبَرُّجِ على أَنَّهُ تَقَدَّمَ وَرُقِيٌّ.

حينما يَرى الْمَرأةَ الْعَفيْفَةَ الْمُتَحَجِّبَةَ - وقد تَكُونُ زَوْجَتَهُ أو ابْنَتَهُ، تُطالِبُهُ وَتَقُولُ: يا أَبَتِي أريدُ أَنْ أَلْبَسَ الْحِجَابَ - رُبَّمَا يَغْضَبُ، لَكِنَّهُ سَيَحْتَفِلُ مَعَ أَوْلادِهِ بَعِيدِ الْهَلُوبِينَ، وَيَشْتَرِي لَهُمْ ثِيابَ التَّنْكِيرِ، وَالسَّبَبُ: أَنَّهُ يَحْمِلُ قَلْبًا مَنكُوسًا! قالَ اللهُ **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنَّا آيَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كَلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَيْلًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا سَيَكْفُرُوا بِهِ وَإِنْ يُنذِرُ لهُمْ آيَاتٍ يَلْبَثُونَ بِهَا طَوِيلًا مِّن قَبْلِ يَوْمٍ لَّهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾**

سَكِيلَ الْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَكِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِعَايُنِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٤٦﴾
[الأعراف: ١٤٦].

فَمِنْ أَمْرَاضِ الْقُلُوبِ أَنَّهَا قُلُوبٌ تَتَكَبَّرُ أَمَامَهَا الْحَقَائِقُ، فَلَا تَرَى الْحَسَنَ حَسَنًا وَلَا تَرَى الْقَبِيحَ قَبِيحًا.

العَرَضُ الرَّابِعُ: كراهيةُ الشَّرْعِ، فَإِذَا رَأَيْتَ مَنْ يَكْرَهُ شَرَعَ اللَّهِ وَيَبْغِضُهُ، أَوْ يَكْرَهُ بَعْضَ شَرَعِ اللَّهِ؛ فَاعْلَمْ أَنَّهُ يَحْمِلُ قَلْبًا مَرِيضًا.

قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ﴾ وَهُوَ الشَّرْعُ ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَرِهُونَ﴾ [الزخرف: ٧٨].

وَقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَنْ هَذَا الصَّنْفِ مِنَ النَّاسِ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَلَهُمْ﴾ [محمد: ٩].

فَهُوَ يَكْرَهُ الْمُنَاشِطَ الدَّعْوِيَّةَ وَالتَّرَبُّوِيَّةَ، الَّتِي تَدُلُّ النَّاسَ عَلَى الْحَيْرِ، وَيَكْرَهُ حَلَقَ الذُّكْرِ وَالْمُنَاسَبَاتِ الدِّيْنِيَّةَ، وَيَكْرَهُ الْأَحْكَامَ الشَّرْعِيَّةَ وَإِنْ لَمْ يُصْرِّحْ بِهَا بِلِسَانِهِ، يَجِدُ كِرَاهِيَّةَ ذَلِكَ فِي قَلْبِهِ، وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى مَرَضِ الْقَلْبِ أَوْ قُلٍّ: مَوْتِ الْقَلْبِ.

العَرَضُ الْخَامِسُ: التَّدْبِذُ وَالْإِرْتِيَابُ وَالتَّرَدُّدُ، فَهُوَ يَعِيشُ فِي حَالَةٍ تَرَدُّدٍ عَلَى الدَّوَامِ، غَيْرَ مُقْتَنِعٍ بِهَذَا الدِّينِ، وَلَا بِهَذِهِ الْهُوِيَّةِ، وَيَعِيشُ مُدْبِذًا كَمَا قَالَ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مُدْبِذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَٰؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَٰؤُلَاءِ ۚ وَمَنْ يُضَلِلِ اللَّهُ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤٣].

وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَمَا جَاءَ فِي سُنَنِ النَّسَائِيِّ: «مَثَلُ الْمُنَافِقِ» وَالْمُنَافِقُ مَرِيضٌ

قَلْبٍ «كَمَثَلِ الشَّاةِ الْعَائِرَةِ بَيْنَ الْغَنَمَيْنِ، تَعِيرُ فِي هَذِهِ مَرَّةً وَفِي هَذِهِ مَرَّةً، لَا تَدْرِي أَيَّهَا تَتَّبِعُ؟»^(١).

ذلك لأنه يَحْمِلُ هذا القَلْبَ المُذْبَذَبَ؛ لذا لَمَّا جَاءَ أبو مسعودٍ -رضي اللهُ تَعَالَى عنه- إلى حُذَيْفَةَ -رضي اللهُ تَعَالَى عنه- قال: يا أبا عبدِ اللهِ، أوْصِنِي. قَالَ: إِيَّاكَ وَالتَّلَوْنَ فِي دِينِ اللهِ، فَإِنَّ دِينَ اللهِ وَاحِدٌ^(٢)؛ أي: كُنْ أَنْتَ، وَلَا تَكُنْ أَشْخَاصًا مُتَعَدِّدَةً فِي شَخْصِكَ.

نَعَمْ، القُلُوبُ تَمْرُضُ وَأَمْرَاضُهَا مُتَعَدِّدَةٌ؛ ولهذه الأَمْرَاضِ هذه الأَعْرَاضُ التي مَرَّتْ وَأَكْثُرُ.

• • k • •

(١) أخرجه النسائي: كتاب ، باب ، رقم (٥٠٣٧)، من حديث ابن عمر رضيَ اللهُ عَنْهُمَا. وأخرجه بنحوه مسلم: كتاب صفات المنافقين، رقم (٢٧٨٤).

(٢) أخرجه معمر في جامعه رقم (٢٠٤٥٤)، وابن الجعد في المسند رقم (٣٠٨٣)، وابن أبي شيبه في المصنف رقم (٣٥٩٥٣)، والبيهقي في السنن الكبرى (٤٢/١٠).



(٤٤)

في رحاب القلوب

•• k ••

أَكْرَمَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قُلُوبَ الْمُؤْمِنِينَ بِالْحَيَاةِ الطَّيِّبَةِ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧].

وقد قال ابن القيم - رحمه الله تعالى -: الحياة الطيبة: حياة القلب، ونعيمه، وبهجتة، وسروره بالإيمان^(١).

وَأَكْرَمَ اللَّهُ قُلُوبَ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنْ شَفَاها مِنَ الْأَسْقَامِ وَالْآلَامِ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ ١٤ وَيَذْهَبُ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَيَّ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ١٤-١٥].

وَأَكْرَمَ اللَّهُ قُلُوبَ الْمُؤْمِنِينَ أَيْضًا بِأَنْ زَكَّاهَا وَطَهَّرَهَا وَنَقَّاهَا، فَقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلنَّقْوَىٰ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ ٢ [الحجرات: ٣].

وَأَكْرَمَ اللَّهُ قُلُوبَ الْمُؤْمِنِينَ فزَيَّنَ إِلَيْهَا الْإِيمَانَ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ ٧ فَضَلًّا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً﴾ [الحجرات: ٧-٨].

(١) مدارج السالكين لابن القيم (٣/٢٤٣).

وأكرم الله تبارك وتعالى قلوب المؤمنين فجعلها تألف وتؤلف، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَلْفَ بَيْتٍ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلْفَتْ بِكَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٣].

وأكرم الله قلوب المؤمنين فهداها للحق المبين، فقال سبحانه وتعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التغابن: ١١].

وقد تحدثنا فيما مضى عن: عبودية القلوب، والقلوب المريضة، والقلوب السليمة، والآن حديثنا عن القلوب بهذه المشاهد: في رحاب القلوب.

قال ابن القيم - رحمه الله تعالى - في كتابه الفوائد: اطلب قلبك في ثلاثة مواطن: عند سماع القرآن، وفي مجالس الذكر، وفي أوقات الخلوة، فإن لم تجد في هذه المواطن؛ فسل الله أن يمن عليك بقلب فإنه لا قلب لك^(١).

مشاهد في رحاب القلوب:

المشهد الأول: قلوب المؤمنين مستودع للرحمات، فقد جاء في صحيح البخاري من حديث أسامة - رضي الله تعالى عنه - يُدفع بصبي صغير لإحدى بنات النبي ﷺ ونفسه تجود، وهو في سكرات الموت، فيرفعه النبي ﷺ فينظر إليه ونفسه تقعع - أي: نفس الصبي - ففاضت عينا رسول الله ﷺ بالدمع وسعد بجانبه فإذا به يقول: «يا رسول الله، ما هذا؟» أي: ما هذا الدمع الذي نراه؟ وما هذه الرقة

(١) الفوائد لابن القيم (ص: ١٤٨).

والعاطفة؟ فقال رسول الله ﷺ: «هَذِهِ رَحْمَةٌ جَعَلَهَا اللهُ فِي قُلُوبِ عِبَادِهِ، وَإِنَّمَا يَرْحَمُ اللهُ مَنْ عِبَادِهِ الرَّحْمَاءُ»^(١).

وجاء في صحيح البخاري، من حديث عائشة -رضي الله تعالى عنها-: جَلَسَ أَعْرَابِيٌّ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ يُدَاعِبُ ابْنًا لَهُ يُقْبَلُهُ وَيُكْتِرُ مِنْ تَقْبِيلِهِ، فَسَأَلَ هَذَا الْأَعْرَابِيُّ مُسْتَنْكِرًا: يَا رَسُولَ اللهِ: أَوْتَقَبَّلُونَ صِبْيَانَكُمْ؟ فَإِنَّا لَا نُقَبِّلُهُمْ، فيقول ﷺ: «أَوْ أَمْلِكُ أَنْ نَزَعَ اللهُ مِنْ قَلْبِكَ الرَّحْمَةَ؟!»^(٢).

المشهد الثاني: القلوب قلبان: قلب أبيض، وقلب أسود، فقد جاء في صحيح مسلم، من حديث حذيفة -رضي الله تعالى عنه- أن النبي ﷺ قال: «تُعْرَضُ الْفِتْنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُوْدًا عُوْدًا؛ فَأَيُّ قَلْبٍ أَشْرَبَهَا نُكْتٌ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءٌ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكْتٌ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءٌ حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ: عَلَى أَبْيَضٍ مِثْلِ الصَّفَا لَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَالْآخِرَ أَسْوَدَ مَرْبَادًا كَالْكُوْزِ مُجْحِيًّا، لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا إِلَّا مَا أَشْرَبَ مِنْ هَوَاهُ»^(٣).

فالقلوب على قلوبين: أبيض وأسود، ولتذكر أن الله تبارك وتعالى أمرك بالعبادة بقلبك، وبالاشتغال به، وبتصنيفه هل هو أبيض أم أسود؟ ولم يأمرك بتصنيف قلوب الآخرين، ولا أن تجتهد وتبدل من وقتك في البحث عن قلوب الآخرين، بل

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب قول النبي ﷺ: يعذب الميت ببعض بكاء أهله عليه، رقم (١٢٨٤)، ومسلم: كتاب الجنائز، باب البكاء على الميت، رقم (٩٢٣).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقيله ومعانقته، رقم (٥٩٩٨)، ومسلم: كتاب الفضائل، باب رحمته ﷺ الصبيان والعيال، رقم (٢٣١٧).

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان أن الإسلام بدأ غريباً، رقم (١٤٤).

دع قلوب الآخرين لهم، واجتهد في معرفة قلبك أنت: هل هو على بياضٍ أو في سوادٍ، عيادًا بالله؟

المشهد الثالث: قلب المؤمن يتأثر بالطاعة سلبيًا وإيجابيًا، فكلما نفذ ما أمر الله به أحيا قلبه، فإذا ترك الأمر وقع في المرض، وحصل له الطبع، وختم عليه بخاتم النفاق، عيادًا بالله!

انظر إلى هؤلاء الذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ قد قال الله سبحانه وتعالى فيهم: ﴿رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (٨٧) [التوبة: ٨٧].

ومثل هؤلاء الذين تركوا الجهاد مع النبي ﷺ الآن أولئك الذين يتخلفون في بيوتهم لا يخضرون الجمعة، يجلسون عند نسائهم في بيوتهم بغير عذرٍ يحبسهم.

قال رسول الله ﷺ: «مَنْ تَرَكَ ثَلَاثَ مَجْمَعٍ تَهَاوَنًا بِهَا طُبِعَ عَلَى قَلْبِهِ»^(١).

لهذا لا تجده موفقًا ولا مسددًا، ولا راشدًا، ولا مهديًا، وإنما يتخبط خبط عشاء، لا يعرف أين يذهب، ولا إلى أين يذهب به.

المشهد الرابع: قلب المؤمن يسكن ويطمئن عند الحلال، ويضطرب عندما يأتيه الحرام، والسبب: أن قوة الاستشعار في قلبه قوية؛ فقد قال رسول الله -صلى الله

(١) أخرجه أحمد (٤٢٤/٣)، وأبو داود: كتاب الصلاة، باب التشديد في ترك الجمعة، رقم (١٠٥٢)، والنسائي: كتاب الجمعة، باب التشديد في التخلف عن الجمعة، رقم (١٣٦٩)، وابن ماجه: كتاب إقامة الصلاة، باب فيمن ترك الجمعة من غير عذر، رقم (١١٢٥)، من حديث أبي الجعد الضمري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

عليه وآله وسلّم - في الحديث الذي رواه الإمام أحمد: «الْبِرُّ مَا سَكَنْتَ إِلَيْهِ نَفْسُكَ، وَاطْمَئِنَّ إِلَيْهِ قَلْبُكَ، وَالْإِيمُ مَا لَمْ تَسْكُنْ إِلَيْهِ نَفْسُكَ، وَلَمْ يَطْمَئِنَّ إِلَيْهِ قَلْبُكَ، وَإِنْ أَقْتَاكَ الْمُفْتُونُ»^(١).

أي: تبقى هناك أداة استشعار في قلبك، فإذا كان هذا الإنسان من الأتقياء الأتقياء تقوى هذه الأداة في قلبه، فإذا جاءه الحرام اضطرب ولم يسكن، حتى وإن سمع الفتوى تقول له بجواز ذلك، فإنه يخاف، خاصة فيما يتعلق بالأموال المأثورة.

قال مطرف بن عبد الله: لو أُخْرِجَ قَلْبِي فَوُضِعَ فِي يَدِي هَذِهِ، وَجِيءَ بِالْخَيْرِ فَوُضِعَ فِي يَدِي هَذِهِ؛ مَا اسْتَطَعْتُ أَنْ أَجْعَلَ هَذَا الْخَيْرَ فِي قَلْبِي إِلَّا أَنْ يَضَعَهُ اللَّهُ^(٢).

المشهد الخامس: ما بينه رسول الله ﷺ أن هذا الإيمان إنما يكون في هذه القلوب، وهو يتأثر تأثراً مباشراً بما يتعاطاه صاحبه؛ لذا قال ﷺ كما جاء من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص، عند الحاكم في مستدركه قال: «إِنَّ الْإِيمَانَ لَيَخْلُقُ» أي: يبلى، ويصير عتيقاً «فِي جَوْفِ أَحَدِكُمْ كَمَا يَخْلُقُ الثَّوْبُ الْخَلْقُ فَسَلُّوا اللَّهَ أَنْ يُجَدِّدَ الْإِيمَانَ فِي قُلُوبِكُمْ»^(٣).

لأن العبد إذا أتى المعصية رفع عنه الإيمان، فإذا تاب وعاد رجع إليه الإيمان، فيكون هذا الإيمان كالثوب الذي يخلعه ويعود للبس فيه؛ لأن النبي ﷺ يقول:

(١) أخرجه أحمد (٤/١٩٤)، من حديث أبي ثعلبة الخشني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٢/٢٠١).

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرک (١/٤)، وأخرجه بنحوه الطبراني في المعجم الكبير (١٣/٣٦-٣٧،

«لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ» أَي: يَرْتَفِعُ الْإِيْمَانُ عَنْهُ «وَلَا يَسْرِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ»^(١).

فعلى العبد كُلمًا تَذَكَّرَ هَذَا الْمَشْهَدَ - أَنَّهُ كُلمًا أذْنَبَ وَعَصَى وَارْتَكَبَ الْخَطِيئَةَ -
أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ هَذَا يُؤَثِّرُ فِي قَلْبِهِ؛ فَيَعُودُ لِلِاسْتِعْفَارِ وَالطَّاعَةِ وَالْإِيْمَانِ.

•• k ••

(١) أخرجه البخاري: كتاب المظالم والغصب، باب النهي بغير إذن صاحبه، رقم (٢٤٧٥)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب نقصان الإيمان بالمعاصي، رقم (٥٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

فهرس الموضوعات

الصفحة	الموضوع
٥	مقدمة المجموعة الرابعة.....
٧	مقدمة المجموعة الثالثة.....
٩	مقدمة المجموعة الثانية.....
١١	مقدمة المجموعة الأولى.....
١٥	١ - الأمانة
١٨	ضياغ الأمانة له علامات وآثار:.....
١٨	أولاً: إن الأمانة إذا ضاعت عند الإنسان ضاع دينه.....
١٩	ثانياً: ضياغ الأمانة علامة من علامات النفاق.....
١٩	ثالثاً: ضياغ الأمانة دليل على فساد الزمان.....
١٩	رابعاً: ضياغ الأمانة علامة من علامات دنو الساعة.....
٢٢	٢ - كلمة النجاة
٢٣	فضائل لا إله إلا الله.....
٢٣	الفضيلة الأولى: أن من ختم له ب: لا إله إلا الله دخل الجنة.....
٢٤	الفضيلة الثانية: أنها أفضل الحسنات، وأفضل ما يمحي به السيئات.....
٢٤	الفضيلة الثالثة: أنها لا يعادها شيء أبداً.....
٢٥	الفضيلة الرابعة: هي أفضل الذكر.....

- الفضيلة الخامسة: أَمَّا السَّبَبُ الرَّئِيسُ فِي الْفَوْزِ بِأَعْلَى الْجَنَانِ ٢٥
- الفضيلة السادسة: هِيَ حِرْزٌ وَحِصْنٌ مَنِيْعٌ مِّنْ وَسَاوِسِ الشَّيْطَانِ ٢٥
- الفضيلة السابعة: أَمَّا تَعْصِمُ دَمَ الْمَرْءِ وَمَالَهُ إِذَا قَالَهَا ٢٦
- ٣- وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ** ٢٨
- معنى: وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ٢٨
- النَّبِيُّ ﷺ لَهُ حَقُوقٌ مُتَعَدِدَةٌ ٢٨
- الحقُّ الأوَّلُ: الْإِيْمَانُ الصَّادِقُ بِهِ ﷺ ٢٨
- الحقُّ الثاني: طَاعَتُهُ فِيْمَا أَمَرَ، وَالْإِنْتِهَاءُ عَمَّا نَهَى عَنْهُ وَزَجَرَ ٢٩
- الحقُّ الثالثُ: اتِّبَاعُهُ ٣١
- الحقُّ الرابعُ: مَحَبَّتُهُ ٣١
- الحقُّ الخامسُ: أَنْ يُتَحَاكَمَ إِلَيْهِ، وَإِلَى الشَّرْعِ الَّذِي جَاءَ بِتَبْلِيغِهِ عِنْدَ التَّنَازُعِ ٣٢
- الحقُّ السادسُ: أَنْ تُكْتَبَرَ مِنَ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ عَلَيْهِ ٣٣
- ٤- آدَبُ الْإِحْسَانِ** ٣٥
- أسباب الإحسان: ٣٥
- أولاً: لِأَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَمَرَ بِهِ فِي أَكْثَرِ مِنْ مَوْضِعٍ ٣٥
- ثانياً: لِأَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يُحِبُّ الْإِحْسَانَ ٣٥
- ثالثاً: لِأَنَّ عَاقِبَةَ الْإِحْسَانِ تَعُودُ عَلَيْكَ أَيُّهَا الْمُحْسِنُ ٣٥
- رابعاً: لِأَنَّ لَهُ مَنْزِلَةً عَظِيمَةً عِنْدَ اللَّهِ ٣٦
- آدابُ الإحسانِ ٣٦
- الأدبُ الأوَّلُ: أَنْ تُحْسِنَ تَبَتُّغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ لَا رِيَاءً وَلَا سُمْعَةً ٣٦

- الأدبُ الثاني: أن تحتسب الأجر ٣٨
- ٣٨ ما جعل الله **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** من أجور المحسن فهو كما يلي:
- ٣٨ أولاً: أنه لا يخاف مما هو آتٍ، ولا يحزن مما فات
- ٣٨ ثانياً: أن الله **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** يتولى ذريته بالإحسان
- ٣٩ ثالثاً: أن العبد متى ما كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته
- ٤٠ الأدبُ الثالث: عدم المن والأذى
- ٤٢ **٥- التبيان في ذكر جنود الرحمن**
- ٤٣ الملائكة جند من جنود الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**
- ٤٤ جندي آخر من جنود الله **تَبَارَكَ وَتَعَالَى**: هم صالحو الجن
- ٤٤ كذلك من جنود الله: هذه الطيور التي نراها تخلق في السماء
- ٤٥ كذلك جعل الله **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** من جنوده: الحشرات
- ٤٦ كذلك من جنود الرحمن مسائل يصيق حصرها، من الجمادات: الحجارة
- ٤٧ جنود الله كثيرة متعددة، منها الريح
- ٤٨ الرجفة كذلك جند من جنود الرحمن
- ٤٨ من جنود الله **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** مسائل معنوية ليست بمحسوسة
- ٤٩ **٦- يا سلعة الرحمن**
- ٥١ أسماء الجنة
- ٥١ صفة أهل الجنة
- ٥٢ أبواب الجنة
- ٥٤ **٧- وما توفيقى إلا بالله**

- ٥٥ التوفيقُ ليس له علاقةٌ بالحسبِ والنسبِ
- ٥٦ سُبُلُ التوفيقِ وطرقه
- ٥٦ أولاً: الاستمسكُ بكتابِ الله، قِراءَةً وَتَدْبِيرًا وَتَأْمُلًا وَتَحَاكُمًا وَتَدَاوِيًا
- ٥٧ ثانياً: مَنْ أَرَادَ التوفيقَ فعليه بالصَّلَاةِ
- ٥٨ ثالثاً: صِلَةُ الرَّحِمِ
- ٦٠ **٨- وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا**
- ٦١ أسبابُ العَفْوِ ثلاثةٌ أمورٍ
- ٦٢ السببُ الأوَّلُ: لأنَّ اللهَ تعالى يُحِبُّ العَفْوَ
- ٦٢ السببُ الثاني: لأنَّ من سُنَنِ اللهِ **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** أَنَّهُ يُجَازِي بِالإِحْسَانِ إِحْسَانًا
- ٦٤ السببُ الثالثُ: لأنَّ اللهَ يُكَافِئُ بالعَفْوِ عِزًّا
- ٦٦ **٩- واذكروا نعمة الله عليكم**
- ٦٧ بعضُ نِعَمِ اللهِ عَلَيْنَا
- ٦٧ النِّعْمَةُ الأُولَى: نِعْمَةُ الخَلْقِ والإِيجَادِ
- ٦٨ النِّعْمَةُ الثَّانِيَّةُ: التَّكْرِيمُ
- ٦٨ النِّعْمَةُ الثَّالِثَةُ: زَمَنُ وَمَكَانُ الخَلْقِ والإِيجَادِ
- ٦٨ النِّعْمَةُ الرَّابِعَةُ: تَسْخِيرُ الخَلْقِ لَكَ
- ٦٩ النِّعْمَةُ الخَامِسَةُ: الفِضْلُ والإِحْسَانُ
- ٧٠ النِّعْمَةُ السَّادِسَةُ: أَنَّ اللهَ **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** قَبْلَ تَوْبَةِ العَاصِيْنَ، وَيَسِّرَ الطَّرِيقَ إِلَيْهَا
- ٧٢ **١٠- وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ**
- ٧٢ أسبابُ تَرَجُّعِ بعضِ النَّاسِ عَنِ طَرِيقِ اللهِ

- أولاً: استعجالهم واندفاعهم على غير بينة وهدى ٧٢
- ثانياً: أنهم لما اهدوا عاشوا في أوساط وبيئات ضعيفة الهمم، هابطة الرؤى ٧٣
- ثالثاً: غرورهم وكبرهم وإعجابهم بذواتهم ٧٤
- رابعاً: غلوهم وتشددهم في الدين ٧٥
- خامساً: أنهم جهلوا حقيقة هذه النفوس ٧٦
- ١١ - وأنذرهم يوم الحسرة** ٧٨
- من أسماء يوم القيامة يوم الحسرة ٧٨
- مشاهد الحسرات يوم القيامة ٧٩
- المشهد الأول: مشهد المرائين الذين عملوا غير الله ٧٩
- المشهد الثاني: مشهد من فرط في العمل الصالح في الدنيا ٨٠
- المشهد الثالث: أنه يتحسر على صعبة السوء ٨٠
- المشهد الرابع: مشهد ضياع الحسنات ٨١
- المشهد الخامس: حينما يعاين أهل النار النار ٨٢
- ١٢ - وعجلت إليك رب لترضى** ٨٤
- المبادرة إلى الخيرات ٨٤
- المبادرة إلى الخيرات هو في حقيقته مبادرة إلى رب البريات ٨٤
- وهو مبادرة لجنة عرضها الأرض والسموات ٨٤
- وهو مبادرة لأعلى الدرجات ٨٤
- وهو مبادرة للتصاف بأجمل الصفات ٨٤
- وهو مبادرة للفوز بأصدق الدعوات المباركات ٨٤

- ٨٨..... من المظاهر السيئة المبادرة إلى الكفر!
- ٩٠..... **١٣ - وصايا في زمن الانتصار**
- ٩٠..... الوصية الأولى: أن نُحسِنَ التَّوَكَّلَ على الله تعالى
- ٩٠..... الوصية الثانية: أن النَّصْرَ بِيَدِ اللَّهِ **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** والتأييد منه سبحانه
- ٩٢..... الوصية الثالثة: أن نُكثِرَ مِنْ ذِكْرِهِ **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**
- ٩٣..... الوصية الرابعة: الحذر من إساءة الظنِّ بالمؤمنين
- ٩٤..... الوصية الخامسة: إنَّ مِنْ أَعْظَمِ الْمَقَامَاتِ فِي مِثْلِ هَذِهِ الظُّرُوفِ مَقَامَ الدُّعَاءِ
- ٩٦..... **١٤ - الدعاء بالنصر**
- ٩٦..... أدلة القرآن على أن النصر بيد الله
- ٩٨..... أدلة السنة على أن النصر بيد الله
- ١٠٠..... الدعاء يردُّ القضاء
- ١٠٣..... **١٥ - فاستغفروني أغفر لكم**
- ١٠٣..... كثرة الوقوع في الذنوب والمعاصي سبب رئيس في زوال النعم
- ١٠٣..... الدليل من الكتاب على ذلك
- ١٠٤..... الدليل من السنة على ذلك
- ١٠٤..... علينا أن نُحْيِيَ شَعِيرَةَ الاسْتِغْفَارِ فِي نُفُوسِنَا قَوْلًا وَعَمَلًا
- ١٠٦..... لوازم الاستغفار:
- ١٠٦..... أولاً: التَّحَلُّلُ مِنَ الْمَظَالِمِ الَّتِي لِلنَّاسِ
- ١٠٧..... ثانياً: العزم فيه
- ١٠٧..... ثالثاً: الإقلاع عن الذنب

- ١٠٩ ١٦ - الإخبارُ بمعاني الانتصارِ
- ١٠٩ من معاني الانتصارِ.
- ١٠٩ أولاً: الانتصارُ على النَّفسِ
- ١١٢ ثانياً: الانتصارُ على الشَّيطانِ
- ١١٣ ثالثاً: انتصارُ الثباتِ على الدينِ حتى المماتِ
- ١١٦ ١٧ - تَعْظِيمُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى
- ١١٧ عَابَ الْمَوْلَى تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَى الَّذِينَ لَمْ يُعَظِّمُوهُ
- ١١٨ إِذَا امْتَلَأَتِ الْقُلُوبُ بِعَظَمَةِ اللَّهِ انْقَادَتْ إِلَيْهِ وَإِلَى شَرَعِهِ
- ١١٩ قَدْ عَظَّمَ الْخَلْقُ خَالِقَهُمْ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حَتَّى هَذِهِ الْجَمَادَاتُ الَّتِي نَرَاهَا
- ١١٩ دَلِيلُ تَعْظِيمِكَ اللَّهُ
- ١٢١ كَلِمَا عَصَى الْعَبْدُ رَبَّهُ ضَعُفَ تَعْظِيمُهُ لَخَالِقِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى
- ١٢٣ ١٨ - أَوْهَنُ الْبُيُوتِ
- ١٢٤ أَسْبَابُ ضَعْفِ الْبُيُوتِ وَعَدَمِ تَمَاسُكِهَا
- ١٢٤ السَّبَبُ الْأَوَّلُ: عَدَمُ الرِّضَا بِالْقَضَاءِ
- ١٢٤ مَرَاحِلُ الْعِلَاقَةِ بَيْنَ الرَّجُلِ وَزَوْجَتِهِ
- ١٢٦ السَّبَبُ الثَّانِي: كَثْرَةُ الْوُقُوعِ فِي الْمَعَاصِي وَالذُّنُوبِ
- ١٢٨ السَّبَبُ الثَّلَاثُ: الْمُقَارَنَةُ
- ١٣٠ ١٩ - الْوَقْتُ
- ١٣٠ الْقَسْمُ بِالْأَوْقَاتِ فِي الْقُرْآنِ دَالٌّ عَلَى أَهْمِيَّةِ هَذَا الْوَقْتِ
- ١٣١ لَا بُدَّ مِنْ اسْتِغْلَالِ الْوَقْتِ فِي تَحْصِيلِ الْحَسَنَاتِ وَرَفْعِ الدَّرَجَاتِ

- ١٣٣ أسباب ضياع الأوقاتِ ثلاثة: ثلاثهٗ
- ١٣٣ الأول: عدمُ وُضوحِ الهَدَفِ
- ١٣٣ السَّبَبُ الثَّانِي: أَنَّا اسْتَسَلَمْنَا لِسَرَّاقِ الوَقْتِ
- ١٣٥ السَّبَبُ الثَّالِثُ: أَنَّا نَجْهَلُ أَهْمِيَّةَ الوَقْتِ
- ١٣٦ بعضُ صُورِ تَضْيِيعِ الوَقْتِ
- ١٣٨ **٢٠- مَنْ لَا يُرْحَمُ لَا يُرْحَمُ**
- ١٣٨ الدَّلِيلُ مِنَ الْقُرْآنِ عَلَى أَنَّ هَذَا الدِّينَ دِينُ رَحْمَةٍ، وَرَسُولُنَا رَحْمَةٌ
- ١٣٩ الدَّلِيلُ مِنَ السُّنَّةِ عَلَى أَنَّ هَذَا الدِّينَ دِينُ رَحْمَةٍ، وَرَسُولُنَا رَحْمَةٌ
- ١٤١ كَانَ مِنَ رَحْمَتِهِ ﷺ أَنَّهُ يَفْرَحُ بِدُخُولِ النَّاسِ الْجَنَّةَ
- ١٤٥ **٢١- وَأَتُوا الزَّكَاةَ**
- ١٤٦ البَشَائِرُ الَّتِي أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُتَصَدِّقِينَ
- ١٤٦ أَوَّلًا: أَنَّ هَذِهِ الصَّدَقَةَ تَصْرِفُ عَنْكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مَصَارِعَ الشُّوْءِ، وَالْآفَاتِ وَالْهَلَكَاتِ .
- ١٤٦ ثَانِيًا: أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى هُوَ الَّذِي يَتَقَبَّلُهَا مِنْكَ
- ١٤٧ ثَالِثًا: أَنَّ هَذِهِ الصَّدَقَاتِ تُطْفِئُ نَارَ الْخَطِيئَاتِ
- ١٤٧ رَابِعًا: أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَعَدَّ عَلَيْهَا بِالْخَلْفِ
- ١٤٨ خَامِسًا: أَنَّ الصَّدَقَةَ تَفْتَحُ عَلَيْكَ بَابَ التَّيْسِيرِ
- ١٤٨ سَادِسًا: أَنَّ الصَّدَقَةَ لَا تَنْفَعُكَ فِي الدُّنْيَا فَحَسْبُ
- ١٤٨ جِزَاءَ الَّذِينَ لَا يَزَالُونَ مُتَرَدِّدِينَ فِي إِخْرَاجِ زَكَاةِ أَمْوَالِهِمْ
- ١٤٩ بَشَائِرُ لِلْمُرَابِطِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
- ١٥٢ **٢٢- التَّقِيُّ الْخَفِيُّ**

- أَبْرَزُ مَا يُمَيِّزُ الْأَتْقِيَاءَ: الْإِخْلَاصُ فِي الْعَمَلِ، وَعَدَمُ إِظْهَارِهِ ١٥٢
- أَصْبَحَ الْإِنْسَانُ يُظْهِرُ عَمَلَهُ لِلنَّاسِ بِسَبَبِ التَّقْنِيَةِ الْحَدِيثَةِ ١٥٤
- بَعْضُ صُورِ إِظْهَارِ الْأَعْمَالِ لِلنَّاسِ ١٥٤
- تَحْذِيرُ اللَّهِ مِنَ الرِّيَاءِ وَإِبْرَازِ الْعَمَلِ مِنْ أَجْلِ النَّاسِ ١٥٥
- كَيْفِيَّةُ النِّجَاحِ مِنْ هَذَا الشَّرْكِ الْخَفِيِّ ١٥٧
- ٢٣- أَخَوْفُ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ** ١٥٩
- بَعْضُ الْأَشْيَاءِ الَّتِي خَافَهَا النَّبِيُّ ﷺ عَلَيْنَا ١٦٠
- أَوَّلًا: الْانْغِمَاسُ فِي الدُّنْيَا ١٦٠
- ثَانِيًا: الْانْغِمَاسُ فِي الشَّهَوَاتِ ١٦١
- ثَالِثًا: خَافَ عَلَيْنَا كُلَّ مُنَافِقٍ عَلِيمِ اللِّسَانِ ١٦٣
- ٢٤- صَلَاةُ الرَّحِمِ** ١٦٥
- أَمْرُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِصَلَاةِ الرَّحِمِ ١٦٥
- ذَمُّ اللَّهِ تَعَالَى الْقَاطِعِينَ أَرْحَامَهُمْ ١٦٥
- أَعْظَمُ الْأَرْحَامِ ١٦٦
- ثَبَاتُ صَلَاةِ الرَّحِمِ ١٦٧
- ضَرَرُ قَطِيعَةِ الرَّحِمِ ١٦٨
- ٢٥- ثِقَافَةُ الْاسْتِهْبَالِ** ١٧٠
- ذَمُّ سُوءِ الْخُلُقِ ١٧٠
- أَبْرَزُ مَظَاهِرِ سُوءِ الْخُلُقِ الْيَوْمَ ١٧٠
- أَسْبَابُ بَرُوزِ الْحَمَقِيِّ وَالسُّفْهَاءِ: ١٧٢

- السببُ الأوَّلُ: غِيَابُ مَفْهُومِ المُرُوَّةِ التي كان يَعْرِفُهَا الآبَاءُ والأَجْدَادُ..... ١٧٢
- السببُ الثَّانِي: قِلَّةُ الحَيَاءِ..... ١٧٣
- السببُ الثَّالِثُ: العَفْلَةُ عن مَحَاسِنِ الأَخْلَاقِ..... ١٧٤
- ٢٦- عَتَقَاءُ مِنَ النَّارِ فِي غَيْرِ رَمَضَانَ**..... ١٧٦
- معنى العِتْقِ مِنَ النَّارِ..... ١٧٦
- أسبابٌ وَسُبُلٌ العِتْقِ مِنَ النَّارِ:..... ١٧٧
- السَّبِيلُ الأوَّلُ: تَحْقِيقُ التَّوْحِيدِ الخَالِصِ..... ١٧٧
- السَّبِيلُ الثَّانِي: العِنَايَةُ بِالصَّلَاةِ..... ١٧٧
- السَّبِيلُ الثَّالِثُ: مَنْ بَكَى مِنَ خَشْيَةِ اللهِ، أَوْ حَرَسَ فِي سَبِيلِ اللهِ..... ١٧٧
- السَّبِيلُ الرَّابِعُ: المَشْيُ إِلَى صَلَاةِ الجُمُعَةِ..... ١٧٨
- السَّبِيلُ الخَامِسُ: السَّمَاحَةُ وَاللِّينُ فِي المُعَامَلَةِ..... ١٧٨
- السَّبِيلُ السَّادِسُ: وَهُوَ أَنْ تَذَبَّ عَن عِرْضِ إِخْوَانِكَ إِذَا غَابُوا..... ١٧٨
- السَّبِيلُ السَّابِعُ: ذِكْرٌ عَظِيمٌ..... ١٧٨
- ٢٧- أسبابُ مَوْتِ الدُّوَلِ**..... ١٨٠
- أسبابُ مَوْتِ الدُّوَلِ وَذَهَابِهَا:..... ١٨١
- السَّبَبُ الأوَّلُ: الاِسْتِكْبَارُ وَالْعُرُورُ وَمَا يَنْتُجُ عَنْهُ مِنَ اسْتِيدَادٍ وَتَسَلُّطٍ..... ١٨١
- السَّبَبُ الثَّانِي: سُوءُ اخْتِيَارِ الأَعْوَانِ..... ١٨٣
- السَّبَبُ الثَّالِثُ: التَّمَرُّدُ عَلَى شَرَعِ اللهِ..... ١٨٤
- السَّبَبُ الرَّابِعُ: البَطْرُ فِي المَعِيشَةِ، وَالتَّرَفُ..... ١٨٥
- ٢٨- أَلَمْ يَعْلَمَ بَأَنَّ اللهُ يَرَى**..... ١٨٦

- ١٨٧ تعريفُ المراقبةِ
- ١٩٠ الذي يَسْتَشْعِرُ رِقَابَةَ اللَّهِ إِذَا وَجَدَ الْمُنْكَرَاتِ بَيْنَ يَدَيْهِ
- ١٩٠ وجوبُ إحياءِ اسْتِشْعَارِ مَقَامِ الْمُرَاقِبَةِ
- ١٩٢ **٢٩- كيف تَحْظِي بِدُعَاءِ غَيْرِكَ**
- ١٩٣ نماذج لأعمالٍ يَسِيرَةٍ مَنْ أَتَى بِهَا أَصَابَتْهُ دَعْوَةُ النَّبِيِّ ﷺ:
- ٢٠٠ **٣٠- الْيَوْمُ الْحَقُّ**
- ٢٠١ أسبابُ الحديثِ عنِ اليومِ الآخِرِ:
- ٢٠١ السَّبَبُ الْأَوَّلُ: اللامبالاةُ التي يَعِيشُهَا النَّاسُ الْيَوْمَ
- ٢٠١ السَّبَبُ الثَّانِي: أَنَّا نَعِيشُ فِي زَمَنِ قَسَتْ فِيهِ الْقُلُوبُ وَتَحَجَّرَتْ
- ٢٠٢ السَّبَبُ الثَّلَاثُ: كَثْرَةُ الْفِتَنِ وَزِيَادَةُ الْبَلَاءِ
- ٢٠٢ السَّبَبُ الرَّابِعُ: تَذْكَرَةُ لِلظَّالِمِ وَتَسْلِيَةٌ لِلْمَظْلُومِ
- ٢٠٣ أسماءُ اليومِ الآخِرِ:
- ٢٠٥ أسبابُ النَّجَاةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ:
- ٢٠٥ أَوَّلًا: مَنْ خَافَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا بُدَّ أَنْ يُدْلِحَ
- ٢٠٥ ثَانِيًا: أَلَّا نَغْتَرَّ بِأَعْمَالِنَا
- ٢٠٨ **٣١- يُقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ**
- ٢٠٨ شَعِيرَةُ الْجِهَادِ شَعِيرَةٌ عَظِيمَةٌ
- ٢٠٨ غَايَةُ الْجِهَادِ وَمَقْصِدُهُ الْأَعْلَى
- تصويرُ رسولِ اللَّهِ ﷺ أَرْوَاحَ الشَّهَدَاءِ الطَّاهِرَةِ إِذَا خَرَجَتْ مِنْ أَجْسَادِهِمْ كَيْفَ
- ٢١٠ تَكُونُ

- ٢١١ أعظم أسباب النَّصْرِ:
- ٢١٣ **٣٢- كأجر الحاج**
- ٢١٤ أَيَّامُ الْعَشْرِ هِيَ أَفْضَلُ الْأَيَّامِ وَأَحَبُّهَا إِلَى اللَّهِ
- ٢١٥ أَعْمَالُ أَجْرُهَا يَعْدِلُ أَجْرَ الْحَاجِّ:
- ٢١٦ الْعَمَلُ الْأَوَّلُ: إِحْسَانُ الْوُضُوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ
- ٢١٦ الْعَمَلُ الثَّانِي: الْخُشُوعُ فِي الصَّلَاةِ أَجْرُهُ يَعْدِلُ أَجْرَ الْحَاجِّ
- ٢١٦ الْعَمَلُ الثَّلَاثُ: وَهُوَ أَبْسَطُ مِمَّا تَقَدَّمَ وَأَسْهَلُ مِنْهُ
- ٢١٧ الْعَمَلُ الرَّابِعُ: مُتَعَلِّقٌ أَيْضًا بِالصَّلَاةِ
- ٢١٧ الْعَمَلُ الْخَامِسُ: مُتَعَلِّقٌ أَيْضًا بِالْمَسْجِدِ وَالصَّلَاةِ
- ٢١٨ الْعَمَلُ السَّادِسُ: وَهُوَ مُتَعَلِّقٌ أَيْضًا بِالْمَسْجِدِ وَالْجَمَاعَةِ
- ٢١٨ الْعَمَلُ السَّابِعُ: الصَّبْرُ عَلَى الْبَلَاءِ
- ٢٢٠ **٣٣- مِنْ مَعَانِي الرِّزْقِ**
- ٢٢٠ قَوَاعِدُ مِهْمَةٌ فِي مَسْأَلَةِ الرِّزْقِ
- ٢٢٠ الْقَاعِدَةُ الْأُولَى: اعْلَمْ أَنَّ رِزْقَكَ يَطْلُبُكَ أَكْثَرَ مِمَّا تَطْلُبُهُ أَنْتَ
- ٢٢١ الْقَاعِدَةُ الثَّانِيَّةُ: وَهِيَ أَنَّ هُنَاكَ تَعَلُّقًا بَيْنَ الْعِبَادَةِ وَالرِّزْقِ
- ٢٢١ الْقَاعِدَةُ الثَّلَاثَةُ: اعْلَمْ أَنَّ أَرْزَاقَنَا بِيَدِ اللَّهِ لَا بِيَدِ حَاكِمٍ وَلَا بِيَدِ حُكُومَاتٍ
- ٢٢٢ الْقَاعِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّ الرِّزْقَ لَا يُحْصَرُ فِي الْمَالِ
- ٢٢٣ مِنْ الْمَعَانِي الْعَظِيمَةِ لِلرِّزْقِ: الْأَمْنُ
- ٢٢٤ مِنْ مَعَانِي الرِّزْقِ الْعَظِيمَةِ أَيْضًا: أَشْيَاءٌ قَدْ تَكُونُ مُحْتَقَرَةً فِي نَظَرِنَا
- ٢٢٥ مِنْ قَوَاعِدِ الرِّزْقِ الْعَظِيمَةِ: أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَدْ قَسَمَ أَرْزَاقَهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ

- ٢٢٥ من قواعِدِ الرِّزْقِ أَيضًا: الرِّضَا بِمَا قَسَمَ اللهُ
- ٢٢٧ **٣٤- الأَقْصَى فِي قُلُوبِنَا**
- ٢٢٨ مكانةُ الأَقْصَى
- ٢٢٩ مِمِّزَاتُ بِلَادِ الشَّامِ وَأَهْلِهَا
- ٢٣٠ أَعْظَمُ مَا يُمِيزُ بِلَادَ الشَّامِ
- ٢٣٢ **٣٥- وَمُحِبُّونَ الْمَالِ حُبًّا جَمًّا**
- ٢٣٣ أَعْظَمُ أَبْوَابِ الْفِتَنِ: فِتْنَةُ الْمَالِ عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ
- ٢٣٣ مَجْمُوعَةٌ مِنَ الْقَوَاعِدِ لَهَا مُتَعَلِّقٌ رَئِيسٌ بِالْمَالِ:
- ٢٣٤ الْقَاعِدَةُ الْأُولَى: الْعِبْرَةُ فِي الْمَالِ الْبَرَكَةُ فِيهِ
- ٢٣٥ الْقَاعِدَةُ الثَّانِيَّةُ: الْمَالُ تَبِعٌ لِنِيَّةِ صَاحِبِهِ حِينَمَا أَخَذَهُ
- ٢٣٦ الْقَاعِدَةُ الثَّلَاثَةُ: أَنَّ هَذَا الْمَالَ سُنُسَأَلُ عَنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبْنَاهُ وَفِيهَا أَنْفَقْنَاهُ
- ٢٣٦ الْقَاعِدَةُ الرَّابِعَةُ: لَمَّا أَنْزَلَ اللهُ **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** الْمَالَ أَنْزَلَهُ لِقَوَامِ الدِّينِ
- ٢٣٧ الْقَاعِدَةُ الْخَامِسَةُ: أَمَرْنَا اللهُ **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** بِكَسْبِ الْمَالِ
- ٢٤٠ **٣٦- سَبِيلُ النَّجَاةِ عَلَى الصِّرَاطِ**
- ٢٤٣ أَمْثَلَةٌ لِلْأَعْمَالِ الَّتِي تَزِيدُ مِنَ النُّورِ عَلَى الصِّرَاطِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ:
- ٢٤٣ الْمَثَلُ الْأَوَّلُ: الْمُحَافَظَةُ عَلَى الصَّلَاةِ
- ٢٤٤ الْمَثَلُ الثَّانِي: أَهْلُ الْجُمُعِ
- ٢٤٤ الْمَثَلُ الثَّلَاثُ: قِرَاءَةُ سُورَةِ الْكَهْفِ
- ٢٤٥ صِنْفٌ مِنَ النَّاسِ يُجَبِّسُونَ عَلَى جِسْرِ جَهَنَّمَ
- ٢٤٧ **٣٧- وَثَقُلَ مِيزَانِي**

- ٢٤٩ الذي يُوزَنُ في الميزانِ يومَ القيامة: ٢٤٩
- ٢٤٩ أولاً: العبادُ بأجسامهم. ٢٤٩
- ٢٥٠ ثانياً: أعمالُ العبادِ. ٢٥٠
- ٢٥٠ ثالثاً: تلك السجلات التي يُكتبُ فيها حسناتنا وسيئاتنا. ٢٥٠
- ٢٥١ رابعاً: أقوالُ العبادِ. ٢٥١
- ٢٥٣ **٣٨- من صفات المتقين** ٢٥٣
- ٢٥٣ الغايةُ العظيمةُ، والمقصدُ الأسمى من فرضية الصيام. ٢٥٣
- ٢٥٤ صفات الأتقياء الفائزين بأعلى الجنان: ٢٥٤
- ٢٥٤ الصفةُ الأولى: أنهم يؤمنون بالغيبِ. ٢٥٤
- ٢٥٦ الصفةُ الثانيةُ: يؤمنون بالغيبِ ويُقيمون الصلاةَ. ٢٥٦
- ٢٥٧ الصفةُ الثالثةُ: كثرةُ الاستغفارِ. ٢٥٧
- ٢٥٩ **٣٩- لماذا لعنوا؟** ٢٥٩
- ٢٥٩ تعريفُ اللعنِ. ٢٥٩
- ٢٥٩ الدليل من السنة على تحريم اللعن في شريعتنا. ٢٥٩
- ٢٦٠ لعن النبي ﷺ أقواماً وأعمالاً. ٢٦٠
- ٢٦٠ بعض الأصناف التي لعنت على لسان النبي ﷺ: ٢٦٠
- ٢٦٠ الصورةُ الأولى: من وقع في الشرك، أو في صورة من صورهِ. ٢٦٠
- ٢٦١ الصورةُ الثانيةُ: الذين سبوا أصحاب النبي ﷺ. ٢٦١
- ٢٦١ الصورةُ الثالثةُ: آكل الربا. ٢٦١
- ٢٦١ الصورةُ الرابعةُ: مجتمَع الخمرِ. ٢٦١

- الصورة الخامسة: ما ابتليت به مجتمعاتنا، وهو مجتمَع الرِّشوةِ أيضًا ٢٦٢
- الصورة السادسة: الذي يلعنُ والديه ٢٦٢
- الصورة السابعة: أولئك الذين يعتدون في وطئِ نسائهم ٢٦٣
- الصورة الثامنة: الواصلة والمستوصلة ٢٦٤
- الصورة التاسعة: صورة ذلك الإنسان الذي نسب نفسه لغير أبيه ٢٦٤
- ٤٠ - الألفة ٢٦٦
- أهمية الألفة ٢٦٦
- وسائل لا بد من توافرها حتى تكون مألوفًا: ٢٦٨
- الوسيلة الأولى: إذا حققت الإيمان الصادق والعمل الصالح ٢٦٨
- الوسيلة الثانية: التواضع ٢٦٩
- الوسيلة الثالثة: إفشاء السلام ٢٧٠
- الوسيلة الرابعة: الهدية ٢٧١
- الوسيلة الخامسة: إخبار الآخرين بمحبتك لهم ٢٧١
- الوسيلة السادسة: الاستغناء عن منافسة الناس على الدنيا ٢٧١
- ٤١ - عبودية القلوب ٢٧٣
- تعريف العبودية ٢٧٣
- القلب أعظم الجوارح، وعبوديته أعظم مراتب العبودية لأسباب: ٢٧٤
- السبب الأول: أن النبي ﷺ قال: «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله...» ٢٧٤
- السبب الثاني: أن سلامة القلب يسلم لك الموقف يوم القيامة ٢٧٥

- السَّبَبُ الثَّالِثُ: أَنَّهُ مَوْضِعُ نَظَرِ الرَّبِّ عَزَّوَجَلَّ ٢٧٥
- السَّبَبُ الرَّابِعُ: أَنَّ فِي الْقَلْبِ مَوْضِعَ قَبُولِ الْعَمَلِ ٢٧٦
- السَّبَبُ الْخَامِسُ: أَنَّ تَفَاضُلَ الْأَعْمَالِ لَا يَكُونُ بِالصُّورَةِ وَالْعَدَدِ وَإِنَّمَا يَكُونُ بِهَا فِي الْقُلُوبِ ٢٧٦
- السَّبَبُ السَّادِسُ: أَنَّ الْقَلْبَ هُوَ مَوْضِعُ الْمَدْحِ أَوْ الذَّمِّ ٢٧٧
- ٤٢ - الْقُلُوبُ السَّلِيمَةُ** ٢٧٩
- أَدْوَاتُ سَلَامَةِ الْقَلْبِ: ٢٨١
- الأدأة الأولى: العِلْمُ بِاللَّهِ، الْمُوصَلُّ إِلَى حَقِيقَةِ الْإِيمَانِ ٢٨١
- الأدأة الثانية: الْإِكْتِسَابُ مِنَ الطَّاعَاتِ ٢٨٢
- تعريفُ الحَيَاةِ الطَّيِّبَةِ ٢٨٣
- الأدأة الثالثة: كَثْرَةُ ذِكْرِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ٢٨٣
- الأدأة الرابعة: أَنْ تَدْعُوَ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنْ يَسَلِّمَ لَكَ قَلْبَكَ ٢٨٥
- ٤٣ - الْقُلُوبُ الْمَرِيضَةُ** ٢٨٨
- أمراضُ القُلُوبِ كَثِيرَةٌ ٢٨٩
- أعراضُ مَرَضِ القُلُوبِ: ٢٩٠
- العَرَضُ الْأَوَّلُ: الْجَهْلُ بِالْغَايَةِ مِنَ الْخَلْقِ ٢٩٠
- العَرَضُ الثَّانِي: عَدَمُ الشُّعُورِ وَالْإِحْسَاسِ بِأَلَمِ الذَّنْبِ وَالْمَعْصِيَةِ ٢٩١
- العَرَضُ الثَّلَاثُ: انْتِكَاسُ الْحَقَائِقِ ٢٩٢
- العَرَضُ الرَّابِعُ: كِرَاهِيَةُ الشَّرْعِ ٢٩٣
- العَرَضُ الْخَامِسُ: التَّدْبِذُ وَالْإِزْتِيَابُ وَالتَّرَدُّدُ ٢٩٣

- ٢٩٥ ٤٤ - في رِحَابِ الْقُلُوبِ
- ٢٩٥ إكرامُ اللهِ قُلُوبَ الْمُؤْمِنِينَ
- ٢٩٦ مَشَاهِدُ فِي رِحَابِ الْقُلُوبِ:
- ٢٩٦ الْمَشْهَدُ الْأَوَّلُ: قُلُوبُ الْمُؤْمِنِينَ مُسْتَوْدَعٌ لِلرَّحْمَاتِ
- ٢٩٧ الْمَشْهَدُ الثَّانِي: الْقُلُوبُ قَلْبَانِ: قَلْبٌ أَبْيَضٌ، وَقَلْبٌ أَسْوَدٌ
- ٢٩٨ الْمَشْهَدُ الثَّلَاثُ: قَلْبُ الْمُؤْمِنِ يَتَأَثَّرُ بِالطَّاعَةِ سَلْبًا وَإِجَابًا
- ٢٩٨ الْمَشْهَدُ الرَّابِعُ: قَلْبُ الْمُؤْمِنِ يَسْكُنُ وَيَطْمَئِنُّ عِنْدَ الْحَلَالِ
- ٢٩٩ الْمَشْهَدُ الْخَامِسُ: أَنَّ هَذَا الْإِيمَانَ إِنَّمَا يَكُونُ فِي هَذِهِ الْقُلُوبِ
- ٣٠١ فهرس الموضوعات